« ساعدت وزارة المعارف العراقية على نشر هذا الكتاب »

الصراع بين الموالي والعرب

وهو

بحث في حركة الموالي ونتائجها في الخلافة الشرقية

تأليف

الدكتور

محمد بديع شريف

١٩٥٤

الناشر

دار الكتاب العربي بمصر

محمد حلمي المنياوي

« ساعدت وزارة المعارف العراقية على نشر هذا الكتاب »

الصراع بين الموالي والعرب

وهو

بحث في حركة الموالي ونتائجها في الخلافة الشرقية

تأليف

الدكتور

محمد بديع شريف

١٩٥٤

الناشر

دار الكتاب العربي بمصر

(محمد حلمي المنياوي)

إهداء

إلى روح أبي الذي ألهمني اتباع الحق . . .

إلى كل مسلم يشع في قلبه نور الإيمان . . .

إلى كل عربي ينبض في عرقه دم العروبة . . .

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

فى مستهل القرن السابع الميلادى اندفع أبناء قلب الجزيرة العربية إلى ثغورها وطفقت كتائبهم تتدفق إلى أرجاء العالم فاتحة ومبشرة . ونزل أفلاذ أكبادها سهول الرافدين منقذين ومحررين ، يحملون دينا وحضارة أما الحضارة فهى ذخيرة هؤلاء الفاتحين فى طباعهم وعرفهم وتقاليدهم وثقافتهم وتاريخ وقائعهم ، يعبر عنها سلوكهم فى الحياة ويحملها أدبهم فى شعره ونثره . وأما الدين فقد تسمم مكارم هذه الحضارة ونظم تكوين الأسرة ، وحدد الحقوق بين أفراد هذه الأسرة والعشيرة وبين الفرد وأخيه . وبين الإنسان وخالقه وتوج كل ذلك بالاعتراف بالحريات المطلقة الطبيعية لبنى الإنسان فى الإخاء والمساواة والعدل الاجتماعى وحرية الرأى وحرية الملك وغير ذلك على طراز منقطع النظير .

هذه عبارة واضحة موجزة فى الحضارة التى حملتها كتائب القلب إلى الهلال الخصيب منها . وقد وقف قائد هذه الكتائب على سهول الرافدين مبهوراً بهذه المدنية القديمة التى غلبها على أمرها ثم صلى ركعتين شكراً لله وتلا آية القرآن الكريم : كم تركوا من جنات وعيون وزروع ومقام كريم ونعمة كانوا فيها فاكهين ، كذلك وأورثناها قوماً آخرين» . ولكن هذا القائد ما كان يعرف تبعة هذا الإرث وما كان يعلم أن قراع السيوف سوف يعقبه صرير الأقلام واشتجار الآراء والأفكار بين حضارته الجديدة وبين أخرى هى ذخيرة عقول الأمم المتعاقبة على هذه السهول ، وأن المغلوب وإن كان يحاول تقليد الغالب فهو يحاول التخلص منه

والرجوع إلى سابق عهده وأن كثيراً من النفوس التي ألفت شيئا وطبعت عليه يصعب عليها أن تتحلل منه وتنزع إلى جديد آخر غيره . ولذلك ما لبث الأمر برهة من الزمن حتى بدأت من المغلوبين طلائع الثأر . لكن الغالب كان في فتاء السن وعنفوان القوة .

كانت نتيجة هذا الغلب ظهور جماعة جديدة دخل فريق منها في هذا الدين الجديد عن عقيدة وإيمان . واعتنقه فريق آخر ظاهرا وظل يبطن خلاف ما يظهر ويخلص لعقيدته الأولى ويتمسك بثقافته وحضارته . ومن هنا بدأت حركة عنيفة اتخذت أشكالا مختلفة ، ثم استقرت على تعبئة منظمة ، فقد رأى المغلوب أن الكيد لهذا الطارىء الجديد على الحيلة أنجع وأنه لا يمكنه القضاء على هذا المبدأ إلا بمعرفته ، فانكبوا على دراسة اللغة ودراسة ما ورد من الآثار والتعرف على عادات القوم وطبائعهم ، ونعم الفريقان بهذه المبادىء وباللغة وآدابها والفضائل الأصيلة واتخذ الفريق الحانق منها سلاحا ليقوض به أركان هذا الغلب ويرجع بالناس إلى سالف العهد .

وانقضت السنون والاختلاط يشتد بين الغالب والمغلوب حتى تم لكثير من أبناء السبي في الحواضر والبوادي إتقان اللغة والتفقه في الحديث ودراسة القرآن والتطبع بطبائع الحاضرة والبادية . وتقدموا في مناصب الدولة والجيش ولقنوا عن آبائهم مآثر أسلافهم ، فأقبلوا على ترجمة ما أثر عن ماني ومزدك وما كتبه التاريخ في سير عظمائهم وملوكهم ، وما طوى في بطون الكتب من أدبهم وثقافتهم ووضع كل ذلك أمام ما جاءت به كتائب الجزيرة وجها لوجه وصار خميرة قوية لإثارة الشك في العقيدة ، ومنبعا لظهور البدع وانتشار المراء والجدل الفلسفي الذي نشأت عنه الفرق المتعددة ، وفي غمرة هذه الآراء نبطت جماعة غضبي أو هازلة عابثة فوضعت ما شاء لها الوضع في الشعر والتاريخ

والأدب ، وألفت كتب المثالب والطعن فكان من جراء ذلك كله ما كان من تشويه حقائق التاريخ وحقائق العلم وتوجيه الرواية والأدب وجهة خاصة هي إلى الهدم أقرب منها إلى أي بناء . وأخذ الناس المروى من التاريخ دون تحقيق وتمحيص وأقبلوا على الشعر يروونه وينسجون على منواله واتخذوا مما أثر عن هؤلاء في الفلسفة والاجتماع موضوعات للدرس يتدارسونها ويعارضون بها العقيدة والشريعة . وقد تبنت أسرة البرامكة تشجيع حركة النشر والتأليف وتشجيع الأدباء والمترجمين ، واستولت على شئون الدولة واحتجنت المناصب والأموال وطفقت تتصرف في أمور المملكة تصرف المالك في ملكه فأغضب ذلك كله الرشيد فعجل بأمرهم قبل أن يمشوا إليه ، ولكن ذلك لم يفت من عضد الموالى واستمروا على حركتهم حتى تم لهم الظفر اجتماعيا وأدبيا ونبتت رءوس البدع فتهلهل حال الدولة ومالت إلى الزوال وتوج هذا الظفر بأسرة آل بويه الذين أسلموا الدولة إلى الخراب .

هكذا واجهت حضارة الجزيرة هذا الصراع العنيف الذي تولته المانوية والمزدكية ، لكنها صمدت أمامهما بما لها من الجدة والقوة ، واستطاعت أن تهضم ماأخذته من حضارتي اليونان والرومان وما اقتبسته من علوم الأمم الأخرى، وأن تفرغها بلغتها الواضحة فتظهر جمالها وتبرزها للناس فيما أبدعته من هندسة وفن ، وابتكرته من علم في الرياضات والكيمياء والصناعة والتقنين والتشريع ، حتى أصبح تشريعها أصلا من أصول شرائع الأمم المتحضرة ، فكانت حلقات الدرس العلنية تجابه تعاليم الباطنية ودور العلم تتوارى منها كهوف المانوية والمزدكية ونور الإيمان يطفىء لهيب المجوسية الذي كان يؤججه ابن المقفع وبشار بن برد والبرامكة وأبو نواس وأبو العتاهية وأضرابهم ، وكانت أخبار الأصمعي وروايات المفضل الضبي وابن دريد ، تخفف من انتحال خلف الأحمر ،

ووضع حماد ، وبهتان أبي عبيدة على حقائق التاريخ . ومع ذلك كله فإن طبيعة المجتمع طبيعة الكائن الحى يدركها الوهن والانحطاط فإذا اختل جهاز الكائن الحي وهن العظم وتصلب الجذع وارتخت الأطراف فى أداء أعمالها واصطلحت عليه العلل ، كذلك هى حضارات الأمم إذا ضعفت فيها عناصر القوة وتوارت الحقائق ، برزت دواعى البدع وطلعت ألسنة المجريين لتحل الكذب محل الصدق والمنحول مكان الأصيل وتشرع تستغل السذج وقطعان البشر التى تسير بالأوهام وتميل إلى التحلل من الصدق والنظام وتستجيب لكل ما يوقظ فيها غرائز النهم التى تخضم ثمار الفضيلة ، وتعود الأنفس تتأرجح فى أراجيح الشك فيلذ للفرد أن يتنقل من عقيدة إلى عقيدة ومن مبدأ إلى آخر ويسخر بالتقاليد ولا يبالى بالنقص ، وتسود أحاديث خرافة على حقائق الواقع وتطرد نوابت البدع أصائل العقائد فيضطرب الرأى العام ويصبح ذلك الرأى هو المسيطر على تكوين الجهل بعد أن كان المفروض أن الدماغ المفكر هو الذى يسيطر على إنشاء الجهل وإبداع عناصر الحضارة . فإذا وصلت أمة من الأمم إلى مثل هذا الطور أو فسح أبناء الجهل مجالا فى أن تكون أمة من الأمم فى مثل هذا الطور صارت حضارتها تتأرجح بين اصبعى القدر ، فإذا هيأت لها الإرادة العليا مصلحاً مرشداً عزت عليه سبل الإصلاح وتكأكأ عليه دعاة الضلال ، فيشرع يصارع هؤلاء الضالين ويصارعونه حتى يأخذ الله بيده ويعينه أتباعه ونصراؤه .

إن الخرافات لا تقف فى وجه الحقائق ، والأباطيل لا تثبت أمام التدقيق والتحقيق ، ولن يستطيع تبديد شوائب الخرافات وأخلاط البدع إلا العلماء المحققون الذين يصبرون على متابعة البحث ، حتى تصفو حقائق العلم والتاريخ وتخلص العقائد كما يخلص الذهب الإبريز من خبث الحديد ، عند ذلك تصبح الأمة تنظر إلى أمجادها وعقائدها بنظر العقل

لا بعيون الهوى . والتاريخ والأدب يمدان أيديهما إلى المحققين الباحثين مستنجدين لتخليصهما من هذه الشوائب التى لعبت بهما لعب النكباء بالعود ، وتركت هذا الشرق يئن من جراحه المثخنة . وقد كنت وأنا فى دور الحضانة الدراسية أستعرض حوادث هذا الشرق وأتقصى آثاره وأتبين هفواته ونهضاته وكبواته ، فإذا أكثر ذلك يعود إلى هذه الحركة « حركة الموالى » التى اتخذتها موضوع دراستى وعالجتها معالجة المدقق ، وضربت لذلك الأمثال لأدلل على ما أقول ، وجعلت النص الذى أورده من أمهات الكتب هو الذى ينطق بالحقائق ، فإن وفقت بعض التوفيق إلى إبراز هذه الصورة الواضحة فالخير أردت ، وإن شاركنى القارىء فى الرأى فذلك ما أصبو إليه ، وإن خالفنى فى رأى فله رأيه وحسبى أننى أظهرت رغبة كانت تجول فى خاطرى ، فإن كنت أخطأت فلى أجر واحد ، وإن أصبت فلى أجران . على أننى لا أكتم القارىء بأن هذا العمل لقى تشجيعاً من قبل علماء الاستشراق ، فقد وردتنى رسائلهم يثنون بها على ما وصلت إليه فى إيضاح كثير مما كان غامضاً . ولا يفوتنى التنويه بفضل الأستاذ « باول كالا » أستاذ الاستشراق فى جامعة « بن » على الراين من مقاطعات ألمانيا ، فقد بدأت العمل معه بعد أن وافقت وزارة المعارف على اسم الموضوع وقد كان اسمه أولا « الصراع بين الموالى والعرب » ثم حدث أن ترك هذا الأستاذ بلاده لاختلاف وجهة نظره مع حكومته حينذاك ، فتبنى العمل بعده الأستاذ « هفننج » ولكن اندلاع لهيب الحرب حال دون الاستمرار على العمل معه ، فسافرت إلى سويسرة حيث قبل الأستاذ « رودلف جودى » أستاذ المشرقيات فى جامعة « بازل » الموضوع كما قدمته بادىء ذى بدء ، ثم بدا له أن العنوان ضخم ، يحتاج إلى سفر كبير ، وبحث طويل ، تحول ظروف هذه الحرب الشعواء دون إعطاء المجال لتحقيقه . وطلب اختصار العنوان وجعله

ويبحث فى حركة الموالى فى الخلافة الشرقية ، على أن نلم بالموضوع من أطرافه ليكون صورة ناطقة لإيضاح هذه الحركة ومراميها وله الفضل والشكر فى كثير مما جاء فقد كان عالماً محققاً ولم يرض أن يقرن اسمه مع اسمى فى هذه الرسالة حتى قرأ نصوصها نصاً نصاً . ورجع إلى مضانها وأرشدنى إلى كثير من النصوص التى تؤيد الأقوال ، فكان بمثابة المعين والمؤيد ، وكان يقسو أحياناً فيشتد الجدل بينى وبينه حتى نرجع إلى أمهات الكتب والمصادر لتكون الحكم الفصل بيننا . وهكذا تم وضع الرسالة التى تقدمت بها للامتحان فى منتصف عام ١٩٤١ ، ولم يتم طبعها إلا فى عام ١٩٤٢ باللغة الألمانية بعد مراجعة ومعاودة بينى وبين الأستاذ . فجاءت على هذا الوضع الذى يراه القارىء بين يديه ولن أدعى أنى وفيت الموضوع حقه ، فهو موضوع واسع شائك ولكنى لمست أطرافه ووضحت سبله وأشرت إلى مواطن القوة والضعف فيه ، وجعلت لمن يريد الاستزادة منه بعدى سبيلا ممهداً واضح المعالم ، والله الموفق ، وله العصمة والكمال وحده .

الفصل الأول

العرب والفرس قبل الإسلام

قلب الجزيرة العربية هو الينبوع الدافق لموجات العرب فى العراق والشام ومصر والبلاد الناطقة بالضاد ، ويهمنا من هذه الموجات فى هذا البحث تلك التى نزلت الهلال الخصيب واستوطنته . فإن الغساسنة كونوا مملكة شرقى الشام[1] ونزل المناذرة العراق فأسسوا مملكة الأحلاف فى الحيرة والأنبار وكان ملوك الحيرة مرتبطين بعهد مع الأكاسرة يؤدون إليهم الخراج ويعينون من قبلهم[2] .

وكانت قبائل أياد تشتو فى بوادى الجزيرة وتصيف بالعراق وكانت لكثرتها تسمى طبا لانطباقها على البلاد[3] ويحدثنا المؤرخون عن علاقة العرب بجيرانهم الفرس شتى الأحاديث فمرة تكون صفاء ، وتارة حربا شعواء ، من ذلك ما فعله سابور ذو الأكتاف (٣١٠ — ٣٧٩) حيث غزا بلاد العرب فغور مياههم ، وأوقع بهم فلما غزاه ملك الروم أسرعت قبائل العرب فأوقعت بسابور وقتلته وغنمت أمواله ، وكان العرب يسمونه ذا الأكتاف لأنه كان لجوره يخلع كتفى عدوه إذا وقع فى يده[4] .

ويقول التبريزى فى شرحه لمعلقة الحارث عند ذكر البيت (٤٩) : لم يكن فى نزار حى أكثر من اياد ، ولا أحسن وجوها ولا أمد أجساما

---

(١) اليعقوبى ج ١ ص ٢٥٣ الطبرى ج ٢ ص ١٠٣٥

(٢) ط ج ٢ ص ٩٤٦

(٣) ابن خلدون ج ٢ ص ١٧٠

(٤) يعقوبى ج ١ ص ١٨٣ ، ابن خلدون ج ٢ ص ١٧٣

ولا أشد امتناعا ، وكانوا لا يعطون الأتاوة واحدا من الملوك ، وقد هزموا جيوش كسرى أنوشروان ثلاث مرات . وكتبت قبائل بكر بن وائل فى منتصف القرن السادس الميلادى صفحة جديدة فى تاريخ العرب فى واقعة ذى قار وكانوا ينشدون هذا البيت :

يا قوم طيبوا بالقتال نفسا   أجدر يوم أن تفلوا الفرسا(١)

ومن الصفاء ماحدثوا به عن سيف بن ذى يزن استعان بملك الفرس على الأحباش فأمده بالجيوش واشترط عليه دفع الأتاوة فلما هزمت الحبشة بقيت اليمن مرتبطة مع الفرس حتى جاء الإسلام ففض خدمة هذا الارتباط(٢) .

العرب والفرس فى صدر الإسلام

لما استتب الأمر لأبى بكر عنى بالعراق والشام ، وجاءه المثنى بن حارثة الشيبانى فقال له ، أمرنى على من قبلى من قومى ، أقاتل من يلينى من أهل فارس وأكفيك ناحيتى ، فكتب أبو بكر إلى خالد وهو مقيم باليمامة أن سر إلى العراق حتى تدخلها وابدأ بفرج الهند وهى الأبلة وتألف أهل فارس ومن فى ملكهم من الأمم(٣) .

وطلب إلى المثنى أن ينضم إلى لواء خالد فسار القائد أن يسير معهما النصر كلما التقيا بجيش من جيوش الفرس حتى وصلا الحيرة ، فخلا خالد بكل صاحب قصر وقال :

« ويحكم ماأنتم ؟ .. أعرب فما تنقمون من العرب ؟ .. أو عجم فما تنقمون من الأنصاف والعدل ؟ . . » فقال له عدى : « بل عرب عاربة وأخرى

---

(١) ط ج ٢ ص ١٠٢٦

(٢) ط ج ٢ ص ٩٤٤ ، ٩٤٦ سيرة بن هشام ص ٤٢

(٣) ط ج ٤ ص ٢٠١٦ — ٢٠١٨

متحربة » . فقال : « لو كنتم كما تقولون ! لم تحادونا وتكرهوا أمرنا ! » ، فقال له عدى : « ليدلك على ما نقول ، أنه ليس لنا لسان إلا بالعربية » فقال : « صدقت . فاختاروا واحدة من ثلاث أن تدخلوا ديننا فلكم مالنا وعليكم ما علينا ، إن نهضتم وهاجرتم وإن أقمتم فى دياركم ، أو الجزية ، أو المنابذة والمناجزة ، فقد والله أتيتكم بقوم هم على الموت أحرص منكم على الحياة » ، فلما قال عدى : « بل نعطيك الجزية » ، غضب خالد وقال : « تبا لكم ! ويحكم ! إن الكفر فلاة مضلة فأحمق العرب من سلكها فلقيه دليلان أحدهما عربى فتركه واتخذ الأعجمى دليلا »[١] .

وتوجه المثنى إلى عين التمر ففتحها وقتل وسبى ، وبعث بالسبى إلى أبى بكر فكان أول سبى قدم المدينة من العجم[٢] ثم وجه خالد إلى مرازبة أهل فارس رسالة جاء فيها :

أما بعد : فالحمد لله الذى فض خدمتكم ، وسلب ملككم ووهن كيدكم ، وأنه من صلى صلاتنا واستقبل قبلتنا وأكل ذبيحتنا فذلك المسلم الذى له مالنا وعليه ما علينا ، فإذا جاءكم كتابى فابعثوا إلى بالرهن واعتقدوا منى الذمة وإلا فوالله الذى لا إله غيره لأبعثن إليكم قوما يحبون الموت كما تحبون الحياة .

فلما قرءوا الكتاب أخذوا يتعجبون[٣] .

ولما آل الأمر إلى عمر بن الخطاب وجه جلّ عنايته إلى العراق وقال : والله لأضربن ملوك العجم بملوك العرب ، فلم يدع رئيساً ولا ذا رأى ولا شريفا ولا ذا سلطة ولا خطيباً ولا شاعراً إلا رماهم به ، فرماهم بوجوه الناس وغررهم[٤] . فعين أبا عبيد بن مسعود الثقفى قائدا أعلى ولكنه

---

(١) ط ج ٤ ص ٢٠٤١ (٢) ط ج ٤ ص ٢٠٧٧
(٣) ط ج ٤ ص ٢٠٢٠
(٤) ط ج ٤ ص ٢٢٢٣ .

قتل فى واقعة الجسر(١) وتولى القيادة بعده المثنى فالتحم مع الفرس فى واقعة البويب ، ثم أسند عمر القيادة العليا إلى سعد بن أبى وقاص وأمر المثنى وجرير بن عبد الله أن يجتمعا إلى سعد فالتحم الفريقان بحرب فاصلة .

وقدم فرسان بنى كنانة والأزد على عمر . فقال لهم : أى الوجوه أحب إليكم ؟ ... قالوا : الشام — أسلافنا — أسلافنا . فقال : قد كفيتموه العراق — العراق — ذروا بلدة قد قلل الله شوكتها وعددها (الروم) واستقبلوا جهاد قوم قد حووا فنون العيش (الفرس)(٢) .

فلما انتهى العرب من واقعة البويب جلسوا يتحدثون فيما بينهم وأخذ المثنى يكلمهم فقال : « قد قاتلت العرب والعجم فى الجاهلية والإسلام ، والله لمائة من العجم فى الجاهلية كانوا أشد على ألف من العرب ، ولمائة اليوم من العرب أشد على ألف من العجم . إن الله أذهب مصدوقتهم ووهن كيدهم فلا يروعنكم زهاء ترونه ، ولا سواد ولا قسى فج ولا نبال طوال ، فإنهم أن أعجلوا عنها أو فقدوها كانوا كالبهائم ، أينما وجهتموها اتجهت(٣) .

وجاء فى كتاب أبى عبيدة بن الجراح إلى سعد : « إنك تقدم على أمة عددهم كبير وعدتهم فاضلة وبأسهم شديد وعلى بلد منيع ، وإن كان سهلا كؤود لبحوره وفيوضه ودآدئه إلا توافقوا غيضا من فيض ، وإذا لقيتم القوم أو واحدا منهم فابدءوهم الشد والضرب وإياكم والمناظرة لجموعهم ، ولا يخدعنكم فإنهم خدعة مكرة أمرهم غير أمركم إلا أن تجاوروهم(٤) .

ولما نزل العرب القادسية عج أهل السواد إلى يزدجرد بن شهريار

---

(١) ط ٢١٨٤ (٢) ط ج ٤ ص ٢١٨٧
(٣) ط ج ٤ ص ٢١٨٤ (٤) المصدر نفسه ص ٢٢٢٢

ملك العجم وأرسلوا إليه أن العرب قد نزلوا القادسية بأمر ليس يشبه إلا الحرب ، فإن أبطأ عنا الغياث أعطيناهم بأيدينا .

فأرسل يزدجرد إلى رستم وقال له : إنى أريد أن أواجهك فى هذا الوجه وإنما يعد للأمور على قدرها[1] ثم قال يزدجرد لرستم : « صف العرب منذ نزلوا القادسية وصف لى العجم وما يلقون منهم » فقال رستم : « صفة ذئاب صادفت غرة من رعاء فأفسدت » فقال ليس كذلك ، وإنما سألتك رجاء أن تعرف صفتهم فأقويك لتعمل على قدر ذلك فافهم عنى »

« إنما مثلهم ومثل أهل فارس كمثل عقاب أوفى على جبل يأوى إليه الطير بالليل فتبيت فى سفحه فى أوكارها فلما أصبحت تجلت الطير فأبصرته يرقبها فإن شذ منها طائر اختطفه . فلما أبصرته الطير لم تنهض من مخافته وجعلت كلما شذ منها طائر اختطفه فلو نهضت نهضة واحدة ردته . وأشد شيء يكون فى ذلك أن تنجو كلها إلا واحداً وإن اختلفت لم تنهض فرقة إلا هلكت فهذا مثلهم ومثل الأعاجم فاعمل على قدر ذلك » .

وهكذا عرفت كل أمة من الأمتين شدة بأس الأخرى وقوتها وأخذت تستعد لمناجزتها فى حروب طاحنة وأسر وسبى وما إلى ذلك من نتائج تبعثها مثل هـــذه الحروب التى تقوم على نشر مبدأ أو تحقيق هدف معين .

المواقع الفاصلة بين العرب والفرس

موقعة القادسية — موقعة جلولاء — وموقعة نهاوند

جاء فى كتاب أبى عبيدة بن الجراح إلى سعد : « وإذا انتهيت إلى القادسية ، والقادسية باب فارس فى الجاهلية ، وهى أجمع تلك الأبواب

(١) ط ج ٥ ٢٢٤٨ . المصدر نفسه .

للادتهم ، وهو منزل رغيب خصيب دونه قناطر ، وأنها ممتنعة ، فتكون مسالحك على أنقابها ، ويكون الناس بين الحجر والمدر ، وعلى حافات الحجر وحافات المدر ، والجراع بينهما . ثم الزم مكانك فلا تبرحه ، فإنهم إن أحسوك أنغضتهم ورموك بجمعهم . . . فان أنتم صبرتم لعدوكم ، واحتسبتم لقتاله ، ونويتم الأمانة ، رجوت أن تنتصروا عليهم ثم لا يجتمع لكم مثلهم أبدا ، إلا أن يجتمعوا وليست معهم قلوبهم .

وإن تكن الأخرى كان الحجر فى أدباركم ، فانصرفتم من أدنى مدرة من أرضهم إلى أدنى حجر من أرضكم ، ثم كنتم عليهم أجرأ وبها أعلم . وكانوا عنها أجبن وبها أجهل ، حتى يأتى الله بالفتح عليهم ويرد لكم الكرة» .

فى هذا الموقع المنيع اشتبك جيش العرب بجيش الفرس بملحمة دامت ثلاث ليال ، أشدها الليلة الثالثة التى يقول فيها أنس بن الحليس :

شهدت ليلة الهرير فكان صليل الحديد فيها كصوت القيون . ليلتهم حتى الصباح أفرغ عليهم الصبر أفراغا ، وبات سعد بليلة لم يبت مثلها ، ورأى العرب والعجم أمراً لم يروا مثله قط ، وانقطعت الاصوات والأخبار عن رستم وسعد وأقبل سعد على الدعاء ، حتى إذا كان وجه الصبح وانتهى الناس أستدل بذلك على أنهم الأعلون وأن الغلبة لهم (١) .

انهزم الفرس إلى دير قرة ومنها إلى المدائن ، فتبعهم العرب حتى وصلوا إلى القصر الأبيض ، وقد تحصن به الفرس . فعرض عليهم العرب واحدة من ثلاثة : اختار الفرس منهن الجزية . ودخل سعد المدائن حتى انتهى إلى إيوان كسرى ، فصلى ركعتين ثم تلا الآية :

« كم تركوا من جنات وعيون وزروع ومقام كريم ونعمة كانوا فيها فاكهين كذلك وأورثناها قوماً آخرين » (٢) .

---

(١) ط ج ٥ ص ٢٣٣٣ (٢) ط ج ٥ ص ٢٤٤٣

وأصيب من الفرس فى موقعة جلولاء عدد عظيم إذ جللت قتلاهم الأرض . وسميت هذه الموقعة « جلولاء الوقيعة[١] » . وأصاب المسلمون بها من الفئ أفضل ما أصابوا بالقادسية وأسروا ابنة كسرى .

ثم طلب العرب من عمر أن يأذن لهم فى اتباعهم فأبى ، وقال : « لوددت أن بين السواد والجبل سداً لا يخلصون إلينا ولا نخلص لهم ، حسبنا من الريف السواد . إنى آثرت سلامة المسلمين على الأنفال[٢] » .

ولما فتح المسلمون الأهواز قال : حسبنا لأهل البصرة سوادهم والأهواز ، وودت أن بيننا وبين فارس جبلا من نار لا يصلون إلينا منه ولا نصل إليهم[٣] .

أما فى موقعة نهاوند فقد تكاتب العجم فى أرضهم جميعاً ثم أجمعوا أن يوافوا نهاوند ويبرموا فيها أمورهم . فلما التقوا قلبوا الأمور وعرضوا المواقف وقالوا : « إن محمداً الذى جاء العرب بالدين لم يغرض غرضنا ، ثم ملكهم أبو بكر من بعده فلم يغرض غرض فارس ، إلا فى غارة نعرض لهم فيها ، وإلا فيما يلى بلادهم من السواد . ثم ملك عمر من بعده فطال ملكه وعرض حتى تناولكم . وانتقصكم السواد والأهواز وأوطأها ، ثم لم يرض حتى أتى أهل فارس والمملكة فى عقر دارهم . وهو آتيكم إن لم تأتوه . فقد أخرب بيت مملكتكم واقتحم بلاد ملككم . وليس بمنته حتى تخرجوا من فى بلادكم من جنوده وتقبضوا على هذين المصرين ، ثم تشغلوه فى بلاده وقراره » .

وتعاهدوا وكتبوا بينهم على ذلك كتاباً وتمالؤا عليه[٤] ، وكتب سعد إلى عمر يخبره بمؤتمر العجم ، ولم يكتف بذلك بل ذهب إلى الخليفة

---

(١) ط جـ ٥ ص ٢٤٤٣ (٢) المصدر نفسه ص ٢٤٦٤ . (٣) ص ٢٥٤٥ .
(٤) ط جـ ٥ ص٢٦٠٥ — ٢٦٠٨ .

بنفسه ، فلما بلغ عمر الخبر نادى فى الناس ، الصلاة جامعة ! ! . فاجتمع الناس وقد وافاه سعد . فقام عمر على المنبر وقال : « هذا يوم له ما بعده من الأيام ، ألا وإنى قد هممت بأمر وانى عارضه فاسمعوه ، ثم أخبرونى وأوجزوا ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم ، ولا تكاثروا ، ولا تطيلوا فتفشغ بكم الأمور ، ويلتوى عليكم الرأى .

أفمن الرأى أن أسير فيمن قبلى ومن قدرت عليه حتى أنزل منزلا وسطا بين هذين المصرين ، فأستنفرهم ثم أكون لهم ردءاً حتى يفتح الله عليهم . . . ؟ فقام عثمان وطلحة والزبير وعبد الرحمن بن عوف فى رجال من أهل الرأى فتكلموا كلاما فقالوا « لا نرى ذلك ولا يغيبن عنهم رأيك وأثرك » . وقالوا : « بإزائهم وجوه العرب وفرسانهم وأعلامهم ، ومن قد فض جموعهم ، وقتل ملوكهم ، وباشر من حروبهم ما هو أعظم من هذه ، وإنما استأذنوك ولم يستصرخوك ، فأذن لهم ، واندب إليهم ، وادع لهم ، (وكان الذى ينتقد له الرأى إذا عرض عليه ، العباس) .

ثم قام على بن أبى طالب فقال : « أصاب القوم — يا أمير المؤمنين — الرأى ، وفهموا ما كتب به إليك » وإن هذا الأمر لم يكن نصره وخذلانه بكثرة ولا قلة ، هو دينه الذى أظهره ، وجنده الذى أعزه وأيده بالملائكة حتى بلغ ما بلغ ، فنحن على موعود ، والله منجز وعده وناصر جنده ، ومكانك منهم مكان النظام من الخرز يجمعه ويمسكه ، فان انحل تفرق ما فيه وذهب ثم لم يجتمع بحذافيره أبداً . والعرب اليوم وإن كانوا قليلا ، فهم كثير عزيز بالإسلام . فأقم وا كتب إلى أهل الكوفة فهم أعلام العرب ورؤساؤهم ، ومن لم يحفل بمن هو أجمع وأجد وأحد من هؤلاء . فليأتهم الثلثان وليضم الثلث . وا كتب إلى أهل البصرة أن يمدوهم ببعض من عندهم » . فسر عمر بحسن رأيهم ، وأعجبه ذلك . وقام

سعد وقال : « يا أمير المؤمنين خفض عليك فإنهم إنما جمعوا لنقمة[١] » .

ثم قال عمر : فأشيروا على برجل أوله ذلك الثغر غدا » . قالوا : « أنت أفضل رأيا وأحسن مقدرة » ، قال : « أشيروا على به ، واجعلوه عراقيا . قالوا : « يا أمير المؤمنين أنت أعلم بأهل العراق ، وجندك قد وفدوا عليك ، ورأيتهم وكلمتهم » . فقال : « والله لأولين أمرهم رجلا ليكونن لأول الأسنة إذا لقيها غدا » . فقيل : من يا أمير المؤمنين ؟ . . فقال : النعمان بن مقرن المزنى ، قالوا : هولها ، والنعمان يومئذ بالبصرة ومعه قواد من قواد أهل الكوفة[٢] .

ولقد أجمع الفريقان على ملاقاة كل صاحبه الملاقاة الأخيرة . فقد قال أحد العرب فى ذلك الحين : والله ما علمت من المسلمين أحداً يريد أن يرجع إلى أهله حتى يقتل أو يظفر ، فحملنا حملة واحدة وثبتوا لنا فما كنا نسمع إلا وقع الحديد ، حتى أصيب المسلمون مصائب عظيمة ، فلما رأوا صبرنا وأنا لا نبرح العرصة ، انهزموا ، فجعل يقع الواحد فيقع عليه سبعة (فقد كانوا مقرنين بالسلاسل) بعضهم على بعض فى قياد فيقتلون جميعا ، وجعل يعقرهم حسك الحديد الذى وضعوه خلفهم .

فقال النعمان : « قدموا اللواء فجعلنا نقدم اللواء ونقتلهم ونهزمهم فلما رأى أن الله استجاب له ، ورأى الفتح ، جاءته نشابة فأصابت خاصرته فقتلته[٣] فكان أول قتيل ، وأخذ الراية أخوه سويد ، ففتح الله على المسلمين ، ولم يكن للفرس جماعة بعد يومئذ ، فكان أهل كل مصر يغزون عدوهم فى بلادهم[٤] وجاء رسول مسلمة بن قيس — أحد قواد العرب — إلى عمر ، فقال : « يا أمير المؤمنين سرنا حتى لقينا عدونا من المشركين ، فدعوناهم إلى ما أمرتنا به : الإسلام فأبوا ، فدعوناهم إلى

---

(١) ط ج ٥ ص ٢٦٠٩ .
(٢) ط ٢٦١٤ .
(٣) ط ج ٥ ص ٢٦٠٤
(٤) المصدر نفسه ص ٢٦١٥ .

الخراج فأبوا ، فقاتلناهم فنصرنا الله عليهم . فقتلنا المقاتلة وسبينا الذرية وجمعنا الرثة[1] فلما قدم سبي نهاوند إلى المدينة جعل أبو لؤلؤة فيروز — غلام المغيرة بن شعبة — لا يلقى منهم صغيراً إلا مسح رأسه وقال : « أكل كبدى عمر[2] » .

اختلاط العناصر بعد هذا الفتح

وأثر هذا الاختلاط فى التقاليد والعادات

بهذه المواقع الفاصلة التى مر ذكرها وغيرها مما لم نذكره انفتحت ثغور فارس والهند وشرعت الجزيرة العربية تبعث بأفلاذ أكبادها من جميع القبائل لنصرة الإيمان وتوطيد أكناف الخلافة ، ففتحوا الأقاليم وغلبوا عليها الأمم والدول وانتشرت القبائل والبطون والأفخاذ : قريش وكنانة ، وخزاعة وبنو أسد ، وهذيل وغطفان وسلم وهوازن ، وثقيف وسعد بن بكر وعامر بن صعصعة ، ثم بنو تغلب بن وائل وكافة شعوبهم من بنى يشكر وبنى حنيفة وبنى عجل ، وبنى ذهل بن شيبان ، وتيم الله ، وابن النمر بن قاسط ، وعبد القيس ومن إليهم ، ثم الأنصار : الأوس والخزرج وشعوب غسان وسائر قبائل الأزد وهمدان وخثعم وبجيلة ومذحج وكافة بطونها والنخع والأشعريين وبنى الحرث بن كعب ، ولحى وبطونها ، وكندة وملوكها وسبأ وقضاعة وجميع بطونها و .... الخ .

كل هؤلاء وغيرهم أنفقتهم الجزيرة العربية وافترقوا على الثغور البعيدة والأقطار البائنة ونزلوا بها حامية ومرابطين ، عصبا وفرادى[3]

---

(١) طبقات ابن سعد ج ٣ ص ٢٠٢ (٢) ط ج ٥ ص ٢٦٣٢

(٣) اقرأ هذا مفصلا فى تاريخ ابن خلدون ج ٦ ص ٢

يحملون معهم فضائل الجزيرة من الشجاعة والمروءة والاعتزاز بالشرف والوفاء والصدق والإيمان ، وتناقل الملك فيهم من عنصر إلى عنصر ومن بيت إلى بيت واستفحل ملكهم فى دولة بنى أمية وبنى العباس من بعدهم بالعراق ، وبلغوا من الترف والبذخ مالم تبلغه دولة من دول العرب والعجم من قبلهم ، فاستخدموا العبيد ، واصطنعوا الموالى[١] وأقبلوا على زواج الفارسيات وتسرى الإماء والاختلاط بالشعوب التى تقطن فى البلاد المفتوحة وظهر هذا الأثر بينا فى الأماكن المأهولة بالفرس ، فكان من ذلك ظهور عادات جديدة بين الأسر العربية خاصة منهم الأمراء وقواد الجيوش والبلاط ، والذين دخلت الزوجات والسرارى الفارسيات بيوتهم . فقد حدثنا الطبرى : أن دينار من أسرة آل قارن إحدى الأسر الفارسية المشهورة كان يختلف إلى الكوفة ، فقام مرة فى الناس خطيباً وقال : يا معشر أهل الكوفة ، أنتم أول ما مررتم بنا كنتم خيار الناس ، فعمرتم بذلك زمن عمر وعثمان ، ثم تغيرتم ، وفشت فيكم خصال أربع : بخل وخب وغدر وضيق ، ولم يكن فيكم واحدة منهن ، فرمقتكم ، فإذا ذلك فى مولديكم فعلمت من أين أتيتم ، فإذا الخب من قبل النبط ، والبخل من قبل فارس ، والغدر من خراسان ، والضيق من قبل الأهواز .

وقد شعر العرب أنفسهم بأثر هذا الاختلاط وشكوا منه مر الشكوى ، قال الرياشى الشاعر :

إن أولاد السرارى كثروا يا رب فينا
رب أدخلنى بلادا لا أرى فيها هجينا[٢]

وصور أبو العلاء المعرى هذا الامتزاج تصويرا لطيفا[٣] وقال العالم الألمانى « كريمر » فى مقدمته لديوان أبى نواس : « دخلت بلاط الخليفة

---

(١) ابن خلدون ٦ ص ٣ (٢) الكامل المبرد ص ٣٠٢
(٣) لزوميات ص ٤٤٦

فى بغداد أغانى الفرس ولغة الفرس وأخلاقهم وأعيادهم ، وزاد على ذلك فى كتابه « تاريخ الثقافة » ولقد كانت نتيجة هذا الاختلاط ـــ الذى حاول عمر الأول بكل جهده أن يحول دونه ـــ مع الشعوب المغلوبة واضحة ، فإن الجنس الحاكم قد اكتسب كمية وفقد كيفية . لقد أضاع كثيراً من فضائل العشيرة ، بحيث تغير الجنس ، فأصبح الإنسان سريع القبول للعادات السيئة من الشعوب المحكومة ، ولكن الذى يجب أن يذكر هو ما اكتسبه العنصر الحاكم من الثقافات العلمية من اليونان والفرس[1] » .

عن تلك المواقع الفاصلة والفتح العظيم ، نشأ السبى والعتق والولاء والاختلاط والامتزاج والاقتباس وتكونت طبقة الموالى التى سنفصل البحث فيها ، والتى ذكرت هذه المواقع تمهيداً لها ، فإن الذى لا يعرف موقعة القادسية وجاولاء ونهاوند وغيرها ، يصعب عليه معرفة منشأ الموالى ولا يستطيع أن يقول إن فلانا مولى فلان ، وفلانا معتق لفلان .

---

(١) كريمر : ديوان أبى نواس ص ١١ ، تاريخ الثقافة جـ ٢ ص ١٥٠

الفصل الثانى

المولى . ومكانته فى نظر العرب

تعريف المولى :

المولى له معان كثيرة فى اللغة ، منها المولى بمعنى السيد ، أو الحليف ، أو ابن العم ، وكذلك من يسلم على يديك ويواليك ، أو هو المعتق الذى ينتسب بنسبك ، فإذا أعتق سيد عبده التحق هذا المعتق بنسب السيد وتسمى باسم عشيرته كما تسمى بشار بن برد بالعقيلى ، وأبو نواس بالحكمى وأبو العتاهية بالعنزى وقد وضح ولهوزن معنى المولى فى كتابه « الدولة العربية وسقوطها » فقال : الموالى أسرى حرب من أصل فارسى ، ويكونون طبقة وسطى بين أسيادهم العرب وبين الذين ليسوا عرباً فلا يؤدون جزية ، ولا خراجاً ، ولا يدونون فى ديوان المقاتلة وليس لهم مرتب شهرى ، ولو أنهم يحاربون مع أسيادهم الذين منوا عليهم بالعتق(١) .

وقد نشأ نوع آخر من الموالى سماهم ابن خلدون « موالى الاصطناع » ذلك بأن يختار الخليفة أو الأسر جماعة يلحقهم بنسبه كما فعل هرون الرشيد مع البرامكة والخراسانيين ، وكما فعل المعتصم مع الترك . ثم توسعت كلمة الموالى بعد ذلك بتوسع حركتهم فأطلقت على الذين دخلوا الإسلام من الفرس ، وعلى حركة هؤلاء فى نطاق الخلافة الشرقية سيقتصر بحثنا .

مكانة المولى فى عيون العرب :

تتجه آراء العرب فى الموالى وجهتين ، فالنبى والخلفاء الراشدون

---

(١) ولهوزن الدولة العربية وسقوطها ص ١٧٤

وغيرهم من حملة العقيدة وناشريها لا يرون فرقاً بين المولى المسلم وأخيه العربي . فقد كان سلمان الفارسي مولى رسول الله وكان على بن طالب يقول : سلمان منا أهل البيت[١] . وقد سمع عمر بن الخطاب أن وفداً من الموالى والعرب جاء إلى عامله ، فأعطى العرب ومنع الموالى فكتب عمر :

« أما بعد ، فحسب المرء من الشر أن يحقر أخاه المسلم والسلام . »

وفرض عمر للهرمزان فى ألفين من العطاء كما جعل عطاء سلمان الفارسى أربعة آلاف درهم[٢] ، والذين أتقنوا اللغة وتفقهوا فى الدين منهم كانوا يتمتعون بعطف أخوى اكتسبوه بالإسلام فكانوا يفتون ويقضون فى المدن مثل سعيد بن جبير بالكوفة وسليمان بن يسار بمكة . وزيد ابن أسلم ومحمد بن المنكدر ونافع بن نجيح فى المدينة ، وطاوس وابنه وابن منبه فى اليمن ، وعطاء بن عبد الله الخراسانى فى خراسان ومكحول بالشام ، والحكم بن عنبسة ، وعمار بن سلمان بالكوفة ومحمد بن سيرين بالبصرة[٣] .

أما أهل الوجهة الثانية فهم عامة العرب وهم الذين يعتدون بتقاليدهم وشمائلهم ويعتزون بدمهم ويرون أن المولى لا يكون كفئاً للعربى لأن الدين لم يتمكن بعد من قلب المولى ولأن فيه صفات كثيرة لا تؤهله لذلك وكانوا يأخذون على الموالى أموراً لا تتفق مع مبادىء الإسلام منها : أنهم كانوا يتآمرون عليه ، ويخالفون قواعده باشتهارهم بشهادة الزور ، ومنها عدم الوفاء والخور ، والعجمة ، ويستدلون على هذه بحوادث

وأما عدم تمكن الإسلام فى قلوب كثير منهم فقد وضح بما جاء فى حديث سياه إلى أبى موسى الأشعرى ، فقد بعث سياه وفداً إلى أبى موسى فقالوا له : « إنا قد رغبنا فى دينكم على أن نقاتل معكم العجم ، ولا نقاتل

---

(١) الكامل للمبرد ص ٧١٣ (٢) البلاذرى فتوح ج ٢ ص ٤٥٧

(٣) العقد ج ٢ ص ٧٦

محكم العرب ، وإن قاتلنا أحد من العرب منعتمونا منه ، وننزل حيث شئنا ، ونكون فيمن شئنا منكم وتلحقونا بأشرف العطاء ، ويعقد لنا الأمير الذى هو فوقك بذلك » . فقال موسى : « بل لكم ما لنا وعليكم ما علينا » .

قالوا لا نرضى ، فكتب أبو موسى إلى عمر بذلك ، فرد عليه بأن أعطهم ما سألوك ، فأجابهم أبو موسى ، وأسلموا ، ولكنهم لم يبرهنوا على إسلامهم ، فقد رآهم أبو موسى فى حصار تستر غير جادين ، فقال سياه : « لسنا مثلكم فى هذا الدين ولا بصائرنا كبصائركم » وليس لنا حرم نحامى عنهم ، ولم تلحقنا بأشرف العطاء « ولنا سلاح وكراع » وأنتم حسر . فكتب أبو موسى إلى عمر بذلك . فرد عليه أن ألحقهم على قدر البلاء فى أفضل العطاء [١] .

ومن أمثلة عدم الوفاء ما اعتد به الحجاج بن يوسف الثقفى على سعيد ابن جبير لنقضه عهداً فى عنقه . فلما أتى به بعد انقضاء أمر ابن الأشعث قال له الحجاج : يا شقى بن كسير : أما قدمت الكوفة وليس يؤم بها إلا عربى ، فجعلتك اماما ؟ قال : « بلى ! . . . » قال : « أما وليتك القضاء فضج أهل الكوفة وقالوا لا يصلح القضاء إلا لعربى ؟ فاستقضيت أبا بردة بن موسى الأشعرى وأمرته ألا يقطع أمراً دونك » ، قال : بلى ! قال : أو ما جعلتك فى سمارى وكلهم من رءوس العرب ؟ قال : بلى ! قال : « أو ما أعطيتك مائة ألف درهم لتفرقها فى أهل الحاجة ثم لم أسألك عن شيء منها ! قال : بلى ! قال : « أفما كانت بيعة أمير المؤمنين عبد الملك فى عنقك قبل ؟ والله لأقتلنك ، يا حرسى اضرب عنقه . » ونظر الحجاج فاذا جل من خرج مع عبد الرحمن من الفقهاء وغيرهم من الموالى ، فأحب

---

(١) ط ٥ ج ص ٢٥٦٢ . وزاد البلاذرى فى فتوح البلدان ص ٣٧٣ وإنما دخلنا فى بدء أمرنا تعوذا .

أن يزيلهم عن موضع الفصاحة والآداب ويخلطهم بأهل القرى والأنباط وقال : « إنما الموالى علوج عجم » وإنما أتى بهم من القرى فقراهم أولى بهم فأمر بتسيرهم من الأمصار وإقرار العرب بها وأمر أن ينقش على يد كل واحد منهم اسم قريته[١] .

وزاد ابن الأثير أن الحجاج لما أرسل الموالى إلى قراهم ، وضع عليهم الجزية وهم إسلام كما كانت تؤخذ منهم وهم كفار[٢] . وجاء عنه أيضا : أن مصعب بن الزبير أسر جماعة من أصحاب المختار كان فيهم العرب والموالى فأمر باطلاق العرب وقتل الموالى[٣] .

ومن الأمثلة التى وضعت من شأن الموالى فى عيون العرب : أنهم كانوا معروفين بشهادة الزور وأنها صفة من صفاتهم وفى ذلك يروى : أن رجلا خاصم آخر فى دين إلى أياس قاضى عمر بن عبد العزيز (٧٣٩ — ٤٠م) ، (١٢١ — ٢٢ ﻫ) فى البصرة فطلب منه البينة فلم يأته بمقنع . فقيل للطالب استجر وكيع بن أبى الأسود حتى يشهد لك . فإن إياسا لايجترىء على رد شهادته ففعل . فقال وكيع : « والله لأشهدن لك » فان رد شهادتى لأعممنه السيف . فلما طلع وكيع فهم إياس عنه . فأقعده إلى جانبه ، ثم سأله عن حاجته ، فقال : « جئت شاهداً » فقال : يا أبا المطرف أتشهد كما تفعل الموالى والعجم ؟ أنت تجل عن هذا » فقال : « والله لا أشهد[٤] » .

ومما يأخذه العرب على الموالى : العجمة والخور : فان العرب لايعترفون للموالى بالفصاحة واللغة : مر الشعبى بقوم من الموالى يتذاكرون النحو

---

(١) الكامل : ٢٨٥ . ابن خلكان طبع أوربا ص ٢٩٠ العقد الفريد ٢ ج ص ٧٥
(٢) ابن الأثير ج ٥ ص ٧٦ كريمر تاريخ الثقافة ج ٢ ص ١٥٦ .
(٣) ابن الاثير ج٢ ص ٢٢٥ . (٤) الكامل ص ٢٥٤ .

فقال : لئن أصلحتموه ، إنكم لأول من أفسده » كما أنهم لا يعترفون لهم بالشجاعة التى يسمى بها العرب ، قال المختار لإبراهيم بن الأشتر يوم خازر[١] : إن عامة جندك هؤلاء الحمراء ، وإن الحرب إن ضرستهم هربوا ، فاحمل العرب على متون الخيل وأرجل الحمراء أمامهم[٢] .

ومنها انفراد الموالى بالحرف :

فقد كان العرب يأنفون من الصناعة ، ويرون فيها حطة لا تتفق مع القوة والرجولة ، ويرون أن الصناع والأكرة من طبقة الخدم والعبيد على حسب العرف والعادة الشائعة فى ذلك الزمن . جاء فى العقد الفريد أن نقاشا حدث بين حمران مولى عثمان بن عفان وبين عامر بن عبد القيس ، فقال حمران : « لا كثر الله فينا مثلك » ، فقال عمران : « بل كثر الله فينا مثلك » ، فقيل له : أيدعو عليك وتدعو له ؟ قال نعم ! يكسحون طرقنا ، ويخرزونا خفافنا ويحوكون ثيابنا[٣] .

لهذا ولأشباهه لم يكن للموالى مركز ممتاز فى عيون عامة العرب ، فقد كانوا لا يكنونهم بالكنى ، ولا يدعونهم إلا بالأسماء والألقاب ، ولا يمشون فى الصف معهم ولا يقدمونهم فى المواكب ، ولا يتركونهم يؤمون فى صلاة الجنائز إذا حضر أحد من العرب وإن كان الحاضر غريرا[٤] ولا يزوجون بناتهم إلى أعجمى ، لأنهم لا يرون ولد الأعجمية كفؤا لولد العربية . قال ابن الأعرابى : « غاب العجير غيبة إلى الشام وجعل أمر ابنته إلى خالها وأمره أن يزوجها بكفء ، فخطبها مولى لبنى

---

(١) خازر نهر بين أربيل والموصل حدثت حوله واقعة بين عبد الله بن زياد وإبراهيم بن مالك الأشتر النخعى وقتل يومئذ عبد الله بن زياد عام ٦٦ هـ (راجع معجم ياقوت ج ٢ طبع أوربا .

(٢) الكامل ص ٢٦٤ .

(٣) عقد ج ٢ ص ٩٢ ، كريمر تاريخ الثقافة ج ٢ ص ١٥٦

(٤) عقد ج ٢ ص ٢٤ ، الكامل ج ١ ص ٢٦٢ ، كريمر تاريخ الثقافة ص ١٥٦

هلال كان ذا مال ، فرغبت أمها فيه ، وأمرت خال الصبية الموصى إليه بأمرها أن يزوجها منه ففعل ، فلاذت الجارية بأخيها الفرزدق بن العجير وبرجال من قومها وبابن عم لها يقال له قيل فنعوا جميعاً منها سوى ابن عمها القيل ، فإنه ساعد أمها على ما أرادت ومنع منها الفرزدق ، فلما قدم العجير أخبر بما جرى ، ففسخ النكاح وخلع ابنته من المولى[١] .

وكان الخاطب لا يخطب المرأة منهم إلى أبيها ولا إلى أخيها ، وإنما يخطبها إلى مواليها ، فإن رضى زوج ، وإلا رد النكاح . فإن زوج الأب والأخ بغير رأى مواليه فسخ النكاح وإن كان قد دخل بها كان سفاحاً غير نكاح[٢] . وكانوا لا يعترفون بولد الأمة شقيقاً صحيحاً ، فقد جاء أعرابى من بنى العنبر إلى القاضى سوار بن عبد الله ، فقال : إن أبى مات وتركنى وأخاً لى وخط خطين فى الأرض ، ثم قال وهجينا وخط ناحية ، فكيف نقسم المال ؟ فقال القاضى : أههنا وارث غيركم ؟ قال : لا ! قال : المال بينكم أثلاثا . فقال الأعرابى : لا أحسبك فهمت عنى ، إنه تركنى وأخى وهجينا لنا . فقال سوار : « المال بينكم أثلاثا » قال الأعرابى : أيأخذ الهجين كما آخذ وكما يأخذ أخى ؟ قال : أجل ، فغضب الأعرابى . ثم أقبل على سوار فقال : تعلم ! والله إنك قليل الخالات بالدهناء ، (قيل إنه ليس بالدهناء أمة وإنما كان فيها الحرائر) فقال سوار : إذن لا يضير ذلك عند الله شيئاً[٣] .

وزعم الأصمعى قال : سمعت أعرابياً يقول : « أترى هذه العجم تنكح نساءنا فى الجنة ؟ » قال : « أرى ذلك والله بالأعمال الصالحة » قال : توطأ والله رقابنا قبل ذلك »[٤] .

---

(١) أغانى ج ١١ ص ١٥٤ ، كريمر تاريخ الثقافه ج ٢ ص ١٥٥ كولدزيهر — الدراسات الإسلاميه ج ١ ص ١٢٨ (٢) عقد ج ٢ ص ٧٤

(٣) الكامل ص ٢٥٦ ، العقد ج ٢ ص ٩٣

(٤) الكامل ج ١ ص ٧١١ — ٧١٣ .

ومما كان يجرى على ألسنة الناس فى شأن الموالى ، ما جاء فى شعر جرير حين نزل بقوم من بنى العنبر بن تيم ، فلم يقروه حتى اشترى منهم القرى . وانصرف وهو يقول :

يا مالك بن طريف ان بيعكم
رفد القرى مفسد للدين والحسب
قالوا نبيعكه بيعـاً فقلت لهم
بيعوا الموالى واستحيوا من العرب[١]

وما جاء عن نافع بن جبير أحد بنى نوفل بن عبد مناف . إذا مرّ عليه بالجنازة سأل عنها ، فإن قيل قرشى ، قال : واقوماه ! وإن قيل عربى ، قال : وا ما دناه ! وإن قيل مولى أو أعجمى قال : اللهم عبادك تأخذ منهم من شئت وتدع من شئت[٢] . هكذا كان أصحاب هذه الوجهة ومن إليهم ينظرون إلى الموالى ، وهكذا كانت دولة بنى أمية فى أولها ، أى قبل أن يتولى فيها الأمر عمر بن عبد العزيز تستظهر فى حروبها وولاية أعمالها برجال العرب، مثل سعد بن أبى وقاص ، وزياد بن أبى سفيان والحجاج بن يوسف الثقفى ، والمهلب بن أبى صفرة ، وعبيد الله بن زياد وغيرهم[٣] . وترى من شروط الوالى والقاضى التفقه فى الدين والقدرة على الإقناع والإفصاح فى اللغة ، لهذا لما عين نوح بن دراج قاضياً فى البصرة زمن عمر بن عبد العزيز هال أمره العرب ، ورءوا فى ذلك خرقاً للعرف والعادة فأنشد شاعرهم:

إن القيامة فيما أحسب اقتربت إذا كان قاضيكم نوح بن دراج
لو كان حياً له الحجاج ما بقيت صحيحة كفه من نقش حجاج

---

(١) الكامل ج ١ ص ٢٦٢ كريمر تاريخ الثقافة ج٢ ص ١٥٦ .
(٢) الكامل ج ١ ص ٧١١ — ٧١٣ .
(٣) مقدمة بن خلدون ص ٣٣٠ .

الفصل الثالث

مقاومة الموالى فى عصر صدر الإسلام

اغتيال الخلفاء

وصل إلى المدينة عدد كبير من الأسرى ، وكان من بينهم الهرمزان . وهو قائد سياسى محنك ، جيء به من المدينة بلباسه وتاجه المكلل بالياقوت ، ومثل بين يدى عمر ، فأسلم وجعل له عمر مرتباً قدره ألفا درهم(١) . وبقى رئيسا الموالى يستشيرونه ويجتمعون إليه إذا حزبهم الأمر(٢) .

وكان أبو لؤلؤة من أشد هؤلاء الموالى تعصبا لقومه ، وكلما مر به صبى من السبى مسح رأسه بيده وقال : أكل كبدى عمر(٣) .

كبر على هؤلاء الموالى أن يروا مقوض دولة الأكاسرة ينعم بهذه القوة والجاه العريض والسلطان الواسع ، فإذا أرادوا أن ينتقموا من العرب فإن شخصية عمر هى الشخصية المكافئة للثأر منها ، وهكذا أجمعوا أمرهم ووكلوا به أبا لؤلؤة ، فطعن عمر بخنجر ذى رأسين طعنات توفى على أثرها .

وقد روى أن عمر قال حين طعن ، من أصابنى ؟ قالوا : أبو لؤلؤة . فقال : « قد نهيتكم أن تجلبوا علينا من علوجهم أحدا فعصيتمونى(٤) » .
وقد اختلفت آراء المؤرخين فى أسباب اغتياله ، فمنهم من قال إنه مجرد

---

(١) ط جـ ٥ ص ٢٥٥٢
(٢) ط جـ ٥ ص ٢٦٣٢
(٣) ط جـ ٥ ص ٢٦٣٢
(٤) طبقات جـ ٣ ص ٢٥٤

عداء شخصي بين عمر وبين أبي لؤلؤة (انظر في دائرة المعارف الإسلامية الجزء الثالث ص ١٠٦٣ تحت مادة عمر).

ويرى ولهوزن أن اغتيال الخليفة ثأر للفرس من العرب في شخصية عمر. وهو رأي أميل إليه ويقرب من الحقيقة وتؤيده الرواية الآتية: قال عبد الرحمن بن أبي بكر غداة طعن عمر، « مررت على أبي لؤلؤة عشي أمس ومعه جفينة والهرمزان وهم نجي، فلما رهقتهم، ثاروا وسقط منهم خنجر له رأسان، نصابه في وسطه، فانظروا بأي شيء قتل، فلما جيء بالخنجر وجدكما وصفه عبد الرحمن. ولما سمع بذلك عبيد الله ابن عمر أمسك حتى توفي أبوه فاشتمل على سيفه وأتى الهرمزان فقتله[1] وقد أقنع الرأي العلم بأن الأمر مدبر، ذلك أنه لما أراد عثمان قصاص عبيد الله هاج عليه الناس ولم يروا حقا في ذلك، فوجد عثمان نفسه أمام مشكلة دعته أن يقوم خطيبا فيهم ويقول: ألا إني ولي دم الهرمزان وقد وهبته لله ولعمر وتركته لدم عمر[2]. ولن أتعرض لذكر حديث كعب الأحبار وتنبئه بمقتل عمر لأني أراه من قبيل الأحاديث التي تصاغ حول الحوادث الجسام، على أني لا أبرىء هذا الرجل من المؤامرة.

كان اغتيال عمر بدء سلسلة لاغتيالات مقبلة، فإن اغتيال عثمان لن تبرأ منه يد الموالي، وهو حادث جلل اكتنفه الغموض وأحاطت به الأحاديث المتضاربة، فإن جموع المتذمرين أقبلت من أرجاء المملكة ساقها الدعايات والأراجيف والدسائس ووضع الأخبار والأحاديث حتى تجمعت في عاصمة الخلافة فرق كثيرة من هذه الجموع لا تدري لماذا جاءت وما الذي دفعها إلى ذلك، وحدث من جراء تجمعها إرباك

(١) ط حـ ٥ — ٢٧٩٧، يعقوبي جـ ٢ ص ١٨٨، طبقات جـ ٣ ص ٢٥٨

(٢) يعقوبي جـ ٢ ص ١٨٨

نشر الفوضى حتى لم يعد الأمر ناظم يضبطه ، هنا أصاب المرجفون غفلة فدخلوا على حين غرة كما يقول صاحب الانتصار [١] على عثمان فقتلوه عن غير علم المسلمين يدلنا على ذلك قول على بن أبي طالب حين بلغه ذلك : تبا لكم آخر الدهر ، وقوله للحسن ، يقتل أمير المؤمنين وأنت حاضر ، فأخبره أنه لم يعلم بذلك ، وأخذ المرجفون يذيعون الأخبار ويلفقون التهم ، لتعفوا آثار الجريمة . ولتاصق بأكبر عدد ممكن من الأبرياء وغيرهم كى يسهل إيقاظ الفتن كما يحدث فى مثل هذه الحوادث .

ومهما يكن فإن هذه الفتنة العمياء التى ذهب فى غمرتها خليفة تقى عادل ملأت الأموال فى أيامه خزائن الدولة وبسط العدل رواقه وأترعت بيوتات قريش بالغنائم وضربت جنوده فى الأرض تفتح وتفرض نفوذه على العالم حتى ركزت راياتها على حدود الصين وأبواب الغرب — فتنة دبرتها يد السبئية (أتباع عبد الله بن سبأ) ويد الموالى الناقمين المتربصين وعقدوها نية تقلب الدولة وتخضخض استقرار الأمة . فهى ثورة فيها نقمة اليهود لخيبر وثأر الموالى للقادسية والمدائن وجلولاء . وهى حلقة مفرغة بدأت بعمر بن الخطاب وأخذت تلتقط كبار رجال الدعوة لتضعف شوكة الأمة وينفسح لها الطريق لتسلكه إلى هدفها وهو استئصال الحكم العربى من الوجود .

وقد بقى اغتيال على بن أبى طالب غامضا والتهمة فيه مقصورة على الخوارج حتى عثرنا على نص [٢] مبين قلب صفحة التاريخ الأولى إلى الثانية وربط هذه الحوادث بعضها ببعض ، ووحد بين مراميها ومقاصدها . فقد دل هذا النص أن هذه المؤامرة التى ذهب ضحيتها الخليفة الرابع لا تختلف عن المؤامرة التى ذهب ضحيتها الخليفة الثانى فقد

---

(١) كتاب الانتصار لابن الخياط ص ٦١

(٢) الكامل للمبرد ص ٥٤٩ — ٥٥٣

رأس تلك الحرمزان ودبر هذه زاذويه فلم تكن إذن مجرد نقمة من الخوارج بل كانت مؤامرة مدبرة مقصودة من مرامها القضاء على ثلاث شخصيات من عظماء العرب هم علي ومعاوية وعمرو بن العاص ، ولو تمت بكاملها ما نجا معاوية ولا عمرو .

مقاومة الموالى فى أيام بنى أمية

قلنا إن دولة بنى أمية كانت تستظهر فى حروبها وولاية أعمالها برجال العرب ، فاحفظ هذا الاستظهار قلوب الموالى . وتبين لهم أنهم لم يقتعدوا مكانا ظاهراً إلا إذا ثقفوا لغة الفاتح وتأدبوا بأدبه وفقهوا شريعته ، فاندفعوا إلى دراسة الأدب واللغة والقرآن والحديث ودراسة الأنساب خاصة ليضعوا على العرب من المثالب ما يريدون[1] . واتخذوا من مبادىء الدين وسيلة تحلهم المحل الأرفع ، فقد أقر القرآن : أن المؤمنون إخوة « إنما المؤمنون إخوة » وأثبت النبى صلى الله عليه وسلم فى حجة الوداع أن الله أذهب عن الناس نخوة الجاهلية وفخرها بالآباء ، وأنهم كلهم لآدم وآدم من تراب[2] ولم يكفهم هذا فقد بدءوا ينشرون مآثر آبائهم ويفاخرون العرب ويكاثرونهم ويظهرون فضل العجم على العرب[3] ، ونظموا حركة قوية يكمن فيها خطر جسيم .

يقول ولهوزن . لقد كان للدولة الأموية شغل شاغل فى مقاومة المعارضة التى يقوم بها الموالى باسم الله وباسم الدين ضدهم ، وكان هذا الخطر الذى يظهر بين حين وآخر ضد الحكم الأموى آتياً من ناحية

---

(١) راجع الأغانى فى ترجمة على بن الجهم ج ٩ ص ١٠٤ ، المسعودى ج ٦ ص ١٧٣ ١٥٥ ، أغانى ج ٢٠ ص ٧٨ ، ج ١٢ ص ١٥٦

(٢) عقد ج ٢ ص ٧٠ — ٧٧

(٣) العقد ج ٢ ص ٨٦ — ٨٧

العراق ، والخطر الأكبر في ذلك حركة اجتماعية لم تكن موجهة ضد الأمويين فحسب بل ضد العرب عامة [١] .

ومما ساعدهم على حركتهم أن الشريعة الإسلامية تركت لهم التصرف في أملاكهم ، وأموالهم — إذا دخلوا الإسلام — أو أعطوا الجزية كما يشاءون ويختارون . وفي العراق دهاقين أثرياء كانوا يمدون ثوراتهم بالمال كما فعل الدهقان فيروز في إمداد حركة ابن الأشعث ضد الحجاج ، فلما التقى جيش الحجاج بجيش الموالي تحت إمرة ابن الأشعث عند روستاق أباد نادى الحجاج في المعسكر : « من أتى برأس فيروز فله عشرة آلاف درهم » ففصل فيروز من الصف وصاح بالناس — من عرفني فقد اكتفى ، ومن لم يعرفني فأنا فيروز حصين . وقد عرفتم مالي ووفائي . « من أتى برأس الحجاج فله مائة ألف » . فلما أتى به إلى الحجاج قال له : « أأنت الجاعل في رأسي مائة ألف ؟ . » قال — قد فعلت ، قال : « والله لأمهدنك ثم لأحملنك . أين المال ؟ قال عندي فهل للحياة من سبيل ؟ » قال : لا ! قال : فأخرجني إلى الناس حتى أجمع المال ، فخرج فيروز فأحل الناس من ودائعه ، وأعتق رقيقه وتصدق بماله ، ثم رد إلى الحجاج فقال : شأنك فأمر الحجاج بقتله [٢] .

ولم يكترث الأمويون بما كان يقوم به شعراء الموالي في إيقاظ الروح وبعث الشعور في جماعتهم وتذكيرهم بأمجاد آبائهم كما كان يفعل شاعرهم اسماعيل بن يسار [٣] فقد كان جريئاً إلى حد أنه أنشد شعراً أمام هشام بن عبد الملك كله فخر وتذكير برجال الفرس قال :

إني وجدك ما عودي بذي خور عند الحفاظ ولا حوضي بمهدوم

(١) ولهوزن الدولة العربية وسقوطها ص ١٩٢

(٢) الكامل ٦٥٦ ، كريمر تاريخ الثقافة جـ ٢ ص ١٦١ .

(٣) أغاني جـ ٤ ص ١٢٥ كريمر تاريخ الثقافة ص ٣٠

أصلي كريم ومجدي لا يقاس به ... ولي لسان كحد السيف مسموم
جحاجح سادة بلج مرازبة ... جرد عتاق مساميح مطاعيم
من مثل كسرى وسابور الجنود معا ... والهرمزان لفخر أو لتعظيم
هناك إن تسألي تنبي بأن لنا ... جرثومة قهرت عز الجراثيم

فغضب هشام ثم شتمه وقال: «أعليّ تفخر وإياي تنشد قصيدة تمدح بها نفسك، وأعلاج قومك؟»، ولكنه لم يعاقبه إلا عقابا يسيرا ذلك أنه أمر بغطسه في البركة ثم أخرج ونفي إلى الحجاز.

وكان كثير من هؤلاء الموالي يظهرون الحب ويتقربون من الأمويين ولكنهم يضمرون في مكنونهم الغدر، فقد حكي عن اسماعيل بن يسار أنه حجب عن الدخول على الغمر بن يزيد فجعل يبكي فلما سأله الغمر — مالك يا أبا فائدة تبكي؟ قال — وكيف لا أبكي وأنا على مروانيتي ومروانية أبي أحجب عنك. وما زال يبكي حتى وصله الغمر بجميله. وخرج من عنده فلحقه رجل فقال له: أخبرني «ويلك يا إسماعيل» أي مروانية لك ولأبيك؟ قال بغضنا إياهم فامرأته طالق إن لم يكن يلعن مروان وآله كل يوم مكان التسبيح وإن لم يكن أبوه حضره الموت فقيل له: قل لا إله إلا الله. فقال: لعن الله مروان تقربا بذلك إلى الله وإبداله من التوحيد وإقامته مقامه (١).

وزاد في ذلك أن عمر بن عبد العزيز سار بهم سيرة العدل وساواهم بالعرب وأطلق يدهم فتمكنوا أن ينفذوا خططهم التي اختطوها حسبما يريدون. وكانوا يستثمرون كل خلاف يقع بين الأحزاب العربية وبين رؤسائهم. وقد فطن لذلك عبد الملك. فكان يقول: إذا كان الفتق من سجستان فليس في ذلك بأس، إنما كنا نتخوف إذا كان من خراسان،

---

(١) أغاني ج ٤ ص ١٢٠.

وقد كان نصر بن يسار (والى يزيد بن الوليد فى خراسان) أشد رجال بنى أمية حذراً ، كان يقول للكرمانى : يا أبا على ، لقد لججت وأخاف أن يتفاقم الأمر فنهلك جميعاً وتشمت بنا هذه الأعاجم [١] . وكتب يحذر عرب خراسان من العجم ومما جاء فى قوله :

قوما يدينون ديناً ما سمعت به   عن الرسول ولا جاءت به الكتب

فمن يكن سائلى عن أصل دينهم   فإن دينهم أن تقتل العرب [٢]

وكان الموالى يغذون كل ثورة من شأنها إضعاف المملكة . فلم يترددوا فى اتباع المختار ضد ابن الزبير ، والانضمام إلى عبد الرحمن بن الأشعث ضد الحجاج ومعاضدة العباسيين ضد الأمويين ، وقد تجاوزوا هذا إلى أكثر منه واستمروا على هذه الخطة حتى بعد انتصار العباسيين فإنهم لم يترددوا فى بذر بذور الشقاق بين أعضاء الأسرة نفسها فهم الذين ساعدوا الرشيد على أخيه الهادى والمأمون على أخيه الأمين .

وكانوا كثيراً ما يتخذون أهل البيت ستاراً لدعوتهم ويثورون لأجلهم قال نعيم بن حازم للفضل بن سهل ، وكان جالساً بين يدى المأمون حين أخذ الفضل يحسن نقل الخلافة من العباسيين إلى العلويين :

« إنك إنما تريد أن تزيل الملك عن ولد العباس إلى ولد على ثم تحتال عليهم ، ثم تصير الملك كسرويا [٣] .

(١) ط جـ ٣ ص ١٨٦٥   (٢) نولدكه ص ٨٨   (٣) جهشيارى ص ٣٩٧

الفصل الرابع

حركة الموالى فى قيام الدولة العباسية

أبو مسلم — البرامكة

فى سنة ١٢٦ هـ ، ٧٤٤ م وجه إبراهيم بن محمد الإمام أبا هاشم بكير ابن ماهان إلى خراسان ومعه السيرة والوصية ، فقدم مرو وجمع فيها النقباء ومن بها من الدعاة ، ونعى لهم الإمام محمد بن على ، ودعاهم إلى إبراهيم فقبلوا الدعوة(١) وفى سنة ١٢٩ جاء أبو مسلم إلى خراسان مزودا بسلطة مطلقة من إبراهيم الإمام ، فقد زعم أن إبراهيم حمله الأمر وقال له : « إنك رجل منا أهل البيت ، فاحفظ وصيتى وانظر هذا الحى من اليمن فأكرمهم وحل بين أظهرهم ، فإن الله لا يتم هذا الأمر إلا بهم ، وانظر هذا الحى من ربيعة فاتهمهم فى أمرهم ، وانظر هذا الحى من مضر ، فإنهم العدو القريب الدار ، فاقتل من شككت فى أمره ومن كان فى أمره شبهة ، ومن وقع فى نفسك منه شىء ، وإن استطعت ألا تدع بخراسان لسانا عربيا فافعل(٢) » . والتناقض فى هذه الوصية يؤيد انتحالها ، وشدة لهجتها توضح شدة الحقد الكامن فى صدور الموالى .

ولكن أبا مسلم ظل يفتل بين الذروة والغارب حتى استطاع أن يضرب نصرا بالكرمانى ، وأن يدخل مرو ظافرا وأن يعلن دعوته على الملأ . ثم أراد أن يميز حزبه فابتدع بدعا جديدة — اجتماعية دينية ، منها — إيقاد النيران (٣) عند اجتماع القوم وهى أثر من آثار المجوس .

---

(١) ط جـ ٣ ص ١٨٦٩ (٢) ط جـ ٢ ص ١٩٣٧

(٣) ط جـ ٣ ص ١٩٥٤

وكانت العادة فى الإسلام أن ينادى الإمام : « الصلاة جامعة » فيجتمع الناس فيصلى بهم ركعتين ، ثم يوضح لهم ما يريد . » وغير أبو مسلم صلاة الجمعة والعيدين فأمر الإمام أن يبدأ بالصلاة قبل الخطبة بغير أذان وبلا إقامة ، وكان بنو أمية يبدءون بالخطبة والأذان ثم الصلاة بالإقامة لصلاة يوم الجمعة . ويخطبون على المنابر جلوسا فى الجمعة والأعياد . وأمر أبو مسلم سليمان بن كثير أن يكبر تكبيرات تباعا ، ثم يقرأ ويركع بالسابعة ويكبر فى الركعة الثانية خمس تكبيرات تباعا ثم يقرأ ويركع بالسادسة ويفتتح الخطبة بالتكبير ويختمها بالقرآن ، وكان بنو أمية يكبرون فى الركعة الأولى أربع تكبيرات يوم العيد وفى الثانية ثلاث تكبيرات[1] ثم صنع راية خاصة سماها السحاب ، وسمى الرمح الذى يحملها الظل ، وتأويل هذين الاسمين : أن السحاب يطبق الأرض وكذلك دعوة بنى العباس . وتأويل الظل أن الأرض لا تخلو من الظل أبدا . وكذلك لا تخلو من خليفة عباسى أبد الدهر[2] .

اعتمد العباسيون على الموالى فى حركتهم حتى تم لهم الظفر ، وانتقلت الخلافة من بنى أمية إلى بنى العباس : من بيت ابن عم إلى بيت ابن عمه . ولكن هذا الانتقال لم يرض عامة العرب ، فإنه فى نظر التاريخ لم يكن غير فوز للموالى على العرب . يقول الجاحظ : « إن دولة بنى العباس أعجمية خراسانية ودولة بنى مروان عربية أعرابية[3] » .

ويقول أبو حمزة الأصفهانى فى كتابه (تاريخ سنى ملوك الأرض والأنبياء) : « إن الذين قاموا بنقل الدولة إلى بنى العباس وبنى أمية . عجم خراسان بأفنائهم جندهم من العرب[4] » . ويقول بيكر : إن هذه الحرب فى الحقيقة حرب موجهة ضد البيت الأموى . وان انتصار العباسيين على الأمويين انتصار الفرس على العرب[5] .

---

(١) ط ج ٣ ص ١٩٥٦ (٢) ط ج ٣ ص ١٩٥٤

(٣) البيان ج ٣ ص ٢٠٦ (٤) ص ٢١٦ (٥) الدراسات الإسلامية ج ١ ص ١١١

ويقول محمد كرد على فى كتابه : الإسلام والحضارة العربية : « إن الدولة العباسية دولة فارسية دخلها تحوير بالإسلام » .

رأى أبو مسلم أن الوقت حان لانفصال الفرس عن العرب ورأى أن جند الفرس يستطيعون أن يجيبوا رغبته ، فأجمع على خلاف المنصور بعد أن انتصر على عمه عبد الله بن على ، فاجتاز طريق خراسان ، فلما علم المنصور بذلك ، عرف فى نفسه الشر ، فخرج إليه ونزل المدائن وكتب إلى أبى مسلم : « إنى قد أردت مذاكرتك بأشياء لم يحتملها الكتاب فأقبل فإن مقامك عندنا قليل » ، فقرأ الكتاب ومضى على حاله ، ثم ولاه مصر والشام فأبى[1] . ومازال يتلطف إليه ويرسل دهاة الرسل حتى أقنعه ، فلما ظفر به ، أمر بقتله ثم خرج فخطب بالناس :

« إن أبا مسلم بايعنا وبايع لنا على أنه من نكث بيعتنا فقد أباح دمه لنا ، ثم نكث بيعته فحكمنا عليه[2] » . فاضطربت خراسان جميعها لقتله ٣ وظهرت الفرق الدينية الغريبة عن الإسلام ، التى سنبحث عنها فى الفصول التالية[3] .

البرامكة

اتصلت هذه الأسرة بالبيت العباسى اتصالا وثيقا وهى من الأسر الفارسية القديمة ، فلما ولد الرشيد أرضعته أم الفضل مزوجة يحيى ابن خالد البرمكى ، فتربى الرشيد بين يدى يحيى وفى حجر زوجته ، وكان الرشيد يدعوه أبى[4] وقد اتخذ من البرامكة من الوسائل أكثرها لجعل

(١) ط ج ١ ص ١٠٤ ، المسعودى ج ٦ ص ١٧٨
(٢) المسعودى ج ٦ ص ١٨٦ ، ط ج ١ ص ١١٦
(٣) ط ج ١ ص ١١٩
(٤) ط ج ١ ص ٥٩٩ مقدمة ابن خلدون ص ٢٠

مستقبل الخلافة في يد هرون ، وأخذوا يفرقون بين الشعب والهادى ، ويوسعون شقة الخلاف بين الأخ وأخيه[١] حتى تم لهم الظفر بموت الهادى ، وانتقال الخلافة إلى الرشيد . جاء يحيى بن خالد إلى الرشيد فقال له : « قم يا أمير المؤمنين » فقال له الرشيد : « كم تروعنى إعجاباً منك بخلافتى ، وأنت تعلم حالى ضد هذا الرجل ، فإن بلغه هذا فما تكون حالى ؟ فقال له يحيى : هذا الحرانى وزير موسى ، وهذا خاتمه . فلما قعد هرون للخلافة دعا يحيى بن خالد بن برمك فقلده الوزارة وقال له : قد قلدتك أمر الدولة ، وأخرجته من عنقى إليك ، فاحكم فى ذلك بما ترى ، ودفع إليه خاتم الخلافة[٢] ، وبذلك تم انتقال سلطان الحكم من يد العرب إلى يد العجم ، وبقى للعرب الاسم فقط . أخذ البرامكة يتغلغلون فى البلاط ، فاستبدوا بالملك ، واحتجنوا أموال الجباية ، وشغلوا مراتب الدولة بالرؤساء من ولدهم وصنائعهم ، واحتازوها عمن سواهم من وزارة وكتابة ، وقيادة وحجابة . يقال إنه كان بدار الرشيد من ولد يحيى خمسة وعشرون رئيساً من بين صاحب قلم وصاحب سيف . وكبح العرب عن التطاول للولايات ، فصارت الوزارة للعجم والصنائع من البرامكة ، وبنى سهل وبنى نوبخت وبنى طاهر[٣] وقد وجه يحيى ولده الفضل والياً على خراسان فاتخذ بها جنداً من العجم سماهم العباسية وجعل ولاءهم لبنى العباس — وقد بلغت عدتهم خمسمائة ألف رجل جاء إلى بغداد منهم عشرون ألفاً[٤] .

وكان هؤلاء البرامكة بما أوتوا من دهاء ، يظهرون الإسلام ويضمرون فى مكنونهم له الكيد . وكانوا كلهم على دين مانى إلا محمد بن خالد[٥] .

---

(١) الجهشيارى ص ٢٠٨ كريمر جـ ٢ ص ٦٣

(٢) الجهشيارى ص ٢١١ ، الماوردى ذكره كرد على فى كتاب الإسلام والحضارة العربية جـ ٢ ص ٢١١ ، ط جـ ٣ ص ٦٠٣ وما بعدها .

(٣) مقدمة ابن خلدون ص ١٨ ط جـ ١ ص ٦٣٠

(٤) ط جـ ١ ص ٦٣١

(٥) الفهرست ص ٣٣٨

البرامكة ورواية التاريخ والأدب
والانتحال ووضع الكتب والترجمة والنشر

تمكن البرامكة من تدوير شئون المملكة والتصرف فى أحوالها، ولم يكتفوا بهذا القدر من السلطان، فاندفعوا إلى توجيه الحياة وجهة خاصة، وأعانوا لتنفيذ خطتهم جماعة من الأدباء والرواة والعلماء والمترجمين والشعراء الذين تفصح أعمالهم عن أهداف هذه الخطة، وكان من أبرزهم أبو عبيدة وعلان الشعوبى فى رواية التاريخ ووضع الأخبار. وحماد الراوية وخلف الأحمر فى رواية الشعر والانتحال، وأبان بن عبد الحميد اللاحق والفضل بن سهل فى الترجمة عن الفارسية، وسعيد بن البختكان؛ وسهل ابن هرون من الناقمين على العرب، والواضعين الكتب عليهم، ومن شعراء البرامكة الذين يذودون بهم عن أنفسهم الفضل بن عبد الصمد المعروف بالرقاشى وهو مولى رقاش. ولعل التعريف بمن ذكر يعطينا صورة تؤيد ما ذهبنا إليه فى شأن هذه الناحية من مقاومة الموالى.

رواة التاريخ وواضعو الأخبار

١ — أبو عبيدة

من موالى تيم قريش، فارسى الأصل، أبوه على دين اليهود، وجده مجوسى، جمع إلى ثقافة العرب ثقافة الفرس وثقافة اليهود، ونال حظوة فى بلاط الخليفة بمساعدة المولى إسحق الموصلى، حيث وصفه للرشيد بالثقة والصدق، والسماحة ووضع من الأصمعى وثلبه، وكشف للرشيد معايبه، فطرد الأصمعى وحل أبو عبيدة محله(١). كان أبو عبيدة متعصباً

(١) أغانى ج ٥ ص ١٠٧

على العرب يبغضهم[١] ألف كتاب المثالب والطعن على العرب ، منها : كتاب المثالب فى قبيلة باهلة وآخر فى المثالب على وجه العموم[٢] . وفى هذا الكتاب طعن على بعض أسباب النبي[٣] .

وطعنه أكثره اختراع وبهتان ، كما رد عليه ابن دريد فى كتاب الاشتقاق عند ما طعن فى فدكى بن أعبد وكان من عظماء بنى سعد فى الجاهلية وله عقب بالبصرة والبادية[٤] . وقد قصر أبو عبيدة نفسه على مثالب العرب ووقف ضد كل من يفخر بنفسه[٥] . وله كتاب معروف اسمه كتاب الواحدة فى مناقب العرب ومثالبها وضع فيه كثيراً من الحوادث بين قبائل العرب وعزاه إلى الشعوبيين[٦] . يقول كولد تسيهر : إن أباعبيدة مولع بوضع الأخبار ، وضع الأحاديث التى تظهر خلاف القبائل العربية فيما بينها وتهاجيها ، وتشاتمها بقبيح الكلام ومقذع الهجاء[٧] ويقول المسعودى : إن لأبى عبيدة مصنفات فى أيام العرب وغيرها ، منها كتاب المثالب يذكر فيه أنساب العرب وفسادها ويرميهم بما ليس من السياسة ذكره ولا يحسن وصفه[٨] . وألف كتاباً فى فضائل العجم وكان يفخر بهم ويقول : يعجبنى قول أبى نواس .

بقينا على كسرى سماء مدامة   مكللة حافاتهـــــــــا بنجوم
فلو رد فى كسر بن ساسان روحه   إذن لاصطفانى دون كل نديم[٩]

وألف كتابا آخر سماه عمر كسرى ، وآخر سماه كتاب التاج خاصاً

---

(١) ابن قتيبة ص ٢٦٩
(٢) الفهرست لابن النديم ص٥٣ ، ٥٤ ، ٢٧ ، ٢ ، ٤ ، المسعودى ج ٧ ص ٨٠
(٣) الفهرست ص ٥٣   (٤) الاشتقاق لابن دريد ص ١٥٣
(٥) الأغانى ج ١١ ص ٨٦
(٦) المسعودى ج ٥ ص ٤٨   (٧) كولد تشيهر الدراسات المحمدية ج ١ ص ٢٠٢
(٨) المسعودى ج ٧ ص ٨٠
(٩) أخبار أبى نواس ص ٥٧

بالفرس[١] ، وكان إذا رأى شأناً يشرف العرب أرجعه إلى الفرس ، فإذا رأى قصيدة فائقة أو حكاية ممتعة قال : إن العرب قلدوا الفرس بها[٢] . وقد بالغ فى ذلك حتى جعل كثيراً من الأخلاق العربية وحياتهم راجعة إلى الفرس ، ويجعل الفضل فى تقدم الأدب العربى راجعاً إلى الموالى بما ترجموه من آداب آبائهم ، مثل أبان بن عبد الحميد وخاله الكبير الفضل ابن عيسى وولده عبد الصمد (راجع الميدانى ج ١ ص ٣٦٠) ، يقول أبو عبيدة كان آباء هؤلاء فصحاء فى بلاط خراسان ، فلما وقعوا فى أسر العرب أخذت تجرى فى عروقهم تلك المواهب فأصبحوا خطباء فى العربية كما كانوا لسناً فى الفارسية (راجع البيان والتبيين) يقول كولد تسيهر ، وهكذا يريد أبو عبيدة أن يقطف كل وردة فى تاج الفخر العربى[٣] ، وعن أبى عبيدة هذا انتشرت الروايات فى كتب التاريخ والأدب واعتمد عليه كثير من المؤرخين والمتفقهين باللغة ، فكان الطبرى يروى عنه أخبار القبائل العربية[٤] ، ونجد أمثلة واضحة من اختراعه على العرب فى مثالبهم فى كتاب أنساب الأشراق للبلاذرى[٥] ، وعلى هذا اتخذ البحث فى اللغة العربية والأدب العربى وأخبارهما شكلين مختلفين ، أبو عبيدة وأضرابه يضعون فى ظل الموالى ما يشاءون ، والأصمعى وأمثاله يذكرون ما يرد إليهم من منابعه[٦] .

مات هذا المولى العالم الراوية المحدث عام ستة عشر ومائتين ، وقيل ستة وقيل سنة ثمان أو تسع بعد المائتين ، ويقال إنه ولد سنة عشر بعد

---

(١) كولد تسيهر ص ١٩٧ ، المسعودى ج ٢ ص ٢٣٨ .

(٢) كولد تسيهر ص ١٩٧ ، الكامل ص ٣٥١ .

(٣) الدراسات المحمدية ص١٩٩ . (٤) ص ٢٥٠ .

(٥) انظر ص١٥٧ من هذا الكتاب نفسه .

(٦) راجع ابن خلكان رقم٣٨٩ ج ٤ ص٨٨ وانظر السيوطى فى المزهر ج ١ ص٢٠٢ .

المائة وهو اختلاف لم يتحقق وجه الصواب فيه ، ودفن ولم يحضر جنازته أحد لأنه لم يسلم منه شريف ولا غيره[١] .

٢ — علّان أو غيلان

ومن رواة التاريخ وواضعي الأخبار علان أو غيلان ينمى إلى بيوتات العجم ، يبغض العرب ، كان منقطعا إلى البرامكة ، نسخ للرشيد والمأمون في بيت الحكمة ، ووضع كتاب المثالب الذى هتك فيه العرب ، وأظهر مثالبها ، واستقصى فيه جميع القبائل خاصة مثالب قريش[٢] .

يقول الألوسى : ثم نشأ غيلان الشعوبى وكان زنديقاً ثنوياً ، فعمل لطاهر بن الحسين كتابا خارجا عن الإسلام بدأ فيه بمثالب بنى هاشم ، وذكر مناكحهم وأمهاتهم ثم بطون قريش ، ثم سائر العرب ونسب إليهم كل زور ووضع عليهم كل إفك وبهتان[٣] ، ومن أمثلة ذلك ما شتم به آل منقر قال عنهم : إنهم قوم غدر يقال لهم الكوادن ، ويلقبون أيضاً أعراف البغال ، وهم أسوأ خلق الله[٤] ، وفى ديوان الحماسة ما يثبت غير ذلك . قال سيدهم قيس بن عاصم :

إنى امرؤ لا يعترى خلقى ... دنس يفنده ولا أفن

من منقر فى بيت مكرمة ... والغصن ينبت حوله الغصن

خطباء حين يقوم قائلهم ... بيض الوجوه مصاقع لسن

لا يفطنون لعيب جارهم ... وهم لحفظ جوارهم فطن[٥]

وسيد منقر هذا لم يسلم من لسان أبى عبيدة فقد وضع عليه مثلا فى كتاب الأمثال الميدانى وزخرفه بحكاية[٦] .

---

(١) الفهرست ص ٥٣ .

(٢) فهرست ص ١٠٥ الأغانى ج ١١ ص ١٧٢ وقد ذكر ذلك كولد تسيهر ص ٢٠٦ وما بعدها .

(٣) بلوغ الأرب ج ١ ص ١٦٠ .

(٤) أغانى ج ١٢ ص ١٥٦ .

(٥) حماسة ص ٦٩٥ .

(٦) الميدانى ج ٢ ص ٩ راجع العقد ج ١ ص ٣١ ، أغانى ج ٣ ص ١٩ .

رواة الأدب وواضعو الشعر

١ — حماد الراوية

يقال عن حماد هذا إنه ابن سابور بن المبارك بن عبيد ، وكان سابور يكنى أبا ليلى من سبي الديلم[١] وجاء في المزهر إنه حماد بن هرمز الديلمى . ومهما يكن فهو الراوية المشهور الذى روى كثيراً من أشعار العرب وأهم المعلقات ، قال أبو حاتم كان بالكوفة جماعة من رواة الشعر مثل حماد الراوية وغيره ، وكانوا يضعون الشعر ويقتنون المصنوع منه وينسبونه إلى غير أهله . قال الأصمعى : كل شيء في أيدينا من شعر امرئ القيس فهو عن حماد الراوية إلا شيئاً سمعناه عن أبي عمرو بن العلاء ، قال أبو الطيب : وحماد مع ذلك غير مأمون عند البصريين ولا ثقة .

جاء أعرابي إلى حماد . فأنشده قصيدة لم تعرف ، ولم يدر لمن هى ، فقال حماد : اكتبوها ، وقام الأعرابي ، قال لمن ترون أن نجعلها ؟ فقالوا أقوالا ، فقال حماد : اجعلوها لطرفة .

قال الجاحظ : ذكر الأصمعى وأبو عبيدة عن يونس أنه قال : إني لأعجب كيف أخذ الناس عن حماد وهو يلحن ، ويكسر الشعر ويصحف ويكذب . قال محمد بن سلام الجمحى : كان أول من جمع أشعار العرب ، وساق أحاديثها حماد الراوية ، وكان غير موثوق به ، وكان ينحل شعر الرجل غيره ويزيد في الأشعار . وفد حماد البصرة على بلال بن أبي بردة ، فقال ما أطرفتني شيئاً ، فعاد إليه فأنشده القصيدة من شعر الحطيئة في مديح أبي موسى ، فقال ويحك ، يمدح الحطيئة أبا موسى ولا أعلم به ، وأنا أروى من شعر الحطيئة ولكن دعها تذهب في الناس . قال

---

(١) الفهرست ٩١ . المزهر ص ٢٠٥

ابن وهب الثقفى : كان حماد الراوية صديقاً ملاطفاً ، فقلت له يوماً : أمل علىّ قصيدة لأخوالى بنى سعد بن مالك ، فأملى علىّ لطرفة :

إن الخليط أجـــد منتقله ولذاك زمت غدوة إبله
عهدى بهم فى العقب قد سندوا تهدى صعاب مطيهم ذلله

وهى لأعشى همدان ، قال الأصمعى : جالست حمادا فلم أجد عنده ثلثمائة حرف ، ولم أرض روايته وكان قديماً .

جمع حماد الروايات التاريخية والأدبية ، وأضاف من عنده عليها ما أراد ، ومات ولم يؤلف كتاباً ، بل كان الناس يأخذون عنه ، وقد كتبت كتب ، فأسندت إليه[1] وهى ليست له .

٢ — خلف الأحمر

ومن رواة الشعر ومنتحليه خلف الأحمر ، وهو أبو محرز خلف ابن حيان ، أبوه من سبى قتيبة بن مسلم ، وكان راوية لحماد ، تعلم كثيراً من القصائد وعاش بعده ، قال أبو الطيب فى مراتب النحويين : أخبرنا محمد بن يزيد قال كان خلف الأحمر يضرب به المثل فى عمل الشعر . وكان يعمل على ألسنة الناس ، فيشبه كل شعر يقوله بشعر الذى يضعه عليه ، ثم نسك ، فكان يختم القرآن فى كل يوم وليلة ، فلما نسك خرج إلى أهل الكوفة ، فعرفهم الأشعار التى قد أدخلها فى أشعار الناس فقالوا له : أنت كنت عندنا فى ذلك الوقت أوثق منك الساعة ، فبقى فى دواوينهم إلى اليوم[2] أعنى أن المنحول بقى على انتحاله ، لا فرق بينه وبين الصحيح . وقد ورد فى الحماسة شعر لتأبط شراً ، ولكن البعض يقول إنها من وضع خلف الأحمر[3] .

---

(١) راجع المفضليات نشرها لايل ص ١٧ وما بعدها . المزهر ج ٢ ص ٨٧ ، ص ٢٠٥ وما بعدها وقد ذكرها آل وردفى كتابه خلف الأحمر ص ٣٦ الفهرست ، ص ٩٠ .

(٢) مزهر ص ٨٨ .

(٣) حماسة ص ٣٨ نشرها فرايتاج

وقد خدع أهل الكوفة كما خدع أهل البصرة[١] ، ورغم ذلك كله كان طلاب العلم يجتمعون حوله يروون عنه ما يقوله ، ومنهم أبو عبد الله محمد بن سلام الجمحى صاحب كتاب طبقات الشعراء[٢] . يقول ابن النديم كان خلف الأحمر من أمرس الناس لبيت شعر وكان شاعراً يعمل الشعر على لسان العرب وينحله إياهم[٣] . ويعزى إليه تأليف ديوان ولكن لم يعرف عنه ذلك . ولما مات رثاه أبو نواس بثلاث قصائد مذكورة فى ديوانه .

المترجمون

١ — أبان بن عبد الحميد اللاحق

كان ولاؤه للرقاشيين وكان من الأدباء والمترجمين المعروفين فى القرن الثانى الهجرى ، وضع جملة مختارة من الأدب الفهلوى بين يدى القراء ، فترجم تاريخ مزدك وسيرة أردشير ، وكتاباً خاصاً ببوذا وكتباً أخرى ، وترجم كتاب كليلة ودمنة ، ونظمه شعراً ليسهل حفظه على جعفر ابن يحيى البرمكى .

وكان يعرف عن أبان هذا أنه زنديق ، وأنه ممن يتشبهون بحماد عجرد ووالبة بن الحباب وأمثالهما ، وهو من الذين يجحدون مانى ، ولا يعتقدون إلا بما تقع عليه الحواس . تفيأ ظلال بنى برمك فوثقوا به ووكلوا به امتحان الشعراء وتصنيف قصائد المدح التى كانت تترى على عتبات آل برمك . وكان له القول الفصل فى ذلك فعلا شأنه وحسن ذكره وقد وضع مرة قصيدة لأبى نواس فى موضع لا يليق بها ، فغضب أبو نواس وهجاه هجاء مراً كشف فيه صفحة حاله ، وقد كتبت هذه القصيدة فى الجزء

(١) ابن خلكان ج ١ ص ٢٩١ طبع باريس . (٢) مزهر ج ٢ ص ٢٧١ .
(٣) فهرست ص ٥٠ راجع آل ورد فى كتابه خلف الأحمر ص ٣٦ .

العشرين من كتاب الأغانى ، والجزء الرابع من كتاب الحيوان للجاحظ ،
ولكن أبانا كان ذكى الفؤاد حذراً فكان يدرأ عن نفسه الشبهات لئلا
يقع بين يدى صاحب الزنادقة مثلما وقع غيره من أمثاله ويقال إن صديقاً
أشار عليه بأن يؤلف كتاباً فى العبادات ، وقد فعل ووضعه نظماً ، وروى
لنا الصولى قطعة من هذا الكتاب فيما يخص الصيام والاعتكاف ، وجاء
ذكر هذا فى الفهرست لابن النديم . ومع ذلك كله فإن الناس كان يعرفون
عن أبان أنه يظهر خلاف ما يبطن ، وأنه من صنائع البرامكة الذين لهم
وجهة خاصة ورأى خاص فى كل ما جاء عن قلب الجزيرة العربيه .

يقول المعذل الشاعر :

رأيت أبانا يوم فطر مصليا فأدهش رأيى واستفزنى الطرب
وكيف يصلى مظلم القلب دينه على دين مانى إن ذاك من العجب

٢ — الفضل بن سهل

ومن المترجمين من الفارسية إلى العربية الفضل بن سهل ، فقد نقل
ليحيى كتاباً من الفارسية إلى العربية ولم نعرف عن هذا الكتاب شيئاً ،
فأعجب يحيى بفهمه وجودة عباراته فقال له : إنى أراك ذكياً ، وستبلغ
مبلغاً رفيعاً فاسلم ، حتى أجد السبيل إلى إدخالك فى أمورنا والإحسان
إليك ، فقال : نعم أصلح الله الوزير ، أسلم على يديك ؟ فقال له يحيى : لا !
ولكن أضعك موضعاً تنال به حظاً من دنيانا ، ودعا سلاما مولاه وقال :
خذ بيد هذا الفتى وامض به إلى جعفر ، وقل له يدخل على المأمون ، وكان
فى حجر جعفر ، حتى يسلم على يديه فوصله وأحسن إليه ، وأجرى عليه
رزقا مع حشمه ، ولم يزل ملازما للفضل حتى أصيب البرامكة فلزم المأمون
وكان البرامكة يعلقون آمالا عليه من ذلك ما ذكره أبو العلاء المنارى

أنه سمع الفضل بن سهل يقول . قال لى يحى بن خالد فى كل أربعين سنة يحدث رجل يجدد الله به دولة وأنت عندى منهم[١] .

واضعو الكتب ضد العرب

١ — سهل بن هرون

ومن الذين نقموا على هذه المبادىء الجديدة التى حلت بين ظهرانى قومهم ، ووجهتهم وجهة أخرى ، سهل بن هرون خازن بيت الحكمة للمأمون . يقول كولد تسيهر : إن العالم المشهور أمين سر المأمون وخازن بيت الحكمة سهل بن هرون الدستميانى كتب عدداً كبيراً من الكتب أظهر فيها تعصبه ضد العرب ، ونخره بالعجم ، وكان من متطرفى قومه فى أيامه ، وأدبه الغريب الذى اشتهر به ؛ إنما وضعه ليسخر به من العرب فإنه كتب سلسلة من الرسائل يمدح فيها البخل بل كتب كتابا على مايقال يذم فيه الكرم ويفضل البخل وماذلك إلا لأن الكرم صفة من صفات العرب[٢] .

٢ — سعيد البختكان ومحمد بن الليث بن الخطيب

وقد كتب سعيد بن البختكان كتاباً سماه (انتصاف العجم من العرب) ووضع كتاباً آخر أسماه (فضل العجم على العرب وافتخارها) . وكان محمد بن الليث بن الخطيب بن ادرياد بن فيروز يرمى بالزندقة وكانت البرامكة تقدمه وتحسن إليه . يقول عنه كولد تسيهر : إن الفقيه الخطيب محمد بن الليث الذى ينتهى نسبه إلى دارا كان مولى لبنى أمية ، لم يتوان

---

(١) جهشيارى ص ٢٨٨ — ٢٨٩ .

(٢) كولد تسيهر الدراسات المحمدية ص ١٦١ ، الفهرست ص ١٢٠ .

من إظهار عصبيته للفرس فى أيام البرامكة ، ولعل هذه العصبية هى التى جعلت الناس يرمونه بالزندقة[1] .

١ — الرقاشى

ومن هؤلاء الذين كانوا ينعمون فى ظل البرامكة وينقمون على العرب الفضل بن عبد الصمد مولى رقاش من عجم أهل الرى ، انقطع إلى آل برمك فأغنوه عمن سواهم وكانوا يصولون به على الشعراء ويروون أولادهم شعره ويدونون القليل والكثير منه تعصباً له وحفظاً لخدمته ، وتنويهاً باسمه وتحريكا لنشاطه لحفظ ذلك لهم ، فلما نكبوا ، صار إليهم فى حبسهم وأقام معهم مدة أيامهم ينشدهم ويسامرهم حتى ماتوا ، ورثاهم فأكثر فى رثائهم . ومن قوله فى الفضل بن يحي :

أما والله لولا خوف واشى — وعين للخليفة لا تنـــام
لطفنا حول جذعك واستلمنا — كما للناس فى الحجر استلام
فما أبصرت قبلك يابن يحى — حساماً حتفه السيف الحسام
على اللذات والدنيا جميعاً — ودولة آل برمك السلام

على أمثال هذا وغيره من رواة الأدب والتاريخ ومترجمى الكتب ، اعتمد البرامكة وبهم وجهوا التاريخ والأدب والحياة توجيهاً خاصاً ، وسنفرد للأدباء الذين نهجوا نهجاً معروفاً باباً خاصاً بهم . وقد مكنوهم من مناصب الدولة والمراكز العالية وخصوهم بالعطاء وساعدوهم على نشر آرائهم ومترجماتهم ، ومن هذه المنابع استقينا أكثر نواحى أدبنا وتاريخنا ، فكتب المؤرخون ، وروى الأدباء ، وتمثلوا بالأساليب والآراء . وسنرى فى باب الشعر ما فعله شعراء الموالى .

---

(١) راجع الفهرست ص ١٢٠ ، ١٢٣ ، الدراسات المحمدية ص ١٦١

نكبة البرامكة

شعر العرب بخطر الموالى شعوراً بيناً منذ أول أيام الدولة العباسية ، قال عبد الصمد بن على للمهدى : ياأمير المؤمنين ، إنا أهل بيت قد أشربت قلوبنا حب موالينا وتقديمهم ، وإنك قد صنعت من ذلك ما أفرطت فيه ، فقد وليتهم أمورك كلها ، وخصصتهم فى ليلك ونهارك ، ولا آمن تغيير جندك وقوادك من أهل خراسان ، فلم يهتم المهدى بذلك . ولما صارت الخلافة إلى الرشيد ، اتسعت سلطة الموالى فاستولوا على الحركة العلمية والأدبية ، وعلى شئون الدولة جميعها ، ومنع العرب من الوصول إلى بلاط الخليفة ، وظلوا بعيدين عن هذا البلاط ، تارة يذكرون الناس بأبيات من الشعر وأخرى يستطيعون إيصال خبر مقتضب إلى الخليفة ، ولكن كل ذلك لم ينفع (فقد كانت مراقبة الموالى شديدة) حتى أدرك الرشيد الخطر وأيقن أن دولته شرعت تجنح إلى الزوال ، فأوقع بالبرامكة هذه النكبة المشهورة التى كتب عنها المؤرخون كثيراً وصاغوا حولها الأساطير التى نقرؤها فى كل تاريخ من تواريخ الأمة . ونجد فيها اختلاف الأسباب وتنوع الآراء ، ويمكن تلخيص أسباب زوال هذه الأسرة التى حكمت ما يقرب من سبعة عشر عاماً حكماً مطلقاً (٧٨٦ — ٨٠٣ م) فى الأمور الآتية :

١ — أرادوا قلب الحكم العباسى كما فعل أبو مسلم الخراسانى فى قلب الحكم الأموى ، وقد حاولوا أن ينقلوا الحكم من أسرة إلى أخرى ، وغايتهم فى ذلك إضعاف شوكة العرب ليستطيعوا إعادة الدولة الفارسية[١]

٢ — استأثروا بالأموال والتصرف بشئون الدولة[٢] . يقول

---

(١) ط ج ٢ ص ٦٦٩ ، ابن خلكان ١٠٩ ، جهشيارى ص ٣٠٥ .

(٢) مقدمة ص ١٤ وما بعدها .

ابن خلدون . إنما نكب البرامكة ما كان من استبدادهم على الدولة واحتجانهم أموال الجباية حتى كان الرشيد يطلب اليسير من المال فلا يصل إليه ، فغلبوه على أمره وشركوه فى سلطانه ، ولم يكن له معهم تصرف فى أمر ملكه فنقم عليهم ، كما يستدل من توقيع له جاء فى العقد الفريد فى أمر البرامكة ، أنبتته الطاعة وحصدته المعصية[1] .

٣ — أعطوا الوظائف لأقاربهم وصنائعهم من الموالى ، وأبعدوا العنصر العربى . يقول ابن خلدون : وعمروا مراتب الدولة وخططها بالرؤساء من ولدهم وصنائعهم . يقال إنه كان بدار الرشيد من ولد يحيى خمسة وعشرون رئيساً من صاحب سيف وصاحب قلم[2] .

٤ — اتهامهم بالزندقة وترويج عقائد المجوسية ومذاهب الشرك . يقول ابن النديم : البرامكة كلهم زنادقة ، ما عدا محمد بن خالد . ويقول كريمر : إن أفراد أسرة البرامكة الشهيرة كانوا كلهم على دين مانى[3] .

٥ — أخذ الشعراء يقفون على أبوابهم ويمدحونهم ، وأخذت تصلهم هدايا الملوك من أقصى التخوم ، واستولوا على القرى والضياع ، وتغلب اسمهم على اسم الأسرة المالكة[4] .

فلم يستطع الرشيد صبراً على هذه الأمور وفعل فعلته وقضى عليهم قبل أن يغيروا ملكه . ولكن عمل الرشيد جاء متأخراً ، فإن الموالى تمكنوا من الدولة بالوسائل التى ذكرت وتغلغلوا فى المحيط ، ولم ينفع فى الأمر قتل أفراد أو نفيهم ، فقد كثر علماء الموالى وظهرت آثارهم وزاد شعراؤهم وتمكنت جمعياتهم من وضع الخطط للوقوف أمام العرب وابتداع الوسائل لإنجاح المقاصد .

---

(١) عقد ج ٢ ص ١٨٨ . (٢) مقدمة ص ١٤ .

(٣) فهرست ص ٣٣٨ ، تاريخ الثقافة ص ١٧٠

(٤) ابن خلدون مقدمة ص ١٤

الفصل الخامس

الموالى والإسلام

رأى المثقفون من بعض رجال الموالى القائمين بالحركة أن الكيد للإسلام على الحيلة أنجع وأنه لا يمكنهم محاربته إلا بالدخول فيه ، فاعتنقوا الإسلام ظاهرا وظلوا يخلصون لعقائدهم القديمة واتخذوا وسائل كثيرة لمقاومته وللتفريق بين المؤمنين به ، وأول ما فعلوه أنهم انكبوا على دراسة اللغة والأدب والقرآن والحديث واستغلوا هذه المعرفة فوضعوا من الأحاديث على النبي ، وشرعوا يوجهون الأدب والعلم بما يريدون وترجموا كتب الزندقة بما أثر عن مانى ومزدك وغيرهما فكانت هذه المترجمات سببا لإيجاد الخلاف بين المسلمين فنشأت الفرق المتعددة .

يقول كريمر : لقد جاء هذا العنصر الجديد من الوجهة الدينية بخميرة مؤثرة جدا كانت سببا لإيجاد البدع ، وتكوين الفرق ، وبث الشك وانتشار الجدل الفلسفى ، خاصة ماجىء به من المانوية[1] .

والمانوية تقوم على المبدأ الثنوى : (من أن للعالم إلهين اثنين ، أحدهما إله النور والآخر إله الظلمة) ودعايتها للزهد المتناهى الذى فرضه مانى على الأخيار من الأتباع فى عدم الزواج ، وعدم اقتناء شىء خلا قوت يوم ولباس سنة ، وإدامة التطواف فى الدنيا ، وتحريم ذبح الحيوان ، وإيذاء الماء والنار والنبات . كذلك وضع مرسوما على

---

(١) كريمر تاريخ الثقافة جـ ٢ ص ١٦٩ ، راجع كولدتسيهر الدراسات المحمدية جـ ٢ ص ٥٣

الأتباع المصنين لهم والمختلطين بالأسباب الدنيوية بالتصدق بعشر المال وصوم سبع العمر ، والاقتصار على امرأة واحدة وأرجع ذلك إلى احتقار المادة التى مصدرها الظلمة ، والظلمة محتقرة . فما صدر عنها فهو محتقر[١] . وزاد ابن النديم أن مانى فرض عليهم تعلم العلل والسحر والقيام بمهمتين ، هما الشك فى الدين والاسترخاء والتوانى فى العمل[٢] . ويقول نيبرغ : كانت هذه الحركة فى الشرق أخطر أعداء الإسلام ، فإن من طبيعة المانوية أن تتدخل فى غيرها من الأديان وتمتزج بها وتتحد معها كى تمزق وحدتها من الداخل بما تبذره من أصول الخلاف والانشقاق[٣] .

ومثل المانوية المزدكية حيث تشتركان فى الأثنينية ، وتنفرد المزدكية بالإباحة المطلقة فى الأموال والنساء . وقد انتشر هذا المبدأ فى بلاد الفرس فقاومها الملوك الساسانيون مقاومة شديدة . وثبتت قدمها فى العراق سرا[٤] ويكاد هذان المبدآن — المزدكية والمانوية — يكونان مصدرين مهمين للفرق التى ابتعدت عن الإسلام ، وغذاء للزنادقة المشهورين الذين أسسوا فرقهم لإيجاد الخلاف وإضعاف تلك العقيدة التى انبعثت من قلب الجزيرة . بل كان هذان المبدآن عنصرين قويين منهما يستمد الشعراء المعنيين بالمقاومة قوة شعرهم ومادة خيالهم .

وقد حاول الخلفاء العباسيون أن يقضوا على الزندقة فلم يستطيعوا وأول من وقف لها بالمرصاد الخليفة المهدى ، فحكم على بشار ابن برد بالموت . وأوصى ولده الهادى ألا يتوانى عن استئصال

---

(١) البيرونى آثار ص ٢١١ . (٢) فهرست ص ٣٣٣ . (٣) نيبرغ فى مقاله عن الكفاح بين الإسلام والمانوية فى مجلة O. L. Z, B 32, 4S7. 1929

(٤) كريمر — ديوان أبى نواس ص ، ١١ كريمر ، تاريخ الثقافة ج ٢ ص ١٧٠ .

البدع الجديدة ، وقضى الرشيد على أسرة البرامكة ، وحكم المعتصم على الأفشين بالموت ، وأعدم المقتدر الحلاج ، ولكن لم يتمكن هؤلاء الخلفاء من الوقوف دون انتشارها ، فقدعمت إيران وتغلغلت فى العراق[١]

كانت هذه الفرق التى نجمت عن المانوية والمزدكية والسبأية وما أبدعه خيال القائمين بالحركة فى جملتها وتفصيلها واختلاف أشكالها وتباين أزمان القائمين بها وتنوع وسائلهم تهدف إلى القضاء على الدولة العباسية لإقامة دولة جديدة تعيد مجد الأكاسرة .

ولعل ذكر بعض الأمثلة من الفرق التى نشأت ونشر سير بعض الشخصيات التى وقفت موقف المعارض العنيد يلقى شعاعا قويا على ما كان يجرى فى هذه الفترة من المؤامرات التى انهار بها الشرق الأوسط .

أتباع أبى مسلم الخراسانى وفرقة الخرمية[١]

قام أبو مسلم الخراسانى بحركة ضد الدولة العباسية كما ذكرنا آنفا ، فقضى عليه أبو جعفر المنصور ، ويظهر أن أتباعه لم يجدوا الوقت مناسبا لمقابلة السيف بالسيف فعمدوا إلى نشر عقيدة تناسخ الأرواح ، وادعوا أن أبا مسلم يؤمن بها ، وأن روح آدم حلت فى عثمان بن نهيك (رئيس حرس المنصور) ، وأن أبا جعفر المنصور ربهم الذى يطعمهم ويسقيهم ، وأنهم يطلبون رؤيته . فلما طلع عليهم عثمان ليقنعهم قتلوه بسهم ونجا المنصور من حركتهم هذه التى أرادوا بها الانتقام لسيدهم[٢] ، ثم ظهر رجل يدعى إسحق ، دعا الناس إلى أبى مسلم وزعم أنه نبى أرسله زرادشت وأنه لا يزال حيا لم يمت[٣] .

---

(١) راجع كريمر تاريخ الثقافة ج ٢ ص ١٧٠ وما بعدها .

(٢) ط ج ١ ص ١٣٠

(٣) الفهرست ٣٤٤ . فان فلوتن ١٣١ .

ونشأت بعد قتل أبى مسلم فرقة الخرمية التى يمكن إرجاع تسميتها إلى قرية خرم قرب أردبيل . وتسمى أيضا بالمسلمية . انقسمت فرقتين — فرقة تقول بإمامة أبى مسلم «وأنه لم يمت ولن يموت» حتى يظهر فيملأ الأرض قسطاً وعدلا . وفرقة قطعت بموته «وقالت بإمامة فاطمة ابنته» وتدعى هذه الفرقة الفاطمية . وحاصل تعاليمها راجع إلى رفع التكاليف ، وتسليط الناس على اتباع الشهوات من المباحات والمحرمات ، وامتد بها الزمن وكثر أتباعها عام (٣٣٢هـ) (٩٤٣ — ٩٤٤م) ومن أبرز أتباعها بابك الخرمى خرج على المعتصم وشغل الدولة العباسية حيناً من الدهر [١]

الراوندية

وظهر شخص يسمى هاشم بن حكيم ويعرف بالمقنع الخراسانى وهو من أخلص أتباع الراوندية ومؤسس هذه الفرقة ، يدعى الأبلق زعم أن الروح التى كانت فى عيسى بن مريم حلت فى على ثم فى الأئمة واحداً بعد واحد إلى إبراهيم بن محمد سبط العباس عم النبى صلى الله عليه وسلم وتبعه كثير وكان كل رجل من أتباعه يدعو الجماعة إلى منزله فيطعمهم ويسقيهم ويبيح له حرمة الإسلام ، وخرج فى جماعة منهم على الناس ينادون أبا جعفر المنصور — أنت أنت يعنون بذلك أنت ربنا وإلهنا [٢] وبدأ تعاليمه قرب مرو . وتبرقع بحرير أخضر ، وزعم أن الله تحول إلى صورة آدم ، ومن صورة آدم إلى صورة نوح ، ثم إلى صورة الأنبياء واحداً بعد واحد ، حتى حصل فى صورة أبى مسلم ثم من أبى مسلم إليه فتبعه كثير [٣] .

---

(١) المسعودى ج ٦ ص ١٧٧ . (٢) ط ٣ ص ٤١٨ ، الإسلام ، مجلة ص ٤٩٤ مولر ، ڤان فلوتن ص ٩٧ ، نولدكه ص ١٢٥ ، نصوص شرقية .

(٣) البيان والتبيين ج ٣ ص٥٣ — ٥٤ كريمر تأريخ الآراء السائدة ص ٧٤ .

ثم قال إنه إنما تجسد لكى يراه الناس إذ لا يمكن رؤيته قبل ذلك .
وعبر نهر جيحون إلى نواح كثيرة ، وشرع لهم جميع ما أتى به مزدك
وقتل من خالفه وثار على المهدى ودوخ جيوشه انتقاما لأبى مسلم وللدولة
الأكاسرة التى هد أركانها العرب . وبقى ثائراً أربع عشرة سنة حتى
حوصر وقتل سنة تسع وستين ومائة للهجرة . ولما أحيط به أحرق جسمه
ظنا منه أن جسمه سوف يتلاشى فيتحقق أصحابه قوله ، فاحترق ولم يتأت
له ما أراد من التلاشى . بل وجد فى التنور وقطع رأسه وأرسل إلى الخليفة
وصار له تبعة بما وراء النهر يدينون بدينه مستخفين منتحلين فى الظاهر
للإسلام . وقد ترجمت أخباره من الفارسية إلى العربية ويذكر البيرونى
أنه استقصاها فى أخبار المبيضة والقرامطة (١) .

الباطنية والقرامطة

لا أريد أن أفصل الحديث فى الباطنية والقرامطة تفصيلا يبين منشأها
وتطورها التاريخى وما أصابها فى أيامها التى تعاقبت عليها وما انتهت إليه
من النتائج فقد كتبت فى شأنها كتب مفصلة تقلبت فيها الآراء اختلافاً
واتفاقاً ، وحسبى من أمرها أن أبين مكانتها فى هذا الصراع وأثرها القوى
فى توجيه المجتمع الإسلامى توجيهاً مضلا .

إننى أرى أنهما فرقة واحدة ذات هدف واحد فى سبل مختلفة وأنهما
امتداد للحركات التى قام بها أعداء الإسلام من الموالى واليهودية فقد كان
الإسلام كارثة على هؤلاء الخصوم حيث هدم آراءهم وأزال معالم
سلطانهم فلم تهدأ لهم ثائرة منذ أن رأوا هذه العقيدة تزداد شوكة وقوة
تحطم أركان الظلم ، وتزيل معالم الفساد وتقيم دولة الخلافة على قواعد العدل
والإخاء والمساواة ، فقد فعل اليهود فعلتهم فى بث الفرقة فى إثارة الفتن

---

(١) الآثار الباقية ص ٢١١ .

زمن النبوة وتهيئوا للجلى من الأمور فى أيام الخلافة ، فساهم كعب الأحبار مع المولى الهرمزان فى اغتيال الخليفة الثانى وأقام عبد الله بن سبأ الموالى فى العالم الإسلامى وأقعدهم بالشغب على الخليفة الثالث حتى قتله ، وأطلقها فكرة يهودية مبتدعة تثير الشك وتقتلع عقيدة التوحيد من جذورها حين دعا إلى تأليه الخليفة الرابع ، وزاد أتباعه أن أشاعوا فكرة التجسيم والتشبيه ، وكانت آراؤه مصدراً لبعث العيسوية الأصفهانية التى كانت تقول بصحة نبوة عيسى ومحمد بالنسبة لشعبيهما فقط ، أى أن محمداً رسول الله إلى العرب لا إلى العجم ولا إلى بنى إسرائيل وأن عيسى مرسل إلى شعبه والتى قلدها من بعد ذلك الإسماعيليون فى إيجاد العقيدة العامة ، كذلك كانت آراؤه مصدر الغلو فى العالم الإسلامى ، ونشأت عن ذلك الفرق التى ألهت أبا جعفر المنصور وألهت أبا مسلم الخراسانى بعد مقتله وشاعت فكرة العصمة من الخطأ ، وظهر مبدأ المعرفة المطلقة حيث يحيط الإمام بالعلوم ما ظهر منها وما بطن ، وصحب ذلك كله مبدأ الحلول وتناسخ الأرواح .

أخذت هذه الآراء تتجمع شيئاً فشيئاً وتتلاءم حتى تركزت ونشأت عنها هذه الفرقة العاتية فرقة الباطنية التى أخرج آراءها ووجه الناس إليها ميمون القداح الثنوى الديصانى خليفة أبى مسلم الخراسانى ومستجيب ابن سبأ اليهودى .

كان هذا المولى ذكياً عالماً فأسس هذه الفرقة على أسس قوية مبنية على دراساته التى اكتسبها من مدارسة الفلسفة اليونانية وتعاليم مزدك وزرادشت ومانى وغير ذلك يضاف إليها ماجاء فى الكتب السماوية . اشتد إلى ما أفادة من هذا كله فهى لنفسه خطة محكمة حفها بالسرية القوية ظاهرها حب آل البيت والدعوة لهم وباطنها إعادة دولة الأكاسرة .

شرع يعبىء دعاته ليبثوا آراءه وعقيدته لتحقيق خطته فكان يختارهم

اختياراً يتوخى فيه الذكاء والذلاقة وقوة العارضة وكتمان السر والقدرة على إغراء الناس وجلبهم إلى لوائه وكان هؤلاء يستترون بثياب كثيرة مختلفة تارة بالصوفية والشعوذة والتقشف والزهد والاستجداء والتجارة وطوراً يلبسون ثياب النساء إذا أعوزهم الأمر ، وكان من أقوى خصائصهم قوة العارضة ومتانة الحجة ، ومعرفتهم ميول الناس ورغباتهم ، لا يخالفون أحداً وغاية ما عندهم أن يروا ميوله ويتحسسوا مغامز الضعف فيه حتى إذا وجدوا ذلك غمزوه فيها .

وكان الناس فى ذلك الوقت من السذاجة ما يجعلهم يتبعون من يحقق لهم رغبة أو يجيب لهم طلبة ورجال القداح من هذا الطراز ، أذكياء نابهون مدربون .

ولما آل الأمر إلى ابنه عبد الله قام به على أتمه ، كان يفوق أباه ذكاء ومعرفة فوضع مشروع الدعوة على أسس متينة جعلها متدرجة وقسم المجتمع على أساس مبلغ أهله من العلم والمعرفة والمكانة ، فالعامة لهم درجة ، والذين يلونهم رفعة لهم درجة ، وهكذا تتصاعد الدرجات حتى تبلغ الدرجة السابعة حيث تتكشف مبادىء الحركة كلها أمام المنتسب .

وعبد الله هذا هو الذى وضع يده بيد حمدان قرمط الثائر الثانى الذى كان يستمد مبادئ ثورته من آثار آبائه الأولين الذين ألهو أبا جعفر المنصور وأبا مسلم الخراسانى الذى كان يريد أن يعيد دولة آبائه بالسيف ففشل وعلم أتباعه أن السيف لا يجدى فى تحطيم عقيدة الإسلام ولن يجدى فى ذلك إلا إثارة الشك ، إن إثارة الفتن من الضعفاء بين الأقوياء أنفع من السيف الضعيف لا سيما الإسلام لا يزال فى عنفوان شبابه ، لقى حمدان قرمط عبد الله بن ميمون القداح لقاء موفقاً مكتمل الهدف فوضع أحدهما يده بيد الآخر ومشت دعوة القداحين القوية جنباً إلى

جنب مع دعوة قرمط تشد أزرها وتطعمها بمبادىء جديدة مبنية على التجارب . لقد خلفت قتلة أبى مسلم وراءها كثيراً من الناقمين ، تفرقوا فرقا وأحزاباً لكل رأى ووجهة فى الانتقام ، فاستطاع عبد الله بن ميمون أن يلم شعثها ويوجهها الوجهة التامة ، فقويت بذلك شوكة دعوته واستمرت تمشى مستندة إلى أسس متينة وازدادت قوة فى إقناعه أتباعه بنظرية الإمام المستور الذى يحيط بكل شىء ، وهو مصدر العلم والعرفان ولا يمكن الوصول إليه إلا عن طريق حجته عبد الله بن ميمون القداح فنال بهذه الدعوة مكانة ممتازة جعلته يسيطر على الدعاة والأتباع لاعتقادهم أنه هو الباب الذى يلجئون إلى إمامهم ، وتطورت نظرية الإمام المستور والحجة إلى نظرية الإمام المستودع والإمام المستقر ، ومعنى ذلك أن الإمام المستودع تكون الإمامة وديعة عنده يؤديها إلى الإمام المستقر ولا يؤديها إلى غيره أما الإمام المستقر فله الحق أن يهبها من يشاء لأنه محيط بكل شىء وأن عنده أسرار المعرفة .

وأياً كان الشأن فإن هذه النظرية من مستلزمات الحركة استغلت استغلالا كبيراً لفائدة القداحين ، فقد مثلوا دور الإمام المستودع ، وتعرضوا للأخطار لتكون الحركة دائما بأيديهم ، أما الإمام المستقر فهو رمز ودرع للحركة وأمل للأتباع من جميع الأقوام والشعوب لأن حب أهل البيت مغروس فى النفوس لذلك يتبعون من يدعو لهم ، والحقيقة التى لا مرية فيها ، أنه ليس للإمام المستقر من الأمر شىء . ولما ضعفت الدولة العباسية وقويت الحركة الباطنية ، وضعف شأن العلويين ، بدت للوجود فكرة جديدة ، وهى فكرة كانت عنصراً قوياً فى بناء هذه الحركة ، تلك هى البنوة الروحية . التى جعلوها فى دعايتهم وتعاليمهم تفوق فى بعض الأحيان البنوة الجسمانية ورأينا الإمام المستور « الحسين ابن أحمد » ينزل لسعيد بن الحسين بن عبد الله القداح عن الإمامة ويتركها

وديعة عنده كى ينزل عنها لابنه بعد وفاته ، فكانت هذه الوديعة فى توجيهها وجهة أخرى مائلة عن قواعدها الأصيلة أول نقطة تفرقت بها السبل بين القرامطة والقداحين فى دعواهم الباطنية ووجد القرامطة الذين يؤمنون بظهور الإمام المستور خروجاً من القداحين على الدعوة ، وصعب عليهم أن يروا إماماً من غير أهل البيت ، وثارت بين أهل الدعوة ثائرات الفتن ، واختفى حمدان قرمط ، وقيل قتل ، وهرب سعيد بن الحسين إلى المغرب . وكان هروبه بناء على إلحاح من داعيته الوفى أبى عبد الله الذى دوخ الأغالبة كما يأتى تفصيل ذلك فى آخر الفصل .

وصل عبيد الله إلى المغرب وحبس بسجلماسه عاصمة بنى مدرار فى المغرب الأقصى وكان داعيته على اتصال به .

وبينما كان دعاة القداحين يضربون فى الأرض يتسترون فى الدعوة ويستميلون الناس إلى حضرتهم ويجمعون الأنصار فى بلاد الشام والعراق وخراسان والبحرين كانت فتن القرامطة تملأ أرجاء المملكة ، وكانوا يشنون حملاتهم على مراكز الضعف فيها ، وكثيراً ما كانت جيوش الخليفة تنهزم أمام هذه الحملات وكان كل همهم إسقاط الدولة والقضاء عليها ، وإقامة دولة فارسية تأتى على العقيدة الإسلامية من جذورها ، ولقد أغاروا على مكة ودخلوها واقتلعوا الحجر الأسود الذى وضعه محمد صلى الله عليه وسلم بيده وجعله رمزاً لوحدة الأمة واحتفظوا به مدة عشرين عاماً وهذا دليل واضح أن الحركة كانت موجهة إلى العقيدة والسلطان .

ومجمل القول أن أصول هذه الفرقة التى بنوا عليها دعوتهم : أن الإمام عندهم مصدر العلم والمعرفة يحيط بما ظهر وما بطن ، لا يخطىء ، ويرجع ذلك إلى مبدأ التأليه الذى أخذت به الفرق المختلفة التى تشكلت فى أول

الحركة ، ولقد نتج عن ذلك نتيجتان إحداهما استطاعة الإمام التصرف في العقيدة كما يشاء ، لأنه أعرف الناس وأكثرهم إحاطة بها ومن ثم عمدوا إلى آيات القرآن يؤولونها كيفما تحلو لهم ، فلما وضعوا مبدأ الاستيداع والاستقرار مثلا ، قالوا لقد جاء هذا في القرآن بقوله تعالى « وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها كل في كتاب مبين » وقوله تعالى : « فمستقر ومستودع قد فصلنا الآيات لقوم يفقهون » وقالوا : إن الشرائع تلزم العامة دون الخاصة ، فإذا صار الرجل من عارفيهم ومحققيهم وموحديهم رفعوا عنه الواجبات ، وأباحوا له المحظورات ، وأولوا كثيراً من أصول الإسلام على حسب ما ترمى إليه أهدافهم ، فهم يؤولون الصلوات الخمس بأنها معرفة أسرارهم ، وصيام رمضان يراد به كتمان أسرارهم أما الحج فلا يراد به إلا السفر إلى شيوخهم. لقد كان مبدأ المعرفة التي هي إشراق إلهي خطراً جدا فقد وصل به الغلو إلى مبدأ الحلول أي حلول الإله في روح إمامهم وقد ادعى ذلك كثير من غلاة الباطنية .

واحتضنت الباطنية آراء مزدك في شيوعية الأموال ، وزاد بعض الناقلين إباحة النساء ، وعزوا ذلك إلى ما وصل إليهم عن خرما زوجة مزدك ومن اتبعها .

ومهما يكن فإن المبدأين لقيا رواجاً في فارس قبل مجيء الإسلام ، ثم استغلهما أعداء الإسلام أيام الدولة الأموية ، فلما استقر ملك بني العباس وجدنا هذه المبادئ شائعة قوية الشيوع بين الزنادقة والشعراء والأدباء ، وبين جماعة الحركة أتباع أبي مسلم الخراساني وابنته فاطمة وبابك الخرمي . ولما كانت هذه الحركة الهدامة التي تحاول قلب الدول وتبديل العقائد تحتاج إلى مال يغذيها رأينا حمدان قرمط يبتدع نظاما ماليا شيوعيا فيضع الضرائب على أتباعه المستجيبين له ، يضع ضريبة الفطرة

ومقدارها درهم واحد على كل قرمطى . ثم ضريبة الهجرة ومقدارها دينار ، وضريبة البلغة ومقدارها سبعة دنانير ، وضريبة الخمس وهى أن يدفع المستجيب خمس ما يملك وضريبة الألفة وهى أن يدفع القرمطى جميع ما يملك ، وكانت تجمع هذه الأموال عند رجل واحد ، والأتباع جميعهم فيها سواسية كأسنان المشط ، وقد سميت هذه الضريبة الأخيرة ضريبة الألفة لأنها ألفت بين قلوب الجميع وجعلتهم فى العقيدة إخوانا . وكان حمدان قرمط يتلو عليهم عند جمعها قول الله تعالى : « واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا » .

وكان يمنيهم ويعدهم أن الأرض جميعها ستكون لهم دون غيرهم ، ولذلك فإنهم لا يحتاجون إلى أموال يكنزونها فى بيوتهم .

ومن أهم العناصر التى قامت عليها الدعوة الباطنية مبدأ العقيدة العامة ، ذلك أنهم لأجل أن يجتذبوا الناس جميعهم إليهم ، كانوا يدعون لعقيدة عامة تضم العقائد كلها ، وكان عبد الله بن ميمون القداح أول واضع لهذا المبدأ ، وقد وجد بعض أتباع الأديان السماوية والمزدكيون وأتباع زرادشت بعض ما تصبو إليه نفوسهم فى هذا المعتقد العام ، فاتبعوه ، ودخل فى روع الأتباع أن عبد الله موطن لحلول زرادشت ومانى ومزدك وموسى وعيسى ومحمد يرومون من وراء ذلك تحبيب الناس لهذه الدعوة وشرعوا يعدونهم ويمنونهم ويظهرون لكل فريق مايوائم معتقده .

أفسحت هذه المبادئ لرؤساء الباطنية أن يؤولوا الكتب السماوية والعقائد بما يتفق مع هذا التعميم وذكروا أن للقرآن معنى ظاهراً وآخر باطناً ، وأن للشريعة ظاهراً وباطناً ، وأن الباطن الحقيقى الذى هو أصلها لا يعرفه إلا الإمام الباطنى الذى يفيض الله عليه نور المعرفة ، فتنكشف له الحقائق ، وأولوا الحديث والتوراة والإنجيل ، وما ورد فى المعتقدات الأخرى للأمم والشعوب .

وساعدهم على هذه الآراء جماعات العلماء الذين اتخذوا العلم والأدب ستاراً لتنفيذ هذه السياسة وطفقوا يبثون آراءهم للخاصة والعامة ، ومن هؤلاء إخوان الصفا وغيرهم من جماعات الزنادقة . ومن الشخصيات القوية التى أعانت على هدم العقيدة الإسلامية ومقاومتها وأثرت تأثيراً شديداً : ابن المقفع والحلاج ، وحيدر بن كاووس وسنذكر نبذاً توضح اتجاه كل منهم فى هذا الفصل .

هذه الباطنية ثورة عارمة من الموالى قاموا بها ضد أبناء الجزيرة العربية ، الغرض منها إعادة المجوسية الأولى والقضاء على عقيدة التوحيد . سارت بقوة واتجهت إلى شمال أفريقيا يحدوها أبو عبد الله الذى دوخ دولة الأغالبة ، فلما تم له الاستيلاء على ملكهم عام ٢٩٦ ﻫ سار إلى إمامه المسجون بسجلماسة ، فأخرجه من السجن ، وجاء به من الغربة ، وأجلسه على العرش فى تونس .

وبذلك قامت قواعد أول خلافة للموالى عام ٢٩٧ ﻫ على أساس من الأحكام والتستر وراء الدين ومن هذا المركز القوى أخذوا يمدون دعوتهم وينازعون قوتين اثنتين : الدولة العباسية فى آسيا للقضاء عليها والدولة الأموية فى الأندلس[١] للوصول إلى زعامة العالم الإسلامى . ولما استشرى سلطانهم وكثر عديد جيوشهم وعدتهم زحفوا على مصر ففتحوها على يد قائدهم جوهر الصقلى عام ٣٥٨ ووضعوا أساس القاهرة والجامع الأزهر ، وبدأت حركة علمية جديدة يبتغون من ورائها بث

---

(١) عندما أعلن الفاطميون خلافتهم رأى الأمير الأموى فى الأندلس عبد الرحمن الثالث أنه أحق بها منهم بعد أن ضعف الخليفة العباسى فأعلن خلافته واتخذ لنفسه لقب الناصر لدين الله عام ٣١٧ ﻫ/٩٢٩ وشرع يقاوم الفاطميين ويحول دون توسعهم ، وقد أرسلوا عليه أسطولا فأجابهم بأشد منه وضرب شواطىء أفريقا الشمالية .

آرائهم وأفكارهم ، ولما كان الباطنيون لا يتشددون بالدعوة مع المدعوين كما ذكرنا آنفاً ويتركون الشعرة لا تنقطع كي ينالوا مآربهم أخذوا يجلبون العلماء والأدباء من أقطار العالم الإسلامي يغرونهم بالدعوة ويستغلونهم لتقويتها ، ولكن الكثرة الغالبة أثرت عليهم ولم تفسح لهم مجالا للوصول إلى ما يبتغون ، لقد خرج القداحون على الدعوة بأخذهم الإمامة وبتساهلهم فأغاظ ذلك القرامطة فانفصل هؤلاء عنهم وغزوا مصر فعلا للقضاء على الفاطميين ، ولولا دراية المعز وحسن تدبيره الذي استطاع إرجاعهم وهزمهم لكان للباطنية تاريخ آخر . استمرت حكومتهم في إرساء قواعد الملك بالقاهرة ومصر حتى أيام الحاكم بأمر الله الذي شذ عنهم وعاد يخضع لأصول الباطنية الأولى فادعى الألوهية واستجاب للغلاة من الدعاة الذين وصلوا إليه من فارس والمغرب وقد أثار ادعاءه هذا كثيراً من الذين لا يؤمنون بالباطنية واضطربت البلاد وحدثت أحداث وقتل الحاكم ولم يعثر له على أثر ، فزعم أتباعه أنه اختفى وسوف يعود ولا يزال فريق من أتباعه يعتقدون بذلك . ظلت البلاد من بعده تنتقل من محنة إلى محنة إلى أن ضعفت دولتهم وقامت دولة الأيوبيين ، أسسها صلاح الدين الأيوبي ابن أخي شيركوه الذي عين وزيراً للخليفة الفاطمي من قبل نور الدين السلجوقي الذي كان يخشى على مصر من الصليبيين .

ثم صارت الوزارة من بعد شيركوه لصلاح الدين الذي صفى حساب الدولة الفاطمية ، وقلب تعاليمها وجعل الفقه الشافعي يدرس في الأزهر مكان فقههم ، وبذلك اتجه الأزهر اتجاهاً آخر غير اتجاهه الأول ولا يزال على ذلك إلى اليوم ويرجع الفضل له في حفظ التراث العربي الإسلامي إلى يومنا هذا .

٩ — ابن المقفع

روزبة بن داذويه ، مولى آل الأهتم فى البصرة ، كتب لداود بن عمر بن هبيرة ، أخى يزيد بن عمر والى العراق لمروان الثانى (٧٤٤ – ٧٥٠) آخر خلفاء بنى أمية (١) ولا نعرف زمن تسميته عبد الله وكل الذى نعرفه أنه بقى أمينا لعقيدته المجوسية إلى زمن الدولة العباسية حيث أسلم على يد عيسى بن على عم المنصور (٢)

كان عبد الله كاتباً بليغاً وسياسياً ماهراً ، لفت أسلوبه الكتابى نظر الخليفة أبى جعفر المنصور (٧٥٤ — ٧٥٥ م) فقربه إليه وطلب منه ترجمة كثير من الكتب عن الفارسية فقام ابن المقفع بذلك ، وهو أول من ترجم كتاب كليلة ودمنة ، وكتب أرسطو المنطقية عن الفهلوية ، وترجم من كتب التاريخ الفارسية كتاب التاج فى سيرة أنو شروان ، ومن كتب العقائد كتاب مزدك ، وألف كتباً قيمة فى الأدب والسياسة منها كتاب الأدب الكبير والأدب الصغير ورسالة الصحابة يعنى بذلك صحابة الملوك ومن يقربونهم إليهم . وفى هذه الرسالة ظهرت مواهب ابن المقفع فى السياسة والإدارة وصلاحية الحكم (٣) ونال خطوة فى البلاط . غير أن الخليفة تغير فجأة فأمر بقتله ، ودارت حول هذا القتل الأقاويل ، واشتبكت الروايات ، وأحيطت بشىء من الغموض وقليل من أحاديث خرافة وكان أول هذه الروايات قبولا عند الناس : أن ابن المقفع تشدد فى كتابة عهد الأمان بين المنصور وبين عمه عبد الله بن على فحفظها عليه المنصور . وثانى الروايات أن ابن المقفع قتل لعداوة شخصية بينه وبين سفيان بن معاوية والى البصرة . ورواية ثالثة تعزو سبب قتله إلى اتهامه بالزندقة ، فإنه لما

---

(١) فهرست ص ١١٨ ، جهشيارى ص ١١٧ .

(٢) فهرست ١١٨ ، ابن خلكان ص ١٨٨ .

(١) بروكلمن ملحق ج ١ ص ٢٣٤ — ٢٣٧ ، راجع رسائل البلغاء .

قتله سفيان قال له : « والله يا ابن الزنديقة لأحرقنك بنار الدنيا قبل نار الآخرة[١] » . وأضعف هـــذه الروايات ما ترجع قتله إلى العداوة الشخصية ، وتليها فى الضعف رواية كتابة العهد ، فإن باستطاعة المنصور أن يجعل ابن المقفع يكتب كما يريد المملى لا كما يشاء الكاتب ، والراجح أن بن المقفع كان زنديقاً لا يؤمن بالله ولا يقيم وزنا لدين محمد بن عبدالله . وقد كشف القناع عن ذلك الأستاذ جويدى الإيطالى فى الكتاب الذى نشره أخيراً لمؤلفه إبراهيم بن القاسم ، وهو كتاب « الرد على اللعين عبد الله بن المقفع » وفى هذا الكتاب اقتطف إبراهيم فقرات من كتاب معارضة ابن المقفع للقرآن ، مقتطفات لا رابطة بينها جاء بها ليرد عليها ، نذكرها كما جاءت فى الكتاب وهى :

بسم النور الرحمن الرحيم ـــ أما بعد فتعالى النور الملك ، العظيم الذى بعظمته وحكمته ونوره عرفه أولياؤه والذى اضطرت عظمته أعداءه الجاهلين له والعامين عنه إلى تعظيمه ، ومسبح ومقدس النور ، الذى من جهله لم يعرف شيئا غيره . ومن شك فيه لم يتيقن بشىء بعده و . . . انقلب عليه خلقه الذين هم عمل يديه ، ودعا كلمته ، ونفخة روحه ، فعادوه وسبوه وآسفوه . وأنشأ يقاتل بعضهم فى الأرض ويحترس من بعضهم فى السماء بمقاذفة النجوم ويبعث لمقاتلتهم ملائكته وجنوده و . . . وأنزل ملائكته فإذا غلبوا عدوا قال أنا غلبته ، أو غلب له ولىٌّ ، قال أنا ابتليته . و . . . فقتلت أعداؤه أنبياءه ورسله . و . . .

وأجّل عدوه إلى يوم يبعثون .

ولا يغلب أحداً إلا بالخيل والسلاح . و . . .

وهكذا يقتطف ابن القاسم من كتاب ابن المقفع مقتطفات ويرد عليها رداً مسجوعا يسفه به آراء ابن المقفع ويجعل كتابه هذا طعنا فى الدين .

---

(١) جهشيارى ص ١٠٧ .

ليت ابن القاسم ذكر كلام ابن المقفع كله ورد عليه بمجموعه ، وفسح المجال لغيره أن يرد عليه ، ولو فعل ذلك لكان لنا مجال واسع فى معرفة ذلك الجدل القوى الذى كان يثار بين الملحدين والمسلمين [١] .

إنك ترى ابن المقفع فى معارضته يبدأ رسالته بطراز جديد للبسملة ثم يشرع يمدح النور ، وأنه منبع الخير والمعرفة ، ويهاجم الإسلام من حيث إنه دين والقرآن من حيث إنه منزل على محمد ، خاصة فى صورة الجن ، وإحراقهم بالشهب ، ثم يستهزىء بالله (جل وعلا) . حيث لم يجعل النصر للمسلمين إلا بالسيف وعلى ظهور الخيل ، ويظهر جور الله وظلمه ، — من ذلك قتل أنبيائه ورسله ، وعدم حمايتهم وتأخير معاقبة الظالمين إلى يوم القيامة ، وأنه يسلط الأمراض والمصائب على الناس ، ويشعر بالغضب والحزن والألم لأنه يرسل زبانيته يوم القيامة ليعذبوا الخارجين على الإسلام . ولا يقف ابن المقفع عند هذا الحد بل يتهكم بالنبى صلى الله عليه وسلم .

ويؤيد القول فى زندقة ابن المقفع ما جاء عن المهدى أنه قال : « ما وجدت كتاب زندقة إلا وأصله ابن المقفع [٢] . » وجاء فى المسعودى أن المهدى قد أمعن فى قتل الملحدين والذاهبين عن الدين لظهورهم فى أيامه وإعلانهم باعتقاداتهم فى خلافته لما انتشر من كتب مانى وابن ديصان ومرقيون وما نقله ابن المقفع وغيره عن الفارسية والفهلوية [٣] .

أما ما يخص الكتاب فإن الأستاذ أحمد أمين يشك فى نسبته لابن المقفع ، ويشك أيضا فى نسبة الرد إلى ابن القاسم من الناحية الفنية . لأنه يرى أن ابن القاسم عاش فى النصف الأول من القرن الثالث والكتاب كله من أوله إلى آخره مسجوع متكلف السجع ، وأن هذا العصر عصر

---

(١) اقرأ مجلة (O. L. Z No 6, 1929, 430) (٢) ابن خلكان ص ١٨٨
(٣) المسعودى مروج ج ٧ ص ٢٩٤ وما بعدها .

الجاحظ لم يتكلف فيه السجع ولم تؤلف فيه كتب مسجوعة[١] أما شكه في نسبته لابن المقفع فلأن الأسلوب غير الأسلوب المعروف الذى يراه القارىء فى كتاب الأدب الكبير والأدب الصغير ، ورسالة الصحابة ، وإنى لا أرى هذا الرأى ، فإن الفقرات التى أوردها ابن القاسم لم تكن مسجوعة إلا فى القليل منها ، وأن الفكرة التى تقول إن ابن المقفع عارض القرآن بهذه الرسالة بعيدة كل البعد . فان الاتجاه الذى اتجهه ابن المقفع لم يكن معارضة بل كان مهاجمة ونقداً . كما يظهر من هذه الفقرات التى اقتطف ابن القاسم بعضها وترك جلها «غفر الله له ذنبه» وأن أسلوب هذه الفقرات أسلوب لا يختلف عن أسلوب الأدب الكبير والأدب الصغير والوحدة فيها واضحة ، لا تخفى على النابه .

أما السجع الذى ورد فى رد ابن القاسم فهو متكلف ظاهر التكلف ، وقد تقصد ذلك لأنه حاول أن يظهر رده بمظهر الأديب القوى الذى يمكنه أن يأتى بسجع مثل سجع القرآن فأخطأه الحظ ، ومع ذلك فإننى أقول للأستاذ أحمد أمين ، متى كان السجع مختصا بعصر دون عصر ؟ إنك تجد فى القرآن نثراً مسجوعا ونثراً مرسلا ، وتجد فى خطب الحجاج وزياد كلاما موزونا .

وكان المختار الثقفى يسجع فى كلامه[٢] فقد قال ابن الغرق للحجاج : إن المختار يسجع وذكر له من عباراته ، فضحك . وقال كان المختار يقول — « ورافعة ذيلها ، وصايحة ويلها بدجلة أو حولها » .

وقد يؤيد ماقلته عن ابن القاسم الكتاب الذى يعزى إليه فى الرد على النصارى وهو كتاب مسجوع متكلف السجع لا يختلف عن كتابه فى الرد على ابن المقفع[٣] .

---

(١) ضحى الإسلام ج ١ ص ٢٢٦ . (٢) البلاذرى أنساب الأشراف ص ٢١٦ .
(٣) برجشتراسر اسلاميكا ج ٤ ص ٢٩٩ سنة ١٩٣١

ومن هنا نجد أن ابن المقفع لاقى حتفه فى تهمة الزندقة تبعاً للحركة القوية التى قام بها ، وأن كلمة سفيان : « والله يا بن الزنديقة لأحرقنك بنار الدنيا قبل نار الآخرة » كانت منطوية على قسط كبير من الحقيقة ، وإذا قرأنا ترجمة حياة ابن الراوندى فى كتاب الانتصار لابن الخياط نجد أن ابن الراوندى يسير تحت الأفق الذى سار تحته ابن المقفع ، ويمشى إلى الغاية التى مشى إليها .

٢ — الحلاج

اختلف علماء العرب وعلماء الاستشراق فى هذه الشخصية اختلافا كبيرا ، وكتب عنه فى السنوات الأخيرة المستشرق ماسنيون كتابا ضخما ، سماه شهادة الحلاج ، عالج فيه ناحية التصوف ولم يتعرض للناحية السياسية ، كأن الحلاج لم يكن له علاقة بالقرامطة ، وكأن الحلاج لم يكن له شأن فى السياسة . وهذا مالا أراه ! ويشاركنى المستشرق هارتمن فى الرأى : فإنه لايبرىء الحلاج فى حركته من شائبة السياسة[١] ولقد عده المعرى من الزنادقة وقال إنه مشعوذ[٢] وقال عنه ابن النديم : إنه سياسى يروم قلب الدول[٣] ويقول ابن خلكان إنه كانت له جمعية سرية فى سوس حيث ألقى القبض عليه هناك[٤] . ويقول البيرونى إنه كان يدعو للمهدى أولا ، وزعم أنه يخرج من الطالقان بالديلم ، فأخذ وأدخل مدينة السلام مشهراً وحبس فاحتال حتى تخلص من السجن[٥] .

وجاء فى رحلة ابن فضلان التى نشرها الأستاذ أحمد زكى الوليدى .

---

(١) Hartman' O . L . Z . 205 ' 1925

(٢) رسالة الغفران ص ١٥٠ ، ١٥٤ . (٣) الفهرست ص ١٩٠ — ١٩٣ .

(٤) ابن خلكان ص ١٨٤ — البيرونى . آثار ص ٢١١ .

(٥) الآثار الباقية ص ٢١١ — ٢١٢ .

لقد كان الخليفة المقتدر يخشاه لأن دعوته انتشرت بين حاشية المقتدر فانخدع به كثير .

وزاد البيرونى فى كتابه أنه كان رجلا مشعبذا ، ومتصنعا مازجا نفسه بكل إنسان على حسب اعتقاده ومذهبه ، ثم ادعى حلول روح القدس فيه وتسمى بالإله ، وصارت له إلى أصحابه رقاع معنونة بهذه الألفاظ : من الهوَهوَ الأزلى الأول النور الساطع اللامع ، والأصل الأصلى وحجة الحجج ورب الأرباب ، ومنشىء السحاب ، ومشكاة النور ورب الطور ، والمتصور فى كل صورة إلى عبده فلان وكان أصحابه يفتتحون كتبهم إليه :

سبحانك يا ذات الذات ، ومنتهى غاية اللذات ، يا عظيم يا كبير ، أشهد أنك البارىء القديم المنير ، المتصور فى كل زمان وأوان وفى زماننا هذا فى صورة الحسين بن منصور . عبدك ومسكينك وفقيرك والمستجير بك والمنيب إليك . الراجى رحمتك يا علام الغيوب[1] .

كل هذه الأمور تجمعت على الحلاج فجىء به . وحوكم أمام جمع من الناس وسئل فى أمره الفقهاء فأفتوا بقتله بالإجماع فقتل عام ٣٠٩ هـ ٩٢٢ م وأحرق .

٣ — حيدر بن كاووس الأفشين

من أخطر الشخصيات السياسية الذين عالجوا قلب الحكم وتغيير الأوضاع كان قائدا المعتصم يظهر له الولاء ويبطن الشر ، ينمى إلى أصل فارسى ، من أهل أشروسنة شديد الحنق على العرب والإسلام ، كان يقول : إذا ظفرت بالعرب شدخت رءوس عظمائهم بالدبوس[2] جىء

---

(١) الآثار الباقية ص ٢١٢ وما بعدها .

(٢) المقريزى ج ٢ ص ١٨٠ .

به إلى المعتصم فحوكم أمام جمع حافل وشهد عليه المازريان قائلا : إنك كنت تقول لنا إن هذا الدين دين الإسلام إن اتفقنا أنا وأنتم محونا أثره ، ونعود إلى دين آبائنا العجم ، وظهرت عليه أمور كثيرة وكشف أمره فحكم عليه بالموت وقد قال فيه أبو تمام قصيدته المشهورة التي منها :

مازال سر الكفر بين ضلوعه   حتى اصطلى سر الزناد الوارى

ويمكن أن يضاف إلى هذه الشخصيات الثلاثة شخصية أخرى ، من المفيد ذكرها لبيان وحدة الهدف وهي شخصية — يزيد بن أنيسة — أسس هذا فرقة سماها باسمه ونسبها إليه وادعى أن الله سيبعث رسولا من العجم وينزل عليه كتاباً جملة واحدة ينسخ به شريعة محمد صلى الله عليه وسلم .

الفصل السادس

الموالى والشعر العربى

تمهيد :

تركت حركة الموالى فى الترجمة ونشر العقائد والسير أثرا بينا فى الشعر العربى جعل له طابعا خاصاً يميزه عن أصوله الأولى ، وأغراضه التى كان يقال فيها ، فإذا عرضنا صورة لأصول هذا الأدب أيام الجاهلية وصدر الإسلام وبنى أمية وضح هذا الطابع الجديد .

كان الشعر ديوان العرب وسجل وقائع حياتهم من آثار ومفاخر ، وكانت الذاكرة خزانة هذا الشعر ، وهى معروضة للآفات التى يتعرض لها الكائن الحى فلا عجب إذا وصلتنا أشعار العرب مربوكة غير متناسقة ، البيت الثانى لا يتعلق بمعنى البيت الأول والبيت الثالث لا يرتبط بمعنى البيت الثانى ، وليس غريبا أيضا أن يكون تدوين هذا الشعر ناقصا وأن تتولاه يد الرواة حذفا وانتحالا كما فعل خلف الأحمر وصاحبه ، ومع ذلك فالجملة التى فى أيدينا كافية لإعطاء الصورة التى نريدها ، لأن المعلقات مهما قيل فى كثرة المنحول فيها فإن فيها كثيراً من الصحيح الأصلى ، وإن فى كثير من كتب الأدب ، مثل الكامل للمبرد والعقد والحماسة وأمالى القالى والجمهرة والمفضليات وغيرها من أمهات الكتب مقطوعات صغيرة تمثل وقائع حياة الجاهلية خير تمثيل ، وإنك إذا استقريت ما جاء فى المعلقات وفى هذه المقطوعات وجدت الشعر الجاهلى يدور على الاعتراف بالقبيلة والدم وإطاعة هذه القبيلة ضلت أو اهتدت .

وما أنا إلا من غزية إن غوت غويت وإن ترشد غزية أرشد

ويرتكز على الفتوة التى مظهرها العفة والسخاء والشجاعة والصبر والحلم والكرم والعفو والصدق والوفاء والرحمة وعظم الهمة ورعاية العهد ، وبعد كل ذلك تسجيل الحوادث .

يقول مقرن بن عائذ :

إنى امرؤ أقنى الحياء وشيمتى كرم الطبيعة والتجنب للخنا
من معشر فيهم قروم سادة وليوث غاب حين تضطرم الوغى
ويصول بالأبدان كل مسعر مثل الشهاب إذا توقد ملغضا[(١)]

ويقول شاعر قيس بن ثعلبة :

دعوت بنى قيس إلى فشمرت خناذيذ من سعد طوال السواعد
إذا ماقلوب القوم طارت مخافة من الموت أرسوا بالنفوس المواجد[(٢)]

ويقول طرفة بن العبد :

إذا القوم قالوا من هو الفتى لكفاية المهم ، ودفع الشر ، ظننت أنهم يعنوننى فأجيبهم ، لا أكسل ولا أتحير ، ولا أنزل التلاع مخافة الأضياف — فإذا استعانى القوم فى قرى الأضياف أو قتال الأعداء أعنتهم فيها .

ويوضح قيمة الحياة فى ثلاثة أمور :

الخمرة ، وإغاثة المحتاجين ، والتمتع بجمال المرأة .

وتراه يجد فى مقام الجد ، ويهزل فى مقام الهزل ، فإذا فتشت عنه فى محافل القوم وجدته حيث الاستشارة لمهام الأمور ، وهو فى حوانيت الخمارة عند الفراغ واستجمام النشاط .

---

(١) حماسة ج ٣ ص ٢٠ (٢) المصدر نفسه .

ويرى، أن يكون الشاعر شجاعاً يدافع عن عشيرته بسيفه إذا هاجمها الأعداء ، وإذا شتم الناس عرضه حماه بشعره ، وأن بقاء العشيرة موكول بصلة القرابة ، وقطع هذه الصلة أشد من وقع السيوف .

وقيمة المرء فى الحياة عند طرفة بإقدامه وصدق عزيمته وذكائه ، ووضوح الأمر لديه على ألا يؤخر عمل يومه إلى غده بحيث يبقى متحيراً فيذهب أمره سدى .

وتجد فى لامية الشنفرى طبع الشباب على الرجولة ، وتعويدهم الإباء والصبر والجد ونبذ الكسل ، وترك البيت للمرأة ، والاخشيشان فى العيش ، فإن النعومة عنده ليست من طبيعة الرجال :

ولست بمهياف يعشى سوامه ... مجدعة سقبانها وهى بهل
ولا جبأ أكهى مرب بعرسه ... يطالعها فى شأنه كيف يفعل
ولا خالف دارية متغــزل ... يروح ويغدو داهناً يتكحل
ولاتزدهى الأجهال حلمى ولا أرى ... سئولا بأعقاب الأقاويل أنمل

* * *

فإنى لمولى الصبر أجتـاب بزه ... على مثل قلب السمع والحزم أنعل
أديم مطال الجوع حتى أميته ... وأضرب عنه الذكر صفحاً فأذهل
وأستف ترب الأرض كيلا يرى له ... علىّ من الطول امرؤ متطول

وتقرأ فى معلقة زهير نوعاً آخر من الشعر يعالج فيه معضلة الحرب ونتائجها ، ويمدح السلم ، ويعلم فتيان القبيلة أن معضلات الأمور تحل بالسياسة والسيف ، وعلى المرء أن يكون مستعداً لدفع الأخطار مدججاً بالسلاح كيلا يضيع حقه ، فإن الناس إذا رأوا رجلا لا يدافع عن كرامته يضرسونه بأنيابهم ويدوسونه بمناسمهم .

ويرى لبيد أن من صفات الرجل العظيم ، أن يكون ضيفه مكرماً وجاره سعيداً منعماً يسعد بقربه ، كما يسعد المرء بأيام الربيع ، ويفتخر

بعشيرته ويجعلها فى الذروة من الشرف إذا تفاخرت العشائر . وإن منها الحكام الذين يرفعون المظالم ويظهرون الحق ، وهم معروفون بالكرم والوفاء والدفاع عن الشرف .

ويتحدث الحارث بن حلزة فى معلقته عن بطولة عشيرته ويذكر مواقفها بين القبائل الأخرى ، ويلقى على الناس نصائحه ويذكرهم أن الطيش من آفات الإنسان ويذكرهم أن السلم والوفاء بالعهود من خير ما يؤمن المعيشة فى الحياة .

وعنترة يذكر شجاعته ومقارعة الأبطال ، ويفتخر بنفسه ويجعل منها مثالا للمحارب الذى ينزل إلى الميدان للفوز بالرجولة لا لاكتساب الغنيمة ، وأنه ملجأ قومه عند الشدائد .

ويعدد عمرو بن كلثوم فى معلقته أسماء الآباء ، ويجعل من أعمالهم قدوة للشباب ، ويمجد ما ورثته العشيرة عن هؤلاء الآباء ، ويصف وفاء العشيرة وإتمام بنيها العهد إلى غير ذلك . من الفخار الذى يقوى العزة والكرامة فى النفوس ويربيها على الإباء والشمم .

ومن شعراء الجاهلية مضرس بن ربعى الذى يخاطب قومه فى التآخى ، واجتماع الكلمة والصفح والوقوف أمام العدو[1] .

إنا لنصفح عن مجاهل قومنا ... ونقيم سالفة العدو الأصيد
ومتى نخف يوماً فساد عشيرة ... نصلح وإن نر صالحاً لا نفسد
ونعين فاعلنا على ما نابه ... حتى نيسره لفعل السيد
وإذا نموا صعداً فليس عليهم ... منا الخبال ولا نفوس الحسد
ونجيب داعية الصباح بثائب ... عجل الركوب لدعوة المستنجد
ونفل شوكتها ونفثأ حميها ... حتى تبوخ وحمينا لم يبرد
ونحل فى دار الحفاظ بيوتنا ... رتع الخمائل فى الدرين الأسود

(١) حماسة ج ٢ ص ٤١

وذو الأصبع العدوانى يدعو ابنه أسيدا وهو على فراش الموت فيقول له :

يابنى إن أباك قد فنى وهو حى ، وعاش حتى سئم العيش ، وإنى موصيك بما إن حفظته بلغت فى قومك ما بلغته فاحفظ عنى [١] .

ألن جانبك لقومك يحبوك ، وتواضع لهم يرفعوك ، وابسط لهم وجهك يطيعوك ، ولا تستأثر عليهم بشىء يسودوك ، وأكرم صغارهم كما تكرم كبارهم يكرمك كبارهم ويكبر على مودتك صغارهم ، واسمح بمالك ، واحم حريمك ، وأعزز جارك ، وأعن من استعان بك ، وأكرم ضيفك ، وأسرع النهضة فى الصريخ فإن لك أجلا لا يعدوك ، وصن وجهك عن مسألة أحد شيئاً فبذلك يتم سؤددك . ثم أنشأ يقول :

أأسيد إن مالا ملكت فسر به سيرا جميلا
آخ الكرام إن استطعت إلى إخائهم سبيلا
أهن اللئام ولا تكن لإخائهم جملا ذلولا
وابذل لضيفك ذات رحلك مكرما حتى يزولا
واعزم إذا حاولت أمراً يفرج الهم الدخيلا
واحلل على الأيفاع للعافين واجتنب المسيلا
وانزل إلى الهيجاء إذا أبطالها كرهوا النزولا

ومن هؤلاء الشعراء المربين ربيعة بن مقروم الضبى ، نجد فى شعره تربية الشباب على الفتوة والمروءة والرجولة ، وهو الذى يقول : « إنى رجل أهين اللئيم ، وأحبو الكريم ، إنى من قوم إذا وقعت فى الناس المجاعة بذلوا أموالهم ليحولوا دونها ، وإذا لبسوا دروعهم فى الحروب وجدتهم سادة قروما ، إنى كريم أنزل المرتفع من الأماكن كى يرانى السائرون فيأتونى أضيافا [٢] .

---

(١) أغانى ج ٣ ص ٩٨ (٢) المفضليات ص ٤٠ — ٤٣

وشعراء الجاهلية إلى جانب هذه التربية القوية الفاضلة يصفون في شعرهم ما يقع عليه حسهم ويرتبط به وجدانهم ويصوغه خيالهم ، فيصفون مظاهر الطبيعة وصفا دقيقا ، يصفون الرعد والبرق والسماء والسحب بأنواعها المختلفة ، وصورها في السماء ويصفون سقوط المطر وشدته ، والسيل وما يجرفه ، وما يتركه المطر من الغدران ، وشروق الشمس بعد المطر ، ثم قوس قزح ،وصفا بديعا تصورها ألفاظهم كما تصور ذلك ريشة الرسام ، كذلك يصفون السيف والرمح ، والقوس وآثارها ويشبهون لمعان السيف في الحرب كلمع ثغر الحبيب في السلم . ويصفون الديار والآثار والضعائن والجبال والوهاد والوديان ، وتعرج الرمال ، ومطاردة حمر الوحش في الصيد والغزلان ، والمها والسباع والطيور ، خاصة القطا ويصفون الناقة ويطنبون في وصفها ، لأنها تحمل أثقالهم وينتقلون عليها من محل إلى آخر ويقاتلون أعداءهم ، ويصفون الفرس ويذكرون جمالها وكرها وفرها إلى غير ذلك من هذه الأوصاف ، ويبدعون في وصف الخمرة ، والمرأة تأخذ مركزا ممتازا في شعرهم ، وإذا ذكروا محاسنها ، ذكروها من الأدب من دون أن يضيعوا لذة وصف هذا الجمال .

ولعل قصيدة امرىء القيس تعطينا شاهدا على ما قلناه في وصف الطبيعة

أصاح ترى برقا أريك وميضه كلمع اليدين في حبي مكلل
يضيء سناه أو مصابيح راهب أمال السليط بالذبال المفتل
على قطن بالشيم أيمن صوبه وأيسره على الستار فيذبل
فأضحى يسح الماء فوق كتيفة يكب على الأذقان دوح الكنهبل
ومر على القنان من نفيانه فأنزل منه العصم من كل منزل
وتيماء لم يترك بها جذع نخلة ولا أطما إلا مشيدا بجندل

كأن ثبيراً فى عرانين وبله　　كبير أناس فى بجاد مزمل
كأن ذرى رأس المجيمر غدوة　　من السيل والغثاء فلكة مغزل

الشعر فى صدر الإسلام وعصر بنى أمية

لم تنطو صفحة الأدب الجاهلى فجأة بظهور الإسلام ، بل بقى محافظا على طابعه فى الأسلوب وكثير من الأغراض ، واستمر شعراء البادية ينظمون على طراز ما كان أسلافهم عليه حتى أواخر أيام الدولة العباسية ، وبعبارة أكمل حتى انقرض نظم الشعر واختفت معالمه الأصلية من بينهم .

وكل ما فعلت العقيدة فى المدن ، أنها هذبت ألفاظه ووجهته وجهة أخرى إذ نقلت هؤلاء الشعراء من أفق القبيلة الضيق إلى أفق الأمة الواسع وأصبح الشاعر يذود عن العقيدة التى حملتها الأمة بدلا من النعرة التى كانت القبيلة تعتز بها . وأصبح الشعر فى هذه الفترة يهدف إلى وصف الوقائع الحربية وإلى التكاثر والتفاخر أمام الوفود المناوئة ، وإلى الإشادة بهذا الدين الذى زلزل أصنام الجزيرة وفتح عيون أبنائها على ثغور العالم .

وكان من أبرز الداخلين فى هذا الدين من الشعراء حسان بن ثابت وكعب بن زهير وأخوه بجير ، وأبو خراش وأبو ذؤيب ، وعباس ابن مرداس . وحسان كان المجلى فى هذه الحلبة فهو شاعر الدعوة وهو الذى يكاثر ويعدد المآثر ويذكر شوكة الإسلام وعزته ، وحسبك أن ترى ذلك فى رده على وفد بن تميم الذين وفدوا على النبى صلى الله عليه وسلم يعددون مآثرهم ويفاخرونه ويكاثرونه ، ولما قال شاعر هذا الوفد :

نحن الكرام فلا حى يعادلنا　　فينا الملوك وفينا السادة الرفع

قام حسان بن ثابت وقال :

إن الذوائب من فهر وإخوتهم　　قد بينوا سنة للناس تتبع

يرضى بهم كل من كانت سريرته تقوى الإله وبالأمر الذى شرعوا
أكرم بقوم رسول الله شيعتهم إذا تفاوتت الأهواء والشيع

وسجل حسان بن ثابت وغيره من الشعراء أكثر الوقائع الحربية ، وكان كثيراً ما يبدأ قصيده كما يبدؤه زهير بن أبى سلمى (١) .

ثم هدأت سورة الشعر بتكاثر نزول آيات القرآن ، وأولع الناس بدراسته وبسماع الحديث ، وصارت منزلة حفاظ القرآن والحديث أعلى من منزلة الشاعر . وشرع الناس يفضلون رواية الحديث على رواية الشعر وتلاوة السورة على تلاوة القصيدة واستمرت هذه الظاهرة فى المدن إلى خلافة عثمان . أما البادية فقد بقيت عامرة بشعرائها وبأساليبهم وأغراضهم السابقة

فلما جاءت دولة بنى أمية ، واستروح الناس فى ظلالها إلى النعيم والدعة ، واتصلت البادية بالمدينة واتسع سلطان الأمة بالفتوح والنصر ، وتدفقت خيرات الأمم إلى البلاد نبغ نوع من الشعر الرقيق الجميل سموه الغزل العذرى . مثله عدد من الشعراء فيهم عمر بن أبى ربيعة وجميل بن معمر وكثير عزة وقيس بن الملوح وقيس بن ذريح وأضرابهم وكانت المرأة ينبوع شعر هؤلاء ، يصفون مجالسها ومحاسنها ، وأحاديثها ، وكانت تشاركهم فى الحديث ، وقرض الشعر ونقده واشتهر من بين النساء فى ذلك : سكينة بنت الحسين وعائشة بنت طلحة وفاطمة بنت عبد الملك وغيرهن .

بهر هؤلاء الناس أسلوب القرآن ، فتأثروه فى شعرهم فرقت ألفاظه وعذبت عباراته ، وسلست قوافيه ، فتميز فى هذه الناحية عن الشعر الجاهلى ، فإذا قرأت الصمة بن عبد الله ، وجدته سهلا عذبا لا غرابة فيه

---

(١) السيرة ص ٩٣٤ ديوان حسان ص ٢٣ ، ٤٣ ، ٢٩ .

ولا تعقيد ، أنه يتغزل بحبيبته ويبكى الأطلال والدمن مثلما يفعل أى شاعر جاهلى ، غير أن السلاسة هنا أبين والتعقيد هناك أظهر[١]، واشتد هذا التأثر بأسلوب القرآن حتى أصبحت الآية تقبس لتقوم مقام بيت من الشعر — وحسبك أن ترى هذا فى شعر أبى صخر الهذلى عندما يذكر حبيبته فى قوله :

أما والذى أبكى وأضحك والذى أمات وأحيا والذى أمره أمر
لقد تركتنى أحسد الوحش أن أرى أليفين منها لا يروعهما الذعر
فيا حبها زدنى جوى كل ليلة ويا سلوة الأيام موعدك الحشر
عجبت لسعى الدهر بينى وبينها فلما انقضى ما بيننا سكن الدهر
وما هو إلا أن أراها فجاءة فأبهت لا عرف لدى ولا نكر[٢]

وأمير شعراء هذه الحلبة والمجلى فيها هو عمر بن أبى ربيعة ، قال الشعر والإسلام فى الذروة من العزة والقوة ، وقد مر على عبد الله بن عباس فأنشده شعراً غزليا فقال له عبد الله . أنت شاعر يا ابن أخى فقل ما شئت . برع عمر فى هذا النوع من الغزل فأعجب به الشعراء والأدباء وتغنى به الفتيان والفتيات .

وكان الفرزدق يقول إذا سمع شعره : « هذا الذى كانت الشعراء تطلبه فأخطأته وبكت الديار . ووقع هذا عليه ، ويقول جرير إن أنسب الناس المخزومى يعنى عمر ، ولما سئل حماد الراوية عن شعر هذا الشاعر قال : ذاك الفستق المقشر ، ويقول النصيب : إن عمراً أوصفنا لربات الجمال .

وشعر عمر عف نظيف لم يسلك فيه سبيلا رديئا ، كان يقول عن نفسه ، والله ما أعلم أنى ركبت فاحشة ، إنما أنا امرؤ موكل بالجمال

(١) حماسة جـ ٢ ص ٦٠ .
(٢) حماسة جـ ٢ ص ٦٦ .

أتبعه[١] ، وكان يعجبه جمال النساء فيجالسهن ويتحدث إليهن ويلذ من حديثهن وكن يصغين إليه ويعجبهن شعره . حدثنا صاحب الأغانى : أن نسوة اجتمعن فذكرن عمر بن أبى ربيعة وشعره وظرفه ومجلسه ، وحديثه ، فتشوقن إليه . فقالت سكينة بنت الحسين أنا لكن به ، فبعثت إليه رسولا أن يوافى الصورين ليلة سمتها ، فوافاهن على رواحله فحدثهن حتى طلع الفجر . وحان انصرافهن فقال لهن : « والله انى لمحتاج إلى زيارة قبر النبى فى مسجده ولكن لا أخلط بزيارتكن غيرها .

ثم انصرف إلى مكة .

ومن روائع غزله فى نعم قوله :

طال ليلى واعتادنى اليوم سقم   وأصابت مقاتل القلب نعم

حرة الوجه والشمائل والجوهـــر تكليمها لمن نال غنم

وحديث بمثله تنزل العصم   رخيم يشوب ذلك حلم

هكذا وصف ما بدا لى منها   ليس لى بالذى تغيب علم

إن تجودى أو تبخلى فبحمد   لست يا نعم ! فيهما من يذم

وفى وصف أخرى :

أبرزوها مثل المها تتهادى   بين خمس كواعب أتراب

ثم قالوا تحبها ! قلت بهرا   عدد القطر والحصا والتراب

وهى مكنونة تحير منهـــا   فى أديم الخدين ماء الشراب

وكان يزاحم جميلا ويباريه فى شعره ، فإذا قال جميل شعرا جاء عمر بمثله ، فقد نظم عمر رائيته على غرار رائية جميل ، ولاميته على نحو ما نظم جميل[٢] .

ولما مات عمر جزع عليه أهل مكة فقالت جارية : « من لمكة وشعابها وأباطحها ، ووصف نسائها وحسنهن وجمالهن ووصف ما فيها » ؟ فقيل لها

---

(١) أغانى ج ١ ص ٧٥ — ٧٧ .   (٢) أغانى ج ١ ص ١١٥ — ١١٧

خفضى عليك فقد نشأ فتى من ولد عثمان يأخذ مأخذه ويسلك مسلكه فقالت : أنشدونى من شعره ، فأنشدوها ، فمسحت عينيها وضحكت وقالت الحمد لله الذى لم يضيع حرمه[1] . وهكذا أصبح العرجى خليفة لابن أبى ربيعة واقتعد مكانته فى الغزل والوصف ، حادث النساء ووصفهن ووصف مجالسهن وصارت له معهن حادثات تشبه حادثات ابن أبى ربيعة . حدثنا مؤرخو الأدب أنه كان يهوى امرأة من بنى تميم ، وكان يتعرض لها فإذا رأته رمت بنفسها وتسترت منه ، وفى يوم من الأيام بصر بها فى نسوة يتحدثن فأحب أن يتأملها من قرب فعدل عنها ، وتنكر وجاء بوطب لبن إلى النسوة فقلن له أعندك لبن ؟ فقال نعم ، ثم أعطاهن فأخذ النسوة يشربن وحبيبته جالسة لم تعرفه وهو ينظر إليها وينظر إلى الأرض كمثل رجل أضاع شيئاً فسألته إحداهن ماذا أضعت أيها الفتى ؟ فقال قلبى ، فشعرت حبيبته بذلك وعلمت أنه العرجى فاختفت منه ، وقام النساء فسترنها عنه وقلن له انصرف عنا لا حاجة بنا إلى لبنك فقال فيها قصيدة :

لحينى والبلاء لقيت ظهرا … بأعلى النقع أخت بنى تميم
فلما رأت عيناى منها … أسيل الخد فى خلق عميم
وعينى جؤذر خرق وثغرا … كلون الأقحوان وجيد ريم
حنا أترابها دونى عليها … حنو العائدات على السقيم

ومن هؤلاء الشعراء ابن أذينه ، وهو شاعر فقيه ومحدث يصف حبيبته وصفاً عفا جميلا :

إن التى زعمت فؤادك ملها … خلقت هواك كما خلقت هوى لها
بيضاء باكرها النعيم فصاغها … بلباقة فأدقها وأجلها
حجبت تحيتها فقلت لصاحبى … ما كان أكثرها لنا وأقلها
وإذا وجدت لها وساوس سلوة … شفع الضمير إلى الفؤاد فسلَّها

---

(١) أغانى جـ ١ ص ٣٨٧

انتشر هذا النوع من الشعر ولها به كثير من الشعراء وشاركتهم النساء المعلومة بأسمائهن كتب الأدب .

ونشأ إلى جانب هذا الشعر الرقيق العف شعر سياسى يمدح به الشعراء من يميلون إليه من الأمويين والعلويين . وشعر هجائى مقذع قاس قسم الشعراء حزبين أحدهما ينصر جريرا والآخر الفرزدق وأخذ مكانته فى التعبير عن هذه الفترة فى السلوك والحياة وله مثل واضح فى نقائض جرير .

وموجز القول أن الشعر فى هذه الفترة من صدر الإسلام إلى انتهاء أيام بنى أمية كان طابعه فى الدفاع عن العقيدة والدعوة لها وتسجيل الوقائع الحربية والحث على الجهاد فى صدر الإسلام .

والغزل العفيف والمدح والانتصار للمتنازعين على الحكم والرياسة والهجو العنيف الذى بعثته خصومة جرير والفرزدق فى أيام بنى أمية .

اتجاه الشعر فى صدر الدولة العباسية

أثر المانوية والمزدكية فيه

مهدنا فى مستهل هذا الفصل بصورة بينة لأغراض الشعر وأساليبه أيام الجاهلية وصدر الإسلام وأيام بنى أمية ، لتكون هذه الصورة عوناً على معرفة ما تركته حركة الموالى من أثر فى توجيه الشعر فى صدر الدولة العباسية . وقد رأينا فى تلك الأطوار الثلاثة ، أن الانتقال من طور إلى طور وإن كان فيه شدة ، إلا أنها شدة لم يصحبها عنف ، فلم يكن هناك اختلاف ظاهر إلا فيما اقتضته طبيعة هذا الانتقال .

أما انهيار الحكم الأموى ، وقيام الحكم العباسى ، فقد كان الانتقال فيه عنيفا ، ولم يكن الصراع فيه بين أسرة وأسرة فى أمة واحدة بل كان بين أمة غالبة وأمة مغلوبة ، وكان صراعا طويلا خفياً يظهر ويمضه خلال

الرماد فى الفينة بعد الفينة ، وكان حكام الأمويين فى الأقاليم يعرفونه وكانوا ينبهون عليه فلم يسمع لهم مركز الدولة صوتا .

والصراع إذا انتهى إلى غلب بعد طول مدة ، تنكشف بعد انتهائه الطبائع وتتغير النفوس وتتبدل آفاق التفكير ، فتتحول قواعد الاجتماع شأن كل رجة عنيفة من رجات المجتمع تحدثها ثورات تسبقها آراء وأفكار تمهد لها .

فلما تم الأمر لبنى العباس وتمكنت لهم دعائم الدولة وأسرع العمران إلى البلاد وأنشأوا بغداد عاصمة الخلافة شرع ينحدر إليها الشعراء والمغنون من البوادى والحواضر . وتدفقت موجة العناصر الجديدة الداخلة فى الإسلام وكان أبرزها العنصر الفارسى لمجاورته ولمعاضدته العباسيين فى انتقال الحكم إليهم من الأمويين فجلبوا فى حقائبهم كتب حضارتهم وفى أفئدتهم عقائد أسلافهم .

والعراق بلاد الرافدين ، خصب الجوانب ، نبتت فيه الجنان وورفت فيه المتنزهات ، وشقت الترع والأنهار وشيدت القصور وأقيمت الحمامات ونظمت الشوارع ، واتخذت السفن شرعا تنحدر وتعلو فى دجلة تحمل الخلفاء والأمراء ، تحف بهم حاشيتهم من الوزراء والندامى والمغنين والمضحكين . وأصبحت بغداد سوقا تباع فيه الجوارى الحسان ، ترد إليها من الشرق والغرب . والمرأة والطبيعة الخصبة منبعان للأدب ومادتان عظيمتان للشاعر تبعثان فيه روح الابتكار فإذا اتسع أفق الثقافة وزادت المعرفة من التجارب وتنوعت المحسوسات وتعددت الحوادث استطاعت مخيلة الشاعر أن تتصور وتتخيل وتنشىء وتبدع بخلاف مخيلة أخرى لم تقع حواسها على ما وقعت عليه حواس الثانية ، وهنا يفترق عصر عن عصر ، وأخلاق جيل عن أخلاق جيل آخر ، بل إن الشعراء فى عصر واحد يختلف أحدهم عن الآخر تبعاً لهذا القانون وتبعاً لاختلافهم

فى المعيشة والمرئيات التى تتعودها الحواس ، لذلك لم يكن عبثاً جواب ابن الرومى حين قيل له « لم لا تشبه تشبيهات ابن المعتز ؟ فقال : من أين لى ذلك ؟ إنه ابن خليفة يرى ما عنده فيصفه ، وأرى ما يقع تحت عينى فأصفه .

اتسعت دائرة الترجمة العلمية على اختلاف أهدافها . وانصرف الخلفاء إلى تشجيع الناس فى تدوين العلم ونقله عن كتب السريان واليونان والهند والفرس ، وساهم البرامكة مساهمتهم المعروفة ، فنقلت كتب كثيرة فى المنطق والفلسفة والزهد والطب والسير والتواريخ والعقائد والآدب والقصص والشعر وما إلى ذلك مما امتلأت به خزانات الحكمة ، ومكتبات الأدباء والعلماء . فإذا رأينا فى دراسة الشعر الجاهلى مجموعة من الشعراء والأدباء يعلمون الناس الأدب وينشئون الفتيان على الرجولة بما يقصدون من القصائد ويقصون من القصص ، وما ينثرونه فى مجالس الحديث ، ورأينا فى صدر الإسلام وعصر بنى أمية فريقاً يدافع عن عقيدة محمد ويصف الوقائع ويحرض على ارتداء الفضائل والتمدح بهذه الشريعة الغراء وفريقاً غزلا يفتح صدور الفتيـان للحب العذرى ويفسح فى مجالس الأدب مكاناً للفتيات يتنادرن مع الفتيان فإننا نرى فى العصر العباسى شيئاً آخر مبايناً لكثير مما ذكرناه فى الأيام السالفة .

هنا فريقان من الشعراء . فريق ظل وفياً للبادية ، لازم قوة لهجته . وفخامة أسلوبه وصراحة تفكيره ووضوحه واستمداد خياله مما تقع عليه حواسه من مرئيات باديته ، وفريق درج فى هذه الحضارة ثقف العربية ودرس القرآن والحديث وقرأ ماترجم من علوم الأمم المتحضرة أو جاء بما كان عند أمته من ثقافة عامة ، ومن هذا الفريق جماعة مبرزة ممن دخلوا فى دين الإسلام ظلت تتردد بين جوانحهم عقائد أسلافهم من المزدكية والمـانوية زخرت بهم أسواق الأدب ومجالس الأمراء

وقصور الخلفاء ، وانبثوا فى الحانات والأديرة والأندية يتغنون بشعرهم وينشرون آراءهم دون تحفظ أو خجل وكان من خصائصهم تأليف جماعات دعيت جماعات المجان وسموا الزنادقة ، وقد عرف من هؤلاء أنهم يستهزئون بالقرآن والصلاة والحج وينكرون البعث والحساب والملائكة والجن ويعتقدون بتناسخ الأرواح وإرجاع الأشياء إلى أصلين اثنين : النور والظلمة وهما مصدر كل مادة ، لذلك لا يعتقدون إلا بما تقع عليه الحواس ومنهم من يميل إلى أكل النبات ويمتنع عن أكل اللحوم وما إلى ذلك من الأمور التى عرفت عن المانوية والمزدكية .

وقد كانوا يجهرون بالإباحة المطلقة ، وكانت آراؤهم هذه مثار جدل وتعب للخلفاء الذين يريدون توطيد أركان الدولة فى ظلال من الطمأنينة ، فلما اشتدت حركتهم وانتشر أدبهم وكثر أتباعهم والمتغنون بمأثورهم لم ير الخلفاء بدّاً من عقابهم ، فوكلوا بهم صاحب الزنادقة لأن من كان يعرف بمثل هذه الآراء كان يسمى زنديقاً ، وحكم على بعض المشهورين منهم بالقتل وعلى البعض الآخر بالحبس ، ومن مشاهير أدباء الزندقة عبد الله بن المقفع وحماد عجرد ، وأبان بن عبد الحميد اللاحقى ووالبة بن الحباب وأضرابهم من الكتاب ، وبشار بن برد وأبو العتاهية وأبو نواس وأمثالهم من الشعراء .

وقد أثر الأدباء والكتاب تأثيرا بليغا فى نشر الآراء وإثارة الشك كما أثر الشعراء بمثل ذلك فى توجيه النظم والغناء وطبعه بطابع خاص ، ولعل هؤلاء الشعراء الثلاثة خير مثل يوضح ما ذهبنا إليه فى هذه الرسالة ، وقد اخترتهم لأنهم كانوا من كبار أصحاب النظم الذين يتأثر بهم غيرهم ويقلدونهم فى أساليبهم وآرائهم .

١ — بشار بن برد

يتبوأ بشار بن برد المكان الأول بين الشعراء فى الزندقة وهو من عجم طخارستان[١] . وكان ولاؤه لبنى عقيل ، نشأ بينهم وتعلم العربية ، وقال الشعر وهو صغير السن ، فلما كبر حسن شعره وانتشر بين الناس ، وكان يقول عن نفسه إن لى اثنى عشر ألف بيت من جياد الشعر . فقيل له : وكيف ذلك ؟ قال : لى اثنتا عشرة ألف قصيدة ! أما فى كل قصيدة منها بيت جيد ؟

بيد أن هذه الكثرة لم تصلنا من شعر بشار ، وما وصلنا منها فهو قليل متناثر فى كتب الأدب والتاريخ ، قد جمع فى ديوان صغير لا يتفق حجمه مع هذا العدد الكثير الذى أثبته بشار لنفسه .

وبشار شاعر ، وخطيب صاحب منثور وسجع ورسائل ، وهو من المطبوعين أصحاب الإبداع والاختراع المتفنين فى الشعر ، القائلين فى أكثر أجناسه وضروبه[٢] وهو من طراز الأعشى والنابغة بين الشعراء من حيث الأسلوب والجزالة . وقد انتشر شعره بين الناس فلم يبق غزل ولا غزلة إلا يروى شعره ولا نائحة ولا مغنية إلا تتكسب بشعره ولا ذو شرف إلا وهو يهابه ويخاف معرة لسانه[٣] .

يدين بالرجعة ويكفر جميع الأمة ويصوب رأى إبليس فى تقديم النار على الطين فالأرض عنده مظلمة والنار مشرقة والنار معبودة منذ[٤] وجودها وإبليس فى رأيه خير من آدم لأن إبليس خلق من النار وآدم صور من الطين ولا يمكن للطين أن يسمو سمو النار .

---

(١) أغانى جـ ٣ ص ١٣٨ — ١٤٥

(٢) أغانى ١٤٥ — ١٤٩

(٣) الأغانى ص ١٤٩

(٤) أغانى ص ٢٢٧

ويهزأ بشار بالإسلام وبالأذان وينكر البعث والحساب ويفضل شعره على القرآن وقد سمع مغنية تغنى بشعره فأعجبه صوتها وغناؤها فقال هذا والله أحسن من سورة الحشر(١).

قال فايدا Vaida فى معرض كلامه عن الزنادقة لو صدقنا التعازى التهكمية التى وجهها بشار بعد موت حماد عجرد إلى صاحبه حريب لوجدنا أن الزندقة هى الاعتقاد بالاثنين وإباحة النساء.

وكان حماد عجرد يقول: إنما يغيظنى من بشار تجاهله بالزندقة وهو والله أعلم بالزندقة من مانى(٢).

وكان مجلس بشار مثابة الماجنين والخليعين يجتمعون عنده فيستمع إلى قصائدهم ويقول إن هذه القصيدة أو تلك خير من سورة كذا.

وقد حاوره أحمد بن خلاد فى ميله إلى الإلحاد فكان يقول لا أعرف إلا ما عاينته أو عاينت مثله وختم مناقشته بهذه الأبيات التى لا تدل إلا على رأى ينكر الحرية ويعترف بالعجز أمام المغيبات ويضرب عن فهم تقلبات الحياة قال:

طبعت على ما فى غير مخير هـــواى ولو خيرت كنت المهذبا

أريد فلا أعطى وأعطى ولم أرد وقصر علمى أن أنال المغيبا

فأصرف عن قصدى وعلمى مقصر وأمسى وما أعقبت إلا التعجبا

وكان بشار إباحى النزعة، يقال إن له مجلسا يدعى البردان وكانت النساء يحضرنه فإذا تكلمت امرأة سمع صوتها فعشقها. وبعث إليها غلامه يكلمها، فإذا أبت ذلك بعث إليها بشعر فاحش(٣).

قال سوار بن عبد الله ومالك بن دينار، ما شىء أدعى لأهل هذه المدينة من الفسق من أشعار هذا الأعمى، وقال واصل بن عطاء إن من

---

(١) أغانى ص ٢١١

(٢) أغانى جـ ٣ ص ٦٢ راجع عن زندقته رسالة الغفران ص١٣٩، Rivista studi orientaly, XVII 173-229

(٣) أغانى جـ ٣ ص ٢٠٢.

أخدع حبائل الشيطان وأغواها لكلمات هذا الملحد الأعمى ، ويقول أبو عبيدة — أي حرة حصان تسمع قول بشار فلا يؤثر في قلبها فكيف بالمرأة الغزلة والفتاة التي لا هم لها إلا الرجال ، ثم ذكر قصيدته الرائية [١]

وكان يحرض الفتيان على ملاحقة النساء ويقول لهم لا تيأسوا منهن

قاس الهموم تنل بها نجحا   والليل ان وراءه صبحا

لا يؤيسنك من مخبأة   قول تغلظه وإن جرحا

عسر النساء إلى مياسرة   والصعب يمكن بعدما جمحا[٢]

فلما سمع المهدي بذلك قال له ثكلتك أمك ! تحض الناس على الفجور وتقذف المحصنات المخبآت والله لئن قلت بعد هذا بيتاً واحداً لآتين على روحك .

وأما من الناحية السياسية فقد كان بشار متعصبا لقومه يكره العرب ويشتمهم شتما مقذعا ويرى أن الموالي أفضل من العرب [٣] ويرغبهم في الرجوع إلى أصولهم وتركهم الولاء ، حدثنا صاحب الأغاني أن رجلا شريفاً من بني زيد وقف على بشار فقال له : يا بشار لقد أفسدت علينا موالينا تدعوهم إلى الانتفاء منا وترغبهم إلى الرجوع إلى أصولهم وترك الولاء وأنت غير زاكي الفرع ولا معروف الأصل ، فقال بشار : والله لأصلي أكرم من الذهب ولفرعي أزكى من عمل الأبرار وما في الأرض كلب يود أن نسبك له بنسبه ولو شئت أن أجعل جواب كلامك شعراً لفعلت ولكن موعدك غداً بالمربد ، فرجع الرجل إلى منزله وهو يتوهم أن بشارا يحضر معه المربد ليفاخره ، فخرج من الغد يريد المربد فاذا رجل ينشد قصيدة كلها فحش وشتم ، فسأل عمن قال هذا ، فقيل له : هذا بشار فيك ، فرجع إلى منزله ولم يدخل المربد أبداً[٤] .

---

(١) أغاني ج ٣ ص ١٨٠ .
(٢) أغاني ج ٣ ص ٢٤٠ .
(٣) أغاني ص ١٦١ .
(٤) أغاني ص ٢٠٣ .

ولما قتل أبو مسلم الخراسانى اغتاظ بشار بن برد فأنشد قصيدة يتوعد فيها أبا جعفر المنصور .

أبا جعفر ما طول عيش بدائم ولا سالم عما قليل بسالم
كأنك لم تسمع بقتل متوج عظيم ولم تسمع بفتك الأعاجم
ومروان قد دارت على رأسه الرحى وكان لما أجرمت نزر الجرائم
فأصبحت تجرى سادراً فى طريقهم ولا تتق أشباه تلك النقائم

وقد حفظ سياسيو الفرس لبشار هذه اليد فى ثورتهم الأدبية ، فلما انتصر المأمون على الأمين وجاء طاهر بن الحسين إلى بغداد أخذ يسأل عن أولاد بشار كى يساعدهم على شئون الحياة . أحدث بشار ثورة أدبية كبرى وانتشر أدبه فى البلاد لأن شعره جميل سهل الحفظ جزل الأسلوب تقبله الأسماع وتتأثر به الغرائز ، تجد فيه مظهرين واضحين الإباحة المطلقة والدعوة إلى النار والنور وهى مبادىء جاءت بها المزدكية والمانوية وهذه لا تلائم طبيعة العربى وعقيدته فإذا كان بشار بن برد يقدس النور فإن المتنبى يستخف به وبالمانوية ويقول :

وكم لظلام الليل عندك من يد تحدث أن المانوية تكذب

وإذا كان بشار يدعو إلى الإباحة المطلقة فإن غيرة الخلفاء وتقاليد المجتمع وتعاليم الدين تخالف ما يدعو إليه .

كان بشار رجلا أعمى لا يجد فى نفسه حرجا فيما يقوله ولا يخاف أحداً وإذا أراد شيئاً بلغه بسهولة ، وإذا امتنع عليه أحد هجاه هجاء مقذعا . اجتمعت على بشار كل هذه العوامل السياسية والاجتماعية والدينية فكان مآله إلى ما يئول إليه كل زنديق متطرف فى ذلك الزمن ، فأمر الخليفة المهدى صاحب الزنادقة أن يقتل بشاراً فقتله . فلما مات لم يبق شريف بالبصرة إلا بعث لصاحب الزنادقة بالفرش والكسوة والهدايا .

مات بشار بالبصرة وقد بلغ نيفاً وسبعين عاماً من العمر[١] .

---

(١) الأغانى ج ٣ ص ٢٤٩ ، بروكلمن ج ١ ص ١١٠ ، كريمر مقتطفات من تاريخ الثقافة ص ٣٥ . ويقال أن بشار بن برد قتل انتقاماً ليعقوب بن داود لأنه هجاه .

٢ — أبو نواس

عرف بين عامة الناس أن أبا نواس شاعر هزلي مضحك ، ونديم الخليفة في البلاط يدفع عنه بمزاجه ونكاته وشعره هموم الحياة ومتاعب أعباء الحكم .

وعرف بين الناقدين من العلماء أنه شاعر من أكبر شعراء العربية في العصر العباسي الأول . فالعامة يرددون ما سمع من نكاته وما وضع عليه منها يلهون بها فيظرف مجالسهم ويشيع فيه الضحك والمرح .

والنقاد من العلماء يضعونه في بحوثهم فيجدونه وصافا للخمرة من الطراز الأول مبتدعا الغزل يخالف سنة الطبيعة ، وهو في هذين النوعين من النظم مجلى في حلبة أقرانه لا يتقدم عليه واحد منهم .

فهو إذن في عرف هؤلاء جميعاً رجل شغل نفسه بوصف الخمرة والغلمان ونادم الخلفاء يمدحهم ويضحكهم ويدخل السرور على أنفسهم .

ولكن لأبي نواس ناحية أخرى غير هذه الناحية ؛ وهدفا في الحياة أبعد من هذا الهدف ، فهو راوية ناقد ذكي الفؤاد ، ثبت الفهم ، متكلم ، عالم بأخبار العرب وأيامهم وغريب اللغة . اتصل بخلف الأحمر يروى عنه ويسأله عن الشعر ومعانيه ، وبأبي عبيدة يسأله عن أخبار العرب وأيام الناس ، درس نحو سيبويه ، وأخذ عن أبي زيد غريب الألفاظ[1] ، وجالس الفقهاء واستمع إلى أصحاب الكلام وتعلم منهم واتصل بالشاعر الماجن والبة بن الحباب فتأثر به وأخذ عنه[2] .

واحتضنه الموالي وأشادوا بذكره ومدحوه أمام الرشيد حتى اتخذ المقام الأول بين الندامى في بلاط الخليفة[3] ، وقابلهم مدحا بمدح

---

(١) أخبار أبو نواس ص ٢٣ — ٢٧ (٢) أغاني ج ١٦ ص ١٥٠

(٣) أخبار ص ٢١٦

وإشادة بإشادة ، فأبو عبيدة فى رأى ابن أبى نواس أديم طوى على علم وخلف الأحمر جمع علم الناس وفهمهم ، والأصمعى بلبل فى قفص [١] .

وتقدم أبو نواس فى هذه الحياة حتى صار قطبا من أقطاب جمعية البرامكة التى كانت تشتغل فى قلب نظام الحكم وتوجيه العلم والأدب . فكانوا له ظلا ، وكان لهم ردءاً يدفع عنهم غضب الرشيد وينشر محاسنهم بين الناس ، ويكفونه مؤنة الحياة ، قال المستشرق كريمر ناشر ديوان أبى نواس — لقد كان أثر أبى نواس على الرشيد كبيرا ، فكان يكفى أن يقول البيتين يفثأ بهما غضبه عن البرامكة أو يقلله . وقد مدحهم بقصائد خلدت ذكراهم [٢] .

لقد كان ذكيا واسع الحيلة يعرف كيف يجد ، ويعرف كيف يهزل ، ولو لم تكن له هذه القدرة لكان نصيبه القتل مثلما كان نصيب صاحبيه ابن المقفع وبشار بن برد ، وبهذه القدرة استطاع أبو نواس كما يقول كريمر أن يستخف بالعقيدة وينشر الضلال والزندقة ويتكلم مايريد دون حياء أو خجل [٣] .

اتهم أبو نواس بالزندقة وعد بين كبار الثنوية وشهد عليه كثير أمام الأمين فحبسه فى حبس الزنادقة ، وقال عن نفسه : كنت أتوهم أن حماد عجرد إنما يرمى بالزندقة لمجونه فى شعره حتى حبست فى حبس الزنادقة ، فإذا حماد عجرد إمام من أئمتهم . وإذا له شعر مزاوج بيتين ، يقرءونه فى صلاتهم [٤] .

وما من شك فى أنه متأثر بالمانونة والمزدكية ، فهو لم يخرج عن سبيل غيره من عرفوا بهذا الميل فإنه يرى فى العقيدة الجديدة قيدا من

---

(١) أخبار ص ٢١٦

(٢) كريمر — ديوان أبى نواس ص ١٥ ، ١٧ ، ٢٠   (٣) المصدر نفسه .

(٤) راجع الأغانى ترجمة حماد عجرد .

قيود الحياة ويرى أن يتحرر المرء من هذه القيود ويتمتع باللذات ولا يؤمن إلا بما يقع عليه الحس ، وينكر البعث وهو فى نظره خيال أمره مظلم وعلى المرء أن يغنم هذه الفرصة ويستفيد من الموجود لأن الغائب لا علم له به ، ولم يأت أحد يخبره فى جنة من مات أو فى نار .

ومن مبادىء المانوية إثارة الشك فى العقيدة ومهاجمة جميع الأديان لتتغلب عليها أما الغزل بالمذكر فإنه ينحدر من أصولها ؛ قال البيرونى فى تاريخه (ص ٢٨) عند الكلام على المانوية : أن كل مانوى يصطحب غلاما أمرد ويستخدمه فى شئونه ، ولم يكن هذا الغزل مألوفا فى شعر العرب[١] وقال حمزة الأصبهانى ، جامع ديوان أبى نواس إن أبا نواس هو الذى ابتدع غزل المذكر وإذا لم يكن هو البادىء فإن هذا النوع لم يحدث إلا فى العصر العباسى لأننا لم نر ذلك فى شعر الجاهليين والإسلاميين إلا أيام بنى أمية ، وشعراء العرب لم يغنوا إلا بالمرأة ، فلما قدم جيش المسودة من خراسان لنصرة بنى العباس كان يصحبهم الغلمان يستخدمونهم فنشأ عن ذلك هذا النوع من الغزل وانتشر بين شعراء هذا العصر .

وزعم الجاحظ فى صحيفة بقيت من كتاب المعلمين ، أن هذه العادة بدأت بين جند خراسان حين قدموا إلى العراق واصطحبوا معهم الغلمان ، بخلاف ما كان عليه جند المسلمين فى الحرب إذ كانوا يصحبون نساءهم معهم ، ثم قال الجاحظ ولو كان هذا النوع من الغزل منتشرا بين العرب لوصلنا منهم الشعر الكثير كما وصلنا من شعرهم فى المرأة[٢] .

---

(١) Reseher arab. Lit, S. 16, Ahlwardt, Uber Poesie and Poetik, S 56.

(٢) Eugen Mittwoch' die literarische tatigkait Hamza al gsbahani :—
Mitt. sem. or. sprache XII (1909) westas. st. 137 ff.

وتفنن أبو نواس فى غزله ووصف غلمانه بأنواع الوصف الذى تساعد عليه اللغة العربية، ومنحهم الأوصاف التى توصف بها الحسان فالجميل فى نظره، أحور العينين ذو صدغ، له حاجب كالنون وهو غصن بان منور، وله لثغة وكشح مخصر، أو هو البدر يمشى فى قراطقه، أو دعص من رمل فى غصن البان، ويعجبه من غلمانه الأمرد الطرير ذو الكفل الأهيف، فإذا نبتت لحيته زوى أبو نواس وجهه عنه وولى ويسدر فى غلوائه حتى يحصى السماء بغلمانه[1] ولا يدع معنى من المعانى التى تثير هذه الغريزة إلا أتى به فى إسراف لا تقبله الطبيعة التى تريد التوازن بين جميع الغرائز فإن الطبيعة جهزت الكائن الإنسانى بقوى كافية لبقائه واستمراره فى الحياة. فإذا أسرف فى قوة من قواه اختل هذا التوازن وناء هذا الكائن بعبء هذا الاختلال، والغريزة الابتدائية إذا سيطرت وحدها لتشبع نهمها بشدة وعنف أثرت أثراً بالغا فى إخفاء المواهب وإضعاف الطموح، وهو ما تريده المانوية.

أما الخمرة فقد كانت عنوان قصائده، وغرر شعره، فإذا كان العرب قبلا يفتتحون قصائدهم بذكر الأطلال والدمن والظعائن والأوطان، فإن أبا نواس جعل الخمرة فاتحة القصيدة ووصفها بأنواع الأوصاف وشبهها بالتشبيهات الواضحة وحببها إلى الناس وأغراهم بها، فهو يشبهها بالنور إذا حلت بالزجاجة، ورغوتها أو زبدها بالنجوم تارة وأخرى بالفضة أو الدر ولمعانها بلمعان البرق، وجعلها معبودة تسجد لها الملوك، وإذا دارت كئوسها حسبتها النجوم فى السماء وإنها فى دن نسج العنكبوت عليه بيوته وقد عتقت فيه ورقت حتى أصبحت فى رقة دين أبى نواس كما يقول ذلك عن نفسه. كالدمع صفاء وحسنا. وكقطر الطل فى الرخام

---

(١) راجع ديوان أبى نواس ص ٢٠٣ وما بعدها.

الساق ، ولا تنزل الأحزان ساحتها ، وإذا مسها حجر طرب وتهلل بالفرح والبشر وهكذا يغرى أبو نواس بمعاقرة بنت الدنان ويطلب منهم ألا يتأخروا عن ذلك ، إذا حل الربيع وربت الأرض وزهت وأنبتت من كل زوج بهيج[(١)] .

انحدر أبو نواس من أصل فارسى كما يقول الأصمعى وادعى اليمن وتولاهم[(٢)] واستقبل ضياء الشمس بالأهواز ونشأ بالبصرة . وهو يعتز بفارسيته فى شعره ويفخر بأجداده ويقول :

بلينا على كسرى سماء مدامة مكللة حافاتهـا بنجـــوم
فلو ردفى كسرى بن ساسان روحه إذن لاصطفانى دون كل نديم[(٣)]

* * *

تراث أبى ساسان كسرى ولم تكن مواريث ما أبقت تميم ولا بكر[(٤)]

* * *

تدار علينا الراح فى عسجدية حبتها بأنواع التصاوير فارس
قرارتها كسرى وفى جنباتها مها تدريهـا بالقسى الفوارس[(٥)]

* * *

فاســقنيها وغـن صـــوتاً ــ لك الخــير أعجما
ليس فى نعــت دمنـــة لا ولا زجـــر أشـــأما[(٦)]

إنا نجد فى شعر أبى نواس مظهراً واضحاً من مبادئ المانوية والمزدكية من حيث إثارة الشك فى العقيدة ومهاجمة الدين والإباحة المطلقة والغزل بالمذكر ونرى إلى جانب ذلك تعصبة لقومه والإشادة بهم والحط من شأن الدين والأدب العربى وأساليبه .

---

(١) اقرأ ديوان أبى نواس
(٢) أخبار أبى نواس ص ٩
(٣) أخبار ص ٧٥
(٤) ديوان ص ١٦٦
(٥) ديوان ١٨٢
(٦) ديوان ٢٠٢ .

وتحضرنى فى هذه الوجهة مقارنة موجزة بين أبى نواس شاعر العباسيين وبين هاينرش هاينه شاعر الراين فقد انحدر هاينرش هاينه من أصل يهودى إلى مجتمع جرمانى وتثقف ثقافة ألمانية واعتنق الدين المسيحى كما انحدر أبو نواس من أصل فارسى إلى مجتمع عربى وتثقف ثقافة عربية واعتنق الدين الإسلامى .

ولد شاعر الألمان فى دسلدورف عام ١٧٩٧ ودخل فى الدين المسيحى عام ١٨٢٥ وتوفى عام ١٨٥٦ فى باريس وعلا صيته فى الشعر حتى أصبح يلقب « شاعر الراين » والراين نهر يجرى فى مقاطعة شعرية جميلة من أجمل البقاع فى ألمانيا ، بها ترعرع هاينه وتثقف ونظم الشعر وكان جميل النظم عذب الأسلوب ، يتخير الألفاظ الغنائية والتشابيه الواضحة . وهو فى أساليبه وسلوكه يشبه كثيراً أبا نواس ، فهو حاد النكتة كثير الهزل ، يتكلم ويصف فى غزله وهزله دون حياء أو خجل ، ليس للرذيلة عنده قيود أو حدود ، بل هى عنده جماع الفضيلة . وكان أثر شعره الغنائى شديداً على الفتيان والفتيات ، ويرى أن الحياة لا تعرف على حقيقتها إلا إذا نزل المرء إلى الحمأة — أى إن الإنسان لا يعرف أخاه الإنسان ، أو أن الفتى لا يعرف حقيقة فتاته إلا إذا هتكا كل ستر ومزقا كل حجاب وتكشفت الغرائز بعضها لبعض . هناك فى هذه الحمأة النتنة ، تتلاقى الغرائز وتتعارف فتتحاضن ، وبهذه الأفكار الحسية كان هاينه يكلم شعباً له تقاليده وعاداته ، له تكوين أسرته ، له دينه وعقائده . ولم يقف هاينه عند هذا الحد ، بل أخذ يهزأ بهذا الشعب ويهجوه ويصغره فى عين نفسه . واستمر شعر هاينه يقرأ القرون الطوال ، ولم ينج من تأثيره فتى ولا فتاة ، وقد سعى لإفساد كل عقيدة ، وهتك كل ستر ، والقضاء على كل تقليد . وقد أحرقت كتب هاينه فى ظرف من ظروف ألمانيا ، وبقى ديوان أبى نواس وأخبار أبى نواس فى مباذله ومفاسده وميوعته .

٣ — أبو العتاهية

نشأ بالكوفة وبها تثقف وتعلم نظم الشعر وبرع به ، حتى أنه كان يقول الشعر كما يقول النثر . وشعره من الطراز الأول ، سهل الألفاظ لطيف المعانى . بدأ بالغزل واستمر عليه حيناً من الدهر ، ثم تركه ومال إلى الزهد فاتهمه الناس بالزندقة[١] . وقد ترجع هذه التهمة إلى ما انتشر فى تضاعيف شعره من المعانى الدالة على الاثنينية وإلى هذا الزهد الذى هو مبدأ أصيل فى مبادىء المانوية وإلى ما كان يقال عنه إنه لا يذكر البعث فى شعره ، وأن شأنه شأن الزنادقة من شعراء هذا العصر الذين لا يؤمنون إلا بما تقع عليه الحواس ، وأنه كان يقول : إذا كنت تشك فيمن تراه فكيف بمن لا تقع عينك عليه[٢] .

وقال بروكلمن إن ماقيل عن أبى العتاهية أنه لا يذكر البعث فى شعره ولا يتكلم إلا عن الموت قول لا يستند إلى أصل[٣] .

ودافع عنه صديقه أحمد بن حرب وقال ، كان مذهب أبى العتاهية القول بالتوحيد وأن الله خلق جوهرين متضادين لا من شىء ، ثم إنه بنى العالم هذه البنية منهما ، وأن العالم حديث العين والصنعة لا محدث له إلا الله ، وكان يزعم أن الله سيرد كل شىء إلى الجوهرين المتضادين قبل أن تفنى الأعيان[٤] .

ودفاع ابن حرب هذا ليس فى صالح أبى العتاهية لأن أثر الأثنينية فى قول أبى العتاهية ظاهر .

ويلفت فايدا نظر الباحث إلى أرجوزة أبى العتاهية ويستدل بها على ماكان يجول فى ذهن هذا الشاعر من الرأى فى الكون والخليقة .

---

(١) بروكلمن ملحق جـ ١ ص ١١٩ أغانى جـ ٤ ص ٢ . (٢) فايدا ص ٢١٧
(٣) بروكلمن ١١٩ (٤) فايدا ٢١٩ . أغانى جـ ٤ ص ٥

وإننا نورد الأبيات التالية فى هذه الأرجوزة على سبيل الإيضاح :

لكل شيء معدن وجوهر ... وأوسط وأصغر وأكبر

من لك بالمحض وكل ممتزج ... وساوس فى الصدر منها تعتلج

وكل شيء لاحق بجوهره ... أصغره متصل بأكبره

ما زالت الدنيا لنا دار أذى ... ممزوجة الصفو بألوان القذى

الخير والشر بها أزواج ... لذا نتاج ولذا نتاج

من لك بالمحض وليس محض ... يخبث بعض ويطيب بعض

لكل إنسان طبيعتان ... خير وشر وهما ضدان

والخير والشر إذا ما عدا ... بينهما بون بعيد جدا

كذا قضى الله فكيف أصنع ... الصمت إن ضاق الكلام أوسع

ويكشف فايدا فى هذه الأبيات عن مبطون الأثنينية فى الخير والشر والصفو والكدر والمحض والممتزج وما يتولد من المعانى التى ترجع إلى النور والظلمة اللذين تدين بهما المانوية والمزدكية ، ثم يترك الفصل فى الحكم على أبى العتاهية ويقول إننا لا نعلم أكان أبو العتاهية موحدا فأخذ نظرية الأثنينة من المانوية ليستعين بها على توضيح العالم فى وجهى الخير والشر حيث تنوء أحيانا بالآلام وأخرى تسر بالمباهج ، أم أن توحيده هذا كان قناعا يتستر به لنشر مبادىء المانوية كما هى طبيعة أهل هذه النحلة[1] . إننى أميل إلى الرأى الثانى وإلى الفصل بالحكم بدلالة ماجاء فى هذه الأبيات وما انتشر من الآراء فى شعر أبى العتاهية . وقد اتهم أبو العتاهية فعلا بهذا التستر انظر (ماسنيون — استشهاد الحلاج ص ١٤٩ وما بعدها) وهذا التستر وسيلة تعرف بها المانوية فى محاربة الأديان [2]

بقى علينا أن نبحث فى زهد أبى العتاهية ، لنرى هل هو أصيل فى طبيعة شعره أم هو طارىء متعمد ؟؟ . .

---

(١) فايدا ٢١٧ — (٢) ينبرع ص ٤٢٨ .

إننا نعرف أبا العتاهية شاعراً غزلا متيما فى عشيقته فكيف ترك هذا الغزل وإنه يبخل على بطنه أن تشبع فكيف يجتمع الزهد والبخل والزهد والعشق ؟؟ . وقد سمعنا عنه يقول : إن الناس لا يحترمون الفقير بل يحترمون الغنى ويخشون بأس ذى القوة . فهو زاهد وهو بخيل . وهو يحب المال ويرى فيه القوة والاحترام ولقد خاب فى عشقه فترك الغزل ، وشهد مصرع أسياده البرامكة فذل بعد عز ونزل سجن الزنادقة بين المتهمين ، فماذا يصنع أبو العتاهية ، أيجاهر الحاكمين بالعداء أم يتستر وينشر من آرائه ما يشاء ويختار ؟ .. أيدعو للخير والشر أم للظلمة والنور وهو يعرف أن رأسه بين النطع والسيف إن نطق بذلك . لقد اعتصم أبو العتاهية بالصمت ولكنه وجد لنفسه مخرجا . حين طلب إليه الرشيد أن ينظم شعراً ولم يأمر بإخراجه من السجن . فلم يقل كما يريد الرشيد بل قال شعراً من نوع آخر تعمده واستمر عليه ، ونوى فيه الانتقام كما يقول . وقد حدثنا عن ذلك صاحب الأغانى ، قال : كان الرشيد يعجبه غناء الملاحين وكان يتأذى بفساد كلامهم ولحنهم فقال قولوا لمن معنا من الشعراء يعملون لهؤلاء شعرا يغنون فيه فقيل له ليس أقدر على هذا من أبى العتاهية وهو فى الحبس ، قال أبو العتاهية فوجه إلىّ الرشيد قل شعرا حتى أسمعه ، ولم يأمر بإطلاقى فغاظنى ذلك فقلت والله لأقولن شعرا يحزنه ولا يسر به فعملت شعرا ودفعته إلى من حفظه من الملاحين فلما ركب الحراقة سمعه وهو :

خانك الطرف الطموح — أيها القلب الجموح
لدواعى الخير والشر — دنـــو ونـــزوح
هل لمطلوب بذنب — توبة منـــه نصـــوح
سيصير المرء يوما — جســـداً ما فيـــه روح
كل نطاح من الدهر — له يوم نطـــوح

نح على نفسك يا مسكين إن كنت تنوح
لتموتن وإن عمرت ما عمر نوح (١)

وقال الأصمعى : صنع الرشيد طعاما وزخرف مجلسه وأحضر أبا العتاهية ، وقال له صف ما نحن فيه من نعيم هذه الدنيا فقال أبو العتاهية :

عش ما بدا لك سالما في ظل شاهقة القصور
يسعى إليك بما اشتهيت لدى الرواح أو البكور
فإذا النفوس تقعقعت في ظل حشرجة الصدور
فهناك تعلم موقنا ما كنت إلا في غرور (٢)

قال فبكى الرشيد حتى بل كمه .

وأخبر المسعودى والماوردى والشريشى عن الأصمعى أنه قال . دخلت على الرشيد وهو ينظر فى كتابه ودموعه تنحدر على خديه فظللت قائما حتى سكن وحانت منه التفاتة فقال لى اجلس يا أصمعى . فجلست فقال لى : أرأيت ما كان ؛ قلت نعم يا أمير المؤمنين قال : أما والله لو كان لأمر الدنيا ما رأيت دموعى ، ثم رمى إلى بالقرطاس فإذا فيه شعر لأبى العتاهية بخط جليل وهو :

يا من يريد الموت مهجته — لا شك — ما لك لا تبادره
هل أنت معتبر بمن خربت منه — غداة قضى — دساكره .

قال الرشيد كأنى والله أخاطب بذلك دون الناس ولم يلبث بعد ذلك قليلا حتى مات (٣)

وسواء أتستر أبو العتاهية لنشر مبادىء المانوية بالانتقام من الرشيد أم أن حالته كانت تستدعى ذلك فقد وجد أسلم الطرق لبلوغ المانوية مرامها فى صرف النفوس عن الطموح واستكانتها للخوف والذعر ،

---

(١) أغانى ج ٤ ص ١٠٣ (٢) ديوان ص ١٣٢
(٣) ديوان ص ١٢٣

وكيف لا تستسلم النفوس إلى الخوف وهى تسمع منه أنها لم تولد إلا الموت ، ولا تبنى إلا للخراب ، وأن مصيرنا إلى تراب ، لأننا خلقنا من التراب ، وأن الموت لا مفر منه لا يحابى أحداً ولا يظلمه ، وأن القبور فى صمت ضيق لا تسمع ولا تعى فنادها ما شئت فلن تجيبك واسألها عن الملوك وآبائهم وأبنائهم أين ذهبوا وإلى أى شىء استحالوا فلا تسمع شيئا ولا تعلم عنهم غير أنهم صاروا رفاتا فى التراب ، وينادى أبو العتاهية الموت ويعاتبه ويقول له أيها الموت كلفتنى أن أغمض عيون أصدقائى فما أقساك ؟ ، إنك لا تريد أن تبقى على أحد من الخلق ، ثم يلتفت إلى الإنسان ويهمس فى آذان الناس ينذرهم بقصر مدتهم فلا يغفلوا عن الموت قاطع المدد(١) .

وهذا الشعر يملأ ديوانه ولولا التطويل لذكرت الشىء الكثير ، فإذا كان أبو نواس فتح للناس بابا جديدا فى الغزل والإباحة والبراعة فى وصف الخمرة فإن أبا العتاهية فتح لهم بابا آخر فى الزهد والكف عن الحياة وأصبح أثر شعره واضحاً فى كثير من تعاليم النحل التى نبطت فى الحياة العربية . وليس الضرر الذى يصل من شعر أبى نواس إلى النفوس فيحللها بأكثر من هذا الضرر يقتل الطموح ويصرف الأنفس عن الحياة وينقل الأمة من أفقها الواسع الذى ينتظم الإنسانية إلى أفق ضيق فيه عكوف وانطواء تسعى المانوية إليه .

أما عن بخله الذى لا يتفق مع طبيعة الزهد . فقد جاءتنا بطرائفه كتب الأدب ومن طريف ذلك ، ما حدثنا به صاحب الأغانى : أن سائلا وقف على أبى العتاهية وجماعة من جيرانه حوله فسأله ، فقال أبو العتاهية . صنع الله لك . فأعاد السؤال . فأعاده عليه ثانية فأعاد عليه

---

(١) راجع الديوان .

ثالثة فرد عليه مثل ذلك . فغضب فقال له السائل ألست القائل :

كل حي عند ميتته حظه من ماله الكفن

ثم قال : فبالله عليك ، أتريد أن تعد مالك كله لثمن كفنك ، قال لا ، قال : فبالله كم قدرت لكفنك ؟ . قال خمسة دنانير . قال فهى إذن حظك من كله . قال : « نعم قال فتصدق على من غير حظك بدرهم واحد ، قال لو تصدقت عليك لكان حظى . قال السائل : إن القبور تحفر بثلاثة دراهم ، فأعطنى درهما وأقيم لك كفيلا بأنى أحفر لك قبرك به متى مت وترج درهمين لم يكونا بحسبانك فإن لم أحتفر رددته على ورثتك أو رده كفيلى عليهم ، فخجل أبو العتاهية وقال أغرب لعنك الله ، وغضب عليه فضحك جميع من حضر ومر السائل يضحك ، فالتفت أبو العتاهية إلى جيرانه وقال من أجل هذا وأمثاله حرمت الصدقة فقلنا له ومن حرمها ومتى حرمت[1] ؟

وذكر أيضاً أن أبا العتاهية بعث إلى خزيمة بقصيدة منها :

أراك امرءا ترجو من الله عفوه وأنت على مالا تحب مقيم

فقال خزيمة والله إن المعروف فى هذا المعتوه الملحف ضائع فقيل له وكيف ذلك ؟ . فقال لأنه من الذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله[2] .

إن الشعر قوة خفية تقع على مواقع الحس من النفس فتملؤها انشراحا وتثيرها حماسة وتغمرها لينا ورحمة ، فالنفس طوع بنان الشعر تتأرجح بين يديه فى القسوة والشدة والخجل والتواضع ، والصلابة والإقدام والإحجام والطاعة والعصيان وما إلى غير ذلك من أنواع الوجدان . والشعر أقوى من صولجان الحاكم وأنفذ من قوانين الدولة لأن السلطة تعتمد فى تنفيذ قوانينها على الرهبة والهيبة وتجعل مظهر

---

(١) ديوان ص ١٢ (٢) أغانى ج ٤ ص ١٠٠

هذين الوجدانين الجيش والشرطة ولكن الشعر قوة وحده وفيه الهيبة وفيه الرهبة وهكذا دب شعر هؤلاء الثلاثة : بشار وأبي نواس وأبي العتاهية في حياة الأدب العربي ووجهه توجيها خاصا ، فاندفع الشعراء ينسجون على منوالهم ويتأثرون أساليبه ومعانيه ردحا من الزمن وطفق الفتيان والفتيات يتغنون بشعر أبي نواس وبشار وغزل أبي العتاهية وانحدر زهده إلى زوايا المساجد والمعابد ، فتخذته الملل والنحل وجماعات الزهاد سبيل سلوكها ، وهكذا لم يخل مجتمع ولم تنج زاوية من زواياه من شعر هؤلاء الثلاثة الذي أثقل كاهل هذه الأمة وتركها تنوء بأعباء التحلل أو الانطواء ، فتحلل مجتمعها وفتحت ثغرات عظيمة في كيانها للطامعين والفاتحين ولم تقم لها قائمة مذ دب هذا الانحلال في جسمها في غمرة هذا الصراع . إن الشعراء الذين يوجدون الأمم هم الذين يقدمون لحياتها ما يبدعونه لها . أما هؤلاء الثلاثة وأضرابهم فقد كان همهم أن يأخذوا من الحياة وليس الذي يأخذ كالذي يعطي ، وهم في انتهاب اللذات أو الانصراف عنها إلى غيرها يتجاهلون سر التكوين ، وكل أمة تنصرف عن معرفة سر تكوينها لا يختلف وجودها عن الزبد الذي يقذف به التيار إلى أثباج البحر فتبتلعه أمواجه .

في غمرة هذا العامل وغيره من العوامل التي ذكرنا وما سنذكر لحب الطريق لانتصار الموالي فتدهورت الخلافة العباسية : وصارت ريشة في مهب ريح نكباء .

كان أبو العتاهية مولى لبني عنزة . انحدر من أصل فارسي ، وتطورت به الحياة ، حتى صار شاعر البلاط ، ثم توالت عليه التهم ، فأفلت من يد حمدويه صاحب الزنادقة بهروبه من الشعر واتخاذه الحجامة مهنة له كما أفلت أبو نواس بهزله ونكاته ومدحه واستعطافه وإظهار توبته .

مات أبو العتاهية في اليوم الثامن من شهر جمادى الأولى أو الثانية لسنة ٢١٠ أو ٢١١ هـ .

الفصل السابع

تطور حركة الموالى واتساع سلطانهم وانهيار البلاد

أسفار — مرداويج — البويهيون

كان للأقلام والآراء التى بثها الموالى فى أرجاء الدولة أثر عظيم أنهك جسمها فاستسلمت إلى الدعة والراحة ، وسدرت فى اللهو ومات فيها كل طموح ، وكان من وراء ذلك أن خارت قوى جيوشها وضعفت ثغورها ، فطمع فيها كل طامع ، ونبتت قرون الفتن فى أماكن عديدة ، وتطلع قواد الموالى إلى إعادة عروش آبائهم تارة أخرى . وكان من أشدهم بأساً أسفار الذى دوخ الدولة العباسية ردحاً من الزمن . وكان لأسفار هذا قائد قوى الشكيمة اسمه مرداويج أراد أن ينفرد بالزعامة فشق عصا الطاعة على سيده وألب عليه قواد جيشه ، وفى عاصفة هذا العصيان قتل أسفار فخلا الجو لمرداويج الذى تزعم حركة الموالى العسكرية وزحف بجيشه وتم له الاستيلاء على الرى وطبرستان وبلاد الجبل عام ٣١٩ هـ ، ٩٣١ م ثم طلب من الخليفة المقتدر أن يعترف له فى هذه البلاد فأقطعه إياها على مائة ألف درهم فى كل عام . ولكن مرداويج رجل طامح لم يتركه طموحه أن يقف عند هذا الحد بل دفعه إلى التفكير فى استئصال شأفة العرب ليعيد دولة الأكاسرة . ولذلك أخذ يقلد ملوك الفرس الأقدمين بمظاهرهم ، فلبس التاج المرصع بالجوهر والياقوت ، وصنع له عرشاً من الذهب ، ومجلساً مفضضاً مغطى بالسجاد الموشى ، وصفف حوله الكراسى المذهبة ليجلس عليها عظماء المملكة ، وفكر

فى فتح بغداد وتجديد الإيوان ، وإرجاعه إلى سالف عهده ، وكان يرجو أن يجعل بغداد عاصمة ملكه منها يحكم العالم جميعه ، ولكن خاب ظنه .

كان هذا القائد قاسياً جباراً ينظر إلى الناس نظر من لم يدخل الإيمان قلبه ، فاستبد بهم ، وعامل الرجال والنساء معاملة العبيد . وعرض أهل همدان على السيف كأنهم كفار . فأثر ذلك تأثيراً سيئاً فى الناس فتظاهر الإيرانيون أمام قصر الخليفة وقالوا : لماذا نؤدى ضريبة إلى بيت المال إذا لم تحفظ الدولة المسلمين من عوادى الظالمين .

وذهب وفد من العلماء إلى قائده فى دينور يحملون القرآن ، فلما وضعه إمامهم بين يديه وسألوه أن يتق الله ويرفع السيف عن رقاب المسلمين ، غضب وأخذته العزة بالإثم فتناول القرآن وضرب به وجه الإمام وأمر أحد جنوده أن يذبحه ففعل .

وكان لمرداويج هذا ما يقرب من ٥٠٠٠٠ جندى من الديلم ، ٤٠٠٠ جندى من الترك وكان يقسو أيضا على جنده فلما اشتط يوما من الأيام على جند الترك غضبوا عليه وحفظوها له حتى حانت فرصة فقتلوه وذبحوه فى عام ٣٢٣ هـ ، ٩٣٥ م[١] غير أن ما أخطأه قصد مرداويج أصاب بعضه بنو بويه[٢] .

البويهيون

بعث سلطان هذه الأسرة ثلاثة أخوة : هم على والحسن وأحمد أولاد بويه . جاءوا إلى مرداويج فأكرم مثواهم ، وخلع على الحسن وعلى ، ثم ولى عليا بلاد الكرج فلما سار إلى عمله ندم مرداويج على فعلته فأراد أن ينقض عهده ، فحالت دون ذلك الصداقة التى توثقت عراها بين على والعميد (وزير مرداويج) حيث أعلم علياً ما ينويه له صاحبه . فأسرع

(١) راجع metz ٧١ — ١٦ (٢) راجع دائرة المعارف الإسلامية جـ ٣ ص ٢٩٧

إلى بلاد الكرج فقال الوزير لمرداويج . إن الأمر جاء متأخراً . وخير لنا أن ندعه يبدأ عمله حتى لا يتغير علينا ويشق عصا الطاعة ، وهكذا تمت الحيلة على مرداويج وبدأ نجم بنى بويه يظهر فى الأفق ثم اتسعت الشقة بين الإثنين وتأهب كل منهما لقتال خصمه ، وسار مرداويج وأخوه وشمكير على رأس جيش قوى لمقاتلة خصميهما وكاد التاريخ يكتب صفحة جديدة لولا مؤامرة الأتراك التى خر فيها مرداويج صريعاً .

صفا الجو لآل بويه بعد هذا وشرعوا يضعون الخطط لامتداد السلطان وحدثت عليا نفسه أن يستولى على بغداد ثم على العراق عامة لما عرفه من ضعف سلطان الخليفة والتفكك والانحلال فى قوى الشعب ، ثم صمم على الأمر وجهز أخاه الأصغر أحمد بن بويه بجيش قوى فسار أحمد يقصد بغداد ومر بواسط ففتحها ثم كاتبه قواد بغداد فتقدم إليها ووصلها فى اليوم الحادى عشر من جمادى الأولى سنة ٣٣٤ ﻫ والخليفة فيها يومئذ المستكفى بالله . فرحب به الخليفة وبايعه أحمد وحلف كل لصاحبه هذا بالخلافة وذاك بالسلطنة ، بل سماه الخليفة أمير الأمراء ولقبه بلقب معز الدولة فكان هذا اليوم يوم تحول تاريخ الخلافة العربية والسلطة بل يوم الفصل فى مصير الأمة . فقد تمكن بنو بويه من صولجان الحكم وطفقوا يلعبون بالخلفاء لعب الأطفال بالدمية يعينون هذا ويعزلون ذاك واستمر سلطانهم على العراق وإيران مدة غير قليلة نابت البلاد منهم نوائب كان لها أثر عظيم فى كيانها ومستقبلها . ولعل هذه المقتطفات من تاريخ ابن مسكوية والرذراورى وغيرهما تعطيك صورة مصغرة مما آلت إليه الحالة أيام الحكم البويهى وما هو مركز الخلافة فى بغداد أيام بنى بويه .

أمير الأمراء معز الدولة

أحمد بن بويه

توطدت له أكناف المملكة وصار حاكما بأمره وأجرى له الخليفة مراسيم الاحترام جميعها غير أنه اشتط في حكمه ونقض عهده ولم يمهل الخليفة أياما معدودات . فأرسل إليه رجلين من أعوانه في شهر جمادى الآخر من عام ٣٣٤ فلما دخلا عليه علا صوتهما برطانة أعجمية ظن الخليفة أنهما يريدان تقبيل يديه فمدهما فجذباه وطرحاه أرضا ووضعا عمامته في عنقه وجراه إليهما فاضطرب المجلس وشاعت الفوضى . وساق الديلمان الخليفة المستكفي بالله ماشياً إلى دار أمير الأمراء معز الدولة ، فاعتقل فيها ونهبت داره ولم يبق فيها شيء . وجاء في دائرة المعارف الإسلامية أن معز الدولة سمل عيني هذا الخليفة وبايع بالخلافة واحداً من أولاد المقتدر وهو أبو القاسم الفضل وسماه المطيع [1] .

ويحدثنا ابن مسكويه أن الديلم شغبوا في هذا العام على معز الدولة شغبا قبيحا وكاشفوه بالأسماع « وخرقوا عليه بالسفه الكثير » فضمن اطلاق أموالهم في مدة ضربها لهم ، فاضطر إلى ضبط الناس ، واستخراج الأموال من غير وجوهها ، فأقطع قواده وخواصه ، وأتراكه ، ضياع السلطان وضياع بني شيرزاد ، وحق بيت المال في ضياع الرعية . و . . . . وصار أكثر السواد مغلقا وزالت أيدي العمال عنه وبقي اليسير منه من المحاول فضمن ، واستغني عن أكثر الدواوين فبطلت وبطلت أزمتها وجمعت الأعمال كلها في ديوان واحد [2] .

---

(١) تجارب الأمم ج ٢ ص ٨٦ وما بعدها . راجع دائرة المعارف الإسلامية . المقريزي ج ٤ ص ١٨١ .

(٢) تجارب الأمم ج ٢ ص ٦٦

ومن ذلك أيضا أنه أقطع أكثر أعمال السواد على حال خرابه ونقصان ارتفاعه وقبل عودته إلى عمارته . وساعده على عمله هذا وزراؤه فسامحوا المقطعين وقبلوا منهم الرشا ، وأخذوا المصانعات فى البعض ، وقبلوا الشفاعات فى البعض ، فحصلت الاقطاعات لهم بعبر متفاوتة فلما أتت السنون وعمرت النواحى وزاد الارتفاع فى بعضها بزيادة الغلات ونقص بعضها بانحطاط الأسعار وذلك أن الوقت الذى أقطع فيه الجند الاقطاعات كان السعر مفرط الغلاء للقحط الذى ذكرناه فتمسك الرابحون بما حصل فى أيديهم من اقطاعاتهم ولم يمكن الاستقصاء عليهم فى العبرة . ورد الخاسرون أقطاعاتهم فعوضوا عنها وتممت لهم نقائصها ، واتسع الخرق حتى صار الرسم جاريا بأن يخرب الجند أقطاعاتهم ثم يردوها ، ويعتاضوا عنها من حيث يختارون ويتوصلون إلى حصول الفضل والفوز بالربح ، وقلدت الاقطاعات المرتجعة من كان غرضه تناول ما يجده فيها ورفع الحساب ببعضه وترك الشروع فى عمارتها ، ثم صار المقطعون يعودون إلى تلك الاقطاعات ، وقد اختلط بعضها ببعض فيستقطعونها بالموجود بعد تناهيها فى الاضمحلال والانحطاط . وكانت الأصول تذوب على مر السنين ودرست العبر القديمة وفسدت المشارب ، وبطلت المصالح ، وأتت الجوائح على الفناء ، ورقت أحوالهم فمن بين هارب جال وبين مظلوم صابر لا ينصف ، وبين مستريح إلى تسليم ضيعته إلى المقطع ليأمن شره ويوافقه . فبطلت العمارات وأغلقت الدواوين وأمحى أثر الكتابة والعمالة ومات من كان يحسنها ونشأ قوم لا يعرفونها ومتى تولى أحدهم شيئاً كان فيه دخيلا متجلفا . واقتصر المقطعون على تدبير نواحيهم بغلمانهم ووكلائهم فلا يضبطون ما يجرى على أيديهم ولا يهتدون إلى وجه تثمير ومصلحة ، ويقطعون أموالهم بضروب الإفساد . واعتاض أصحابهم مما يذهب من أموالهم بمصادرتهم . وبالحيف على معامليهم وانصرف عمال المصالح عنها لخروج الأعمال عن يد السلطان

(الخليفة) ووقع الاقتصار فى عملها على أن يقدر ما يحتاج إليه ، ويقسط على المتطمين تقسيطات يتقاعدون بها وبأدائها ، وان أدوها وقعت الخيانة فيها فلم تنصرف إلى وجوهها وقل حفل الناظرين بالحوادث تعويلا على أخذ ما صفا وترك ما كدر والرجوع على السلطان بالمطالبة ورد ماتخرب على أيديهم من الاقطاعات ، وفوض تدبير كل ناحية إلى بعض الوجوه من خواص الديلم ، فاتخذه سكنا وطعمة والتحف عليهم المتصرفون الخونة وصار غرض أحدهم الترجية والتمشية والدفع من سنة إلى سنة وعقدت النواحى الخارجة عن الاقطاعات على طبقتين من الناس أحدهما أكابر القواد والجند ، والأخرى أصحاب الداريع والمتصرفون ، فأما القواد فإنهم حرصوا على جمع الأموال وحيازة الأرباح ودعوى المظالم والتماس الحطائط ، فإن استقصى عليهم صاروا أعداءهم ، ولما كثرت أموالهم وانفتقت بهم الفتوق خرج منهم الخوارج ، وإن سوحوا استشرى طمعهم ولم يقفوا منه عند غاية .

أما أصحاب الداريع فكانوا أهدى من الجند إلى تغريم السلطان والحيلة عليه فى كسب الأموال ونظر بعضهم إلى بعض فيما تجرى عليه معاملاتهم وبذلوا المرافق واعتصموا بالوسائل ووجب أن يجمع الناس حكم واحد . وتوالت السنون عليهم فتفردوا بنواحيهم وخلو بعامليهم فمن مستضعف يصادر ويغير رسمه وتنقص معاملته على قدر حاله وماله ، ومن مانع جانبه فيخفف عنه الرسوم ويرتفق على ذلك منه بالأموال ويتخذه الضامن عضداً فى شدائده وعند مناظرة سلطانه ، ويصطلم المستضعفين ، فبطل أن ترفع إلى الدواوين جماعة ، أو تعمل لعمل مؤامرة ، أو يسمع لأحد ظلامة ، أو يقبل من كاتب نصيحة ، واقتصد فى محاسبة الضعفاء على ذكر أصول العقد وما صح منه وما بقى من غير تفتيش عما عوملت به الرعية وأجريت عليه أحوالها من جور أو نصفة

من غير أشراف على احتراس من الخراب أو خراب يعاد إلى العمارة ، وجبايات تحدث على غير رسم ، ومصادرات ترفع على محض الظلم ، واضافات إلى الارتفاعات ليست بعبرة وحسبانات فى النفقات لا حقيقة لشيء منها ، ومتى تكلم كاتب من الكتاب فى شيء من ذلك وكان ذا حال ضمن ونكب واجتيح وقتل وباعه السلطان بالتطفيف ، وإن كان ذا فاقة وخلة أرضى باليسير فانقلب وصار عونا للخصم ولم يكن بذلك يلوم لأن سلطانه لا يحميه إذا خاف ولا ينصره إذا قال .

فهذه جملة الحال فى ضياع الدخل . فأما الخراج ، فإن النفقات تضاعفت وسوق الدواوين أزيلت . والأزمة بطلت إلى غير ذلك من أمور يتسع فيها القول ويقتضى بعضها سياقة بعض فاقتصرنا على الاشارة .

ثم ركب معز الدولة الهوى فى أمور غلمانه فتوسع فى اقتطاعاتهم وزياداتهم ، وأسرف فى تمويلهم ، فتعذر عليه أن يدخر ذخيرة لنوائبه أو أن يستفضل شيئا من ارتفاع ولم تزل مؤنته تزيد وموارده تنقص حتى حصل عليه عجز لم يكن واقفا على حد منه ، بل يتضاعف تضاعفا متفاقماً وأدى ذلك على مر السنين إلى الاخلال بالديلم فيما يستحقون من أموالهم . وداخلتهم المنافسة للأتراك من أجل حسن أحوالهم . وقادت الضرورة إلى ارتباط الأتراك وزيادة تقريبهم والاستظهار بهم على الديلم ، وبحسب انصراف العناية إلى هؤلاء ووقوع التقصير فى أمور أولئك فسدت النيات وفسد الفريقان ، أما الأتراك فبالطمع والضراوة ، وأما الديلم فبالضر والمسكنة واشرأبوا إلى الفتن وصارت هذه المعاملة لقاحا وسبباً لوقوع ما وقع فيها مما سنذكر جملا منه فى موضعها إنشاء الله [١] .

---

(١) تجارب الأمم ص ١٠٠ .

هذه جملة الحال آثرت نقلها وعرضها لأننى وجدت أى تلخيص أو إيجاز يخل إخلالا بينا فى إعطاء هذه الصورة الواضحة المبينة للحال التى كان عليها الزمن أيام معز الدولة الذى نقض العهد وملك زمام السلطان بيده .

ولقد كان هذا المعز قويا خشنا قاسيا وثب على الخليفة ولم يرع إلا ولا ذمة وكان إلى جانب ذلك ضعيفا جزوعا إذا اشتد عليه المرض بكى وندب على نفسه ، وكان سريع الغضب ،بذىء اللسان يشتم وجوه الناس ويسب وزراءه إذا أخذه الغضب، وقد أمر أن يكتب على مساجد بغداد سنة إحدى وخمسين وثلثمائة ما يسب به صحابة رسول الله وكان الناس يحكونها إذا جن الليل[1] وفى سنة اثنتين وخمسين وثلثمائة عاشر المحرم أمر أن تغلق الأسواق ويقف القصابون عن الذبح ولا يطبخ الطباخون وأن يظهر الناس خارج المدينة وأن يخرج النساء منشورات الشعور مسودات الوجوه قد شققن ثيابهن يدرن بالبلد بالنوائح . وفى اليوم الثامن عشر من ذى الحجة فى هذا العام نفسه أمر معز الدولة أن يعم السرور باظهار الزينة وأن تضرب الخيام وتعلق السجاجيد وتعرض الأشياء الثمينة ويلعب بالطبول والأبواق وأن تشعل النيران فى مقر صاحب الشرطة وقد ذبحت الذبائح فى الصباح الباكر وذهبت الوفود تزور مقبرة قريش .

بختيار «عز الدولة»
وما آلت إليه الحالة فى أيامه

كان وزراء هذا الأمير همة أحدهم فى تناول شهواته والوصول إلى لذاته ، أما الأمير فقد كان متشاغلا بالصيد واللهو عن جميع مهام

(١) المقريزى ج ٤ ص ١٨١

المملكة فخرج إليه أهل بغداد وهو بالكوفة وأنكروا عليه اشتغاله عن مصالح المسلمين[١] .

وأما الخليفة فقد أصبح لا حول له ولا قوة كما يتبين من الرسائل بينه وبين عز الدولة حين كتب إليه الخليفة يطلب منه مالاً يقوم به فى الغزو فأجابه الخليفة المطيع لله : إن الغزو يلزمنى إذا كانت الدنيا فى يدى وإلى تدبير الأموال والرجال ، وأما الآن وليس لى منها إلا القوت القاصر عن كفائى ، وهو فى أيديكم ، وأيدى أصحاب الأطراف ، فما يلزمنى غزو ولا حج ، ولا شىء مما تنظر الأئمة فيه وإنما لكم منى هذا الاسم الذى يخطب به على منابركم تسكنون به رعاياكم ، فإن أحببتم أن أعتزل اعتزلت عن هذا المقدار وتركتكم والأمر كله .

وتعددت المراسلات والمخاطبات حتى خرجت إلى طرف من أطراف الوعيد واضطر إلى التزام أربعمائة ألف درهم باع بها ثيابه ، وبعض أنقاض داره وشاع الخبر ببغداد بين الخاص والعام وأبناء الأقطار أن الخليفة صودر ، وكثرت الشائعات[٢] .

وزاد صاحب تاريخ الإسلام[٣] أنهم شددوا على المطيع لله حتى باع قماشه وحمل أربعمائة ألف درهم إلى بختيار ، فأنفقها هذا فى أغراضه وأهمل الغزو ، وشاع فى الألسنة أن الخليفة صودر كما شاع قبله أن القاهر بالله كدى يوم جمعة فانظر إلى تقلبات الدهر .

وعول أبو الفضل « وزير بختيار » فيما يحتاج إليه من مال الجند والاقامات التى تلزم للأتباع والحاشية على مصادرات الرعية والتجار والتأويل عليهم بالمحال ، وابتدأ بأهل الذمة ، ثم ترقى إلى أهل الملة ، فأخذ

---

(١) تجارب ج ٢ ص ٣٠٢ ، ٣٠٤

(٢) تجارب ج ٢ ص ٣٠٧

(٣) هامش هذا الجزء نفسه ص ٣٠٨

أموال الشهود ووجوه البلد من أهل الثراء وبث السعاة والغمازين وسماهم العيال ، وأجرى عليهم الأرزاق وكثر الدعاء عليه فى المساجد الجامعة وفى الكنائس والبيع وفى المحافل والمجالس ، وزادت العامة على ما ذكرت من حالها فى الاغارة والإقدام على النهب والحرق وأسرفت فى ذلك حتى بطلت الأسواق وانقطعت المعائش وتعذر على أكثر الناس الوصول إلى ماء دجلة حتى شربوا ماء الآبار . وحصلوا فى شبه حصار ، ورام الوزير تسكينهم فتعذر عليه حتى أركب إليهم طائفة من الجيش فواقعوهم وكسروهم ، ونقصت الهيبة أكثر مما كانت عليه وركب أبو الفضل بنفسه لقتال العيارين وواقعهم فلم يقدر عليهم .

اعتل المطيع بالفالج فدعاه سبكتكين وطلب إليه تسليم الأمر إلى ولده الطائع لله وبرىء من الخلافة ، وخلعها وأشهد على نفسه فى يوم الأربعاء لثلاث عشرة خلت من ذى القعدة من سنة ثلثمائة وثلاث وستين (١)

عضد الدولة

وأطماع البويهيين فى الخلافة

تمكن عضد الدولة من أخذ زمام الملك بيده بعد الخلاف الطويل الذى نشأ بين أفراد أسرة بنى بويه وبعد ذلك الفساد الذى عم المملكة ، وتوحدت أطراف الملك تحت صولجانه وتحرك فيه طموحه إلى أفق أوسع إذ أصبح يفكر فى ضم لقب الخلافة إلى لقب الإمارة . فدبر أن يقع بينه وبين الطائع لله وصلة بابنته الكبرى ففعل ذلك وعقد العقد ، بحضور هذا الخليفة وبمشهد من أعيان الدولة والقضاة على صداق قدره مائة ألف دينار ، وبنى الأمر فيه أن يرزق ولداً ذكراً منها فيولى العهد وتصير

(١) تجارب ج ٢ ص ٣٢٨

الخلافة فى بيت بنى بويه ويصير الملك والخلافة مشتملين على الدولة الديلمية[١] . ولكنه قدر فضحكت من تقديره الأقدار وتطورت أمور الدولة وأحوالها إلى ما سنذكره .

بهاء الدولة

وخلع الطائع لله

مشى بهاء الدولة بين جماعة من خواصه إلى الطائع لله فلما وصل إليه وجده جالسا فى الرواق متقلداً سيفه ولما قرب منه قبل الأرض بين يديه وجلس على كرسى . ثم تقدم أصحابه فجذبوا الخليفة بحمائل سيفه من سريره وتكاثر عليه الديلم فلفوه فى كساء وحمل وأصعد إلى دار المملكة فاضطرب حبل الأمن وقدر أكثر الجند أن القبض على بهاء الدولة ، فوقعوا فى النهب وشلح من حضر من الأشراف والعدول و . . .

ولما أنصرف بهاء الدولة إلى داره أظهر أمر الخليفة القادر بالله أبى العباس أحمد بن اسحق بن المقتدر بالله ، ونادى بشعاره فى البلد وكتب على الطائع كتابا بالخلع وسلم الأمر إلى القادر بالله وشهد الشهود فيه عليه ، وكانت خلافة الطائع سبع عشرة سنة وثمانية أشهر وخمسة أيام ، وانحدر إلى حضرة القادر بالله من خواص بهاء الدولة من يهنئه بالخلافة ويصعد فى خدمته إلى مدينة السلام . وشغب الديلم والأتراك ، يطالبون برسم البيعة وبرزوا إلى ظاهر بغداد وترددت الرسل منهم إلى بهاء الدولة ومنعوا من الخطبة للقادر ثم أرضوهم فسكتوا . وحول من دار الخلافة جميع ما فيها حتى الخشب الساج والرخام ثم أبيحت للخاصة والعامة . فقلعت

---

(١) تجارب ج ٢ ص ٤١٤ .

شبابيكها[١] وكانت نهاية الطائع أن حمل إلى القادر فأكرم مثواه وبقى عنده حتى مات . ويقول الرذراورى فأما شرح ما جرت عليه الحال يوم القبض على الطائع فلم نذكره ، إذ لا سياسة فيه فتحكى ولا فضيلة فتروى إلا أبياتا للرضى أبى الحسن الموسوى رحمه الله ، فإنه كان فى جملة من حضر ، فلما أحس بالفتنة أخذ بالحزم وبادر بالخروج من الدار ، وتلوم من تلوم من الأماثل وسلبت ثيابهم وسلم هو فقال :

أعجب لمسكة نفسى بعد ما رميت ... من النوائب بالابكار والعون
ومن نجاتى يوم الدار حين هوى ... غيرى ولم أخل من حزم ينجينى
مرقت منها مروق النجم منكدراً ... وقد تلاقت مصاريع الردى دونى
وكنت أول طلاع ثنيتها ... ومن ورائى شر غير مأمون
من بعد ما كان رب الملك مبتسما ... إلى أدنيه فى النجوى ويدنينى
أمسيت أرحم من أصبحت أغبطه ... لقد تقارب بين العز والهون
ومنظر كان بالسراء يضحكنى ... يا قرب ما عاد بالضراء يبكينى
هيهات أغتر بالسلطان ثانية ... قد ضل ولاج أبواب السلاطين

انهيار بغداد

فى وسط هذه الفوضى وفى هذه الاستهانة بالتقاليد والنظم والشرائع عما بعثته هذه الأسرة ، أخذ نجم عاصمة الخلافة يجنح إلى الأفول وصوح زهر العراق الاقتصادى وتبدلت خضرته الزاهية إلى قاع بلقع ورمال سافية وتحولت أنهار الوادى التى كانت تتدفق بالخير والبركة وتمتد امتداد الشرايين فى جسم الشباب الحى إلى أودية غائرة وعيون مطموسة فأقفرت الجيوب وشاع الفقر وتفككت عرى الأخلاق وفشت الجرائم وتمزقت

---

(١) الرذراورى ج ٣ ص ٢٠١ — ٢٠٣

أوصال الأمة فى وحدتها الروحية وشاع الانشقاق فى الصفوف بما فشا من مذاهب الاعتزال بالعراق وخراسان وما وراء النهر ، وقويت دعوة الباطنية بأفريقية وبلاد المغرب ، وبثو دعاتهم بأرض مصر ، فاستجاب لهم خلق كبير ، ثم ملكوها سنة ثمان وخمسين وثلثمائة ، وبعثوا بعساكرهم إلى الشام ، فانتشرت الفرق فى عامة بلاد المغرب ومصر والشام وديار بكر والكوفة والبصرة وجميع العراق وبلاد خراسان وما وراء النهر مع بلاد الحجاز واليمن والبحرين ، وتطاحنت هذه الفرق طحان الرحى ، وكان أشهر هذه الفرق القدرية والمعتزلة والكرامية والقرامطة والباطنية[١] .

ويقول ابن مسكويه : إن سبب انهيار بغداد يعود إلى العصبية وهو أن حزبين كانا يتنازعان السلطان ، بختيار والديلم من جهة وسبكتكين والأتراك من جهة أخرى ، وكل من الفريقين ينتمى إلى مذهب من المذاهب الإسلامية فأدى ذلك إلى صراع كانت نتيجته انهيار عاصمة الخلافة .

هكذا كانت نتيجة ذلك الصراع العنيف التى أوضحنا بواعثه وأشرنا إلى عناصره وبينا مراميه وغاياته . مما كان له بالغ الأثر على هذا الشرق الأوسط فى حضارته وسلطانه .

أصبحت الأمة مثخنة الجراح تنوء بالبدع والفتن والإحن ، وقد تناثرت أطراف تلك الإمبراطورية المترامية تتناهبها الآراء والمؤامرات ويعلو فى آفاقها الشغب وهى تميل إلى الانهيار ركناً بعد ركن تفتك فيها تلك العلل التى أنتجتها تعبئة الموالى فى حركاتهم فيما فصلنا فيه البحث قبلا فقد كانت هذه العلل كمثل دودة الخشب تأكل فى مجتمع هذه الأمة وتنخر فيه ، تنتقل من منطقة إلى أخرى كلما ساعدتها الطبيعة وهيأت لها رطوبة تعبث فى دائرتها .

---

(١) المقريزى ص ١٨٠ — ١٨١

وفى هذه الفترة المضطربة من أيام الخلافة نبطت فى ما وراء النهر قوة جديدة فى قبيلة من قبائل الترك تدعى السلاجقة ، قوى شأنها حين تولى زعامتها طغرل بك الذى التحم بالغزنويين واستولى على بلادهم وكتب بذلك إلى الخليفة القائم بأمر الله طالباً منه أن يقره على ما فعل ويأذن له بالحكم فيما استولى عليه فأجابه الخليفة إلى ما طلب .

نظر الخليفة إلى ما وصلت إليه البلاد من سوء التدبير والتعمير وشهد الفوضى تنتشر والأمن يضطرب والسيد البويهى فيروز خسرو الملقب بالملك الرحيم قد أثقلت كاهله هذه الفوضى المنتشرة فى جميع نواحى الحياة ، وصار لا ينهض بها ولا يقدر على تدبيرها ، حتى أخذ مماليكه من الأتراك يضطهدونه ويضطهدون الخليفة ، فخف طغرل بجيشه ودخل بغداد عام ٤٤٧ هـ ١٠٥٥ م وألقى القبض على الملك الرحيم آخر البويهيين الذين تعاقب منهم على السلطان فى بغداد اثنا عشر رجلا بين ملقب بملك وملقب بسلطان وبذلك انتهت سلطتهم وبدأت سلطة جديدة سلطة السلاجقة . وعلى الرغم من دخول هذه القوة الجديدة فى جسم الخلافة فإنها ظلت فى بدئها ضعيفة لا تقوى على رد عادية ، فالفاطميون[(١)] فى مصر وشمال أفريقية أعلنوا خلافتهم وصار يخطب بأسمائهم على المنابر فى بغداد ومكة والمدينة وأطراف البلاد ، وكادوا يستولون على العراق . فلما اشتد ساعد السلاجقة أعادوا بعضاً من عزة الخلافة وشرع الخطباء يذكرون اسم الخليفة العباسى على منابر بغداد ، واسترجعوا بلاد الشام من الدولة الفاطمية وطفق سلطان الخلافة يمتد رويداً رويداً حتى وصل مكة والمدينة وبلاد المغرب والأندلس .

ومع ذلك ظلت هذه الفئة التركية الحاكمة تتأرجح بين القوة والضعف والخلافة يهددها الصليبيون الذين ثبتت أقدامهم فى الشام ،

---

(١) انظر ص ٥٧ .

والذين لم يستطع الخليفة دفع عاديتهم ، والموالى الباطنيون المعروفون بالحشاشين ينخرون فى جسم الدولة يغيرون على أطرافها ويستولون على المدن والقلاع إلى أن استيقظت الخلافة العباسية من غفوتها فاستطاع المقتفى لأمر الله أن يستقل بالأمر دونهم ، ثم أتم نعمة الاستقلال من بعده الخليفة الناصر لدين الله حيث قضى على سلطانهم عام ٥٩٠ تماماً جلس هذا الخليفة اليقظ على كرسى الخلافة عام ٥٧٥ فشرع يدبر الملك تدبير الحكيم وأعاد للخلافة مكانتها وهيبتها ، ولما اشتد ساعده شرع يساعد صلاح الدين الأيوبى فى حربه مع الصليبيين وخفف الباطنيون من غلوائهم استجابة لدعوته ، وجددوا على يديه إسلامهم ، وكادت أيام العباسيين الأولى تعود ، لولا أن عين الدهر التى لا تريد لهم ذلك لم تنم فبعثت للعالم الإسلامى مصيبة من مصائب الأيام بنشوء دولة للتتار فى أواسط آسيا بقيادة رئيسهم جنكيز خان وأخذوا يزحفون نحو الغرب لغزو البلاد الإسلامية .

وبعد موت الناصر أخذت الخلافة تتأرجح بين القوة والضعف تارة أخرى نتيجة تغلب الموالى والمماليك على سياسة البلاط ، حتى ولى المستعصم أمور الدولة ، فازدادت البلاد اضطراباً وكثرت الفتن وماجت بغداد بالمشعوذين ، ونبطت رءوس الناقمين من الموالى ، وقلت موارد الدولة ، وصرف المستعصم جنده لقلة الموارد واقتصاداً بالنفقات .

فى هذه المحنة التى كانت تضمر بغداد كان المغول يجمعون جيوشهم ويتأهبون للاستيلاء على البلاد الإسلامية وعلى عاصمة الخلافة وهكذا سار هولاكو بجيش لجب لا يبقى ولا يذر ، وقد محى فى طريقه جماعة الباطنيين الاسماعليين الذين أتعبوا الدولة العباسية ، وانهكوا قواها ، وتقدم إلى بغداد لتصفية حساب عقيدة التوحيد ، وأرسل إلى الخليفة يطلب منه الطاعة فأبى أكثر الناس ، عند ذلك صمم هولاكو أن يفتحها عنوة

فحاصرها وشدد الحصار عليها ، وجعلت عاصمة العروبة والإسلام تحتضر فخرج المولى مؤيد الدين محمد بن العلقمى وزير بلاط المستعصم بعد حصار بدأ فى اليوم الثانى عشر من شهر محرم الحرام وانتهى فى اليوم الثامن والعشرين منه لعام ٦٥٦ هـ ١٢٥٨ م وسلم مفاتيح الأبواب لأيد المغول فانحدروا إليها من كل حدب وصوب وأخذت أيديهم تفتك قتلا ونهباً وإحراقاً وقتلوا الخليفة ، واستأصلوا أهل بيته إلا ولده الصغير واعملوا السيف فى أبناء العباسيين لا يستثنون امرأة ولا طفلا ولا شيخاً كبيراً .

هكذا تلاشت بغداد العالم وراء الأفق ، وأسدل الستار على قوة الدنيا والدين .

كادت تنتهى القضية العربية عند هذا الحد لولا أن المملوك الظاهر بيبرس (١٢٦٠ — ٧٧) علق فى ذهنه أنه لا يقوى على حمل أعباء الحكم فى هذه الموجة المضطربة من الزمان إلا إذا استعان بسلطة روحية تعينه على تثبيت ملكه ، فدعا أبا القاسم كبير العباسيين الذين قدروا على الإفلات من يد التاتار ، فأقامه خليفة له السلطة الروحية وللظاهر بيبرس السلطة الزمنية . واستمر الخلفاء العباسيون يتمتعون بهذا المظهر حتى فتح السلطان سليم العثمانى بلاد الشام وتوجه إلى مصر وغلب المماليك ودخل القاهرة فاتحاً عام ١٥١٧ . وعاد إلى الأستانة ومعه المتوكل آخر خليفة عباسى حيث نزل لسليم عن حق الخلافة كما يزعمون ومنذ ذلك اليوم أخذ آل عثمان يلقبون بالخلفاء ومع أنهم لم يكونوا من قريش فقد أطاعهم العالم الإسلامى الذى أنهكته فتن الأعاجم وحروب الصليبيين ، وبذلك أسدل آخر ستار على القضية العربية وبدأ تاريخ جديد للعالم الإسلامى لم يكن للعرب اليد الأولى فيه كما كانوا قبلا قادة الأمة وحماة العقيدة .

الفصل الثامن

المحاولة العربية

في هذه الحياة المنتشرة والتدخل الأجنبي المتغلغل في البلاد ، والاستئثار بالسلطان من قبل غير أهله ، كانت تظهر في الفينة بعد الفينة حركات عربية تحاول إرجاع الحالة السابقة ولكن ذلك لم يجد نفعاً . فقد كان في شمال العراق في القرن الرابع الهجري والقرن العاشر الميلادي حكومة للحمدانيين في الموصل وفي حلب ، وكان بلاط سيف الدولة يومئذ مجمع العلماء ومجلس الأدباء والشعراء لا يماثله في ازدهار العلم إلا بلاط الرشيد أيام ازدهار ملكه . غير أن الظروف لم تسمح لهذا الأمير العربي أن يمد سلطانه ويقضي على هذا التغلغل الأجنبي الذي بعثته حركات الموالي . فقد كان يحمي ثغوره من هجمات الروم وكانت الحرب بينه وبينهم سجالا ، وطالما أوقع بهم وفرق صفوفهم وقد خلده المتنبي بقصائد لا تزال اللآلىء في عقد الأدب العربي .

كان المتنبي يحرض القوم ويستحث أمثال هذا الأمير على إعادة المجد العربي فهو يرى أن أقاليم الخلافة قد مزقت أوصالها تلك المؤامرات وانفصل بعضها عن بعض وتولى أمورها ملوك تنزل بهم صفاتهم عن مصاف الملوك .

وإنما الناس بالملوك وما تفلح عرب ملوكها عجم
لا أدب عندهم ولا حسب ولا عهود لهم ولا ذمم
بكل أرض وطئتها أمم ترعى بعبد كأنها غنم

وفي الفرات الأوسط من سهول الرافدين قامت دولة المزيديين ،

وكادت تستولى على جميع العراق ، اتخذت مدينة الحلة عاصمة لها وتقلب رئيس الأسرة ملك العرب ، ولو قدر النجاح لهذه الحركة لكان للتاريخ العربى صفحة أخرى غير هذه الصفحة وقد خلد الحريرى فى المقامة التاسعة والثلاثين اسم الأمير سيف الدولة دبيس بن يزيد الأسدى بمدح يدل على شعور الناس بالتحول وملل حكم الغرباء .

استولت هذه الأسرة على واسط وعلى البصرة وامتد حكمها زمنا قصيرا ، ولكن لم تستطع تثبيت قدمها فى أرجاء المملكة .

لقد أدرك العرب أن سر انهيار سلطانهم لم يكن فى الناحية السياسية فحسب . فأخذو يتجهون إلى نواحى أخرى : إلى بعث جديد يعيد التراث القديم الصافى من شوائب البدع التى أدخلها المندسون فى صفوف الإسلام ورءوا فى الرجوع إلى ذلك الصفاء ابتداء عهد جديد يعيد إلى الأمة أمجادها الأولى التى بعثها بطاح مكة والمدينة وفى الرجوع إلى تلك العقيدة الصافية إعادة قوة الأمة وسلطانها الزمنى الذى فقدته فانهارت بغداد وتبعها العالم العربى ، وكان طليعة هؤلاء المفكرين فقيه عربى نابغة هو ابن تيمية .

ابن تيمية وتلامذته

نجح خصوم الإسلام والعرب بما أودعو هذه العقيدة من شوائب البدع والضلالة واستطاع أتباع مزدك والسبأية اليهودية ومن على شاكلتهم من أرباب العقائد الذين دخلوا فى الإسلام للكيد به أن يبثو عقائدهم ، ويدسوا ما يريدون ، وقد ذكرنا آنفا أنهم اتخذوا السياسيين والشعراء والأدباء والعلماء ممن يدين بتلك العقائد والذين انتحلو الإسلام لا للإسلام وإنما لهدمه وسائل لتنفيذ مقاصدهم ، وكان أشد هؤلاء كيداً فرق الباطنية وأتباع قرمط وغيرهم من الفرق المتقاربة مع مبادئهم والتى كانت امتداداً

لحركة أبي مسلم الخراساني والسبأية اليهودية . وظلت معاول هؤلاء الهدامين تعمل حتى انهار هذا الصرح الممرد العظيم ووهنت تلك القوة التي كانت تمد شباب العالم بالمرة والشدة ، وتبعث فيه العدل والاخاء والمساواة ، فسهل على التاتار أن ينحدروا انحدار السيل لا يبقون ولا يذرون ، حتى بلغوا بغداد عاصمة الخلافة وموطن الثقافة والسلطان ، فأتوا عليها وأزالوا حضارتها من الوجود ومزقوا وهدموا وأحرقوا ومثلوا وقد نجا من هذه الكارثة من فر بدينه وبدنه وذل من بقي قتلا وأسراً .

كان أثر الذين حاربوا عقيدة الإسلام بالغاً أشده حتى صارت بدعهم مألوفة تمارس وتدرس بل صارت أصولا تتفرع منها فروع وافتن هؤلاء الهدامون فى بث عقائدهم وتسهيلها على الناس وموافقتها لرغبة كل سامع لها فاستطاعوا أن يجلبوا العامة إليها فكثر بذلك أتباعهم وازداد خطرهم وجعلوا يوجهون الناس للشر ويؤهلونهم للفوضى ومحاربة السلطان .

ويل أمة تفسد أصولها بالبدع الأجنبية عنها ، إنها تمسخ مسخاً دون أن تشعر بالمسخ ، وتهون دون أن تحس بالهوان حتى يقيض الله لها من ينفخ الصور فى أذنها فيبعثها بعثاً جديداً .

وهكذا فقد قيض الله لهذه الأمة عقلا واضح العقيدة قوى الحجة نافذ الرأى فى الفقيه الأديب العربي تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم ابن عبد السلام بن عبد الله ابن محمد ابن تيمية الحرانى العربى .

ولد هذا المصلح فى يوم الإثنين فى العاشر من ربيع الأول عام ٦٦١ هـ الموافق ٢٣ كانون الثانى عام ١٢٦٣ فى أول النصف الثانى من القرن الثالث عشر .

فر أبوه به وبأسرته من حران إلى دمشق خوفا من بربرية التاتار فعكف وهو غلام صغير على دراسة الفقه فحضر على أبيه كما حضر على

كثير من العلماء وأتم دراسته وهو فى سن العشرين واقتعد مكان أبيه بعد وفاته وشرع يفسر للناس القرآن يوم الجمعة من كل أسبوع .

وحج إلى مكة عام ١٢٩٢ وجاء إلى القاهرة عام ١٢٩٩ ثم أخذ يتردد عليها فى الفينة بعد الفينة على حسب ما تقتضيه ظروفه التى تحيط به .

كان ابن تيمية صافى العقيدة واضح الرأى وضوح الصحراء العربية لا تجد فيها دغلا ولا شجراً متأشباً . وكان يصحب هذا الصفاء منطق مستقيم وفلسفة متوشجة بعلل الحوادث وأسبابها أخذها عن فلسفة اليونان والعرب ومزجها بما درسه من أصول التشريع والفقه الإسلامى وزاد على ذلك ما تفرد به فى دراسة القرآن والحديث .

كان يغمر ابن تيمية شعور بالحزن عميق على ما وصلت إليه الأمة من الضلالة والهوان ، وعز عليه أن يرى عقيدة التوحيد تتأرجح بين الشك والوهم بما أصابها وانحدر إليها من مبادىء الباطنية وأفعال القرامطة وآراء مزدك ومانى وابن سبأ ومن لف لفهم من الناقمين على الإيمان .

فإن الإشراق الإلهى الذى كان ركناً ركيناً فى مبادىء الباطنية والذى فيه تشرق المعرفة على الأئمة فتسموا بهم إلى مرتبة لا ينالها غيرهم ، كان سبباً لتأويل الشريعة حسب أهواء هذه الفرقة ووفق ميولها ، وإن تأليه البشر الذى ابتدعته السبأية وثبتته الباطنية قد بعث فرقة الاتحادية بأوسع معانيها فى الوجود ، وحسبنا أن نذكر بعضاً مما فصله ابن تيمية فى رسالته : « الرد الأقوم على ما فى كتاب فصوص الحكم » .

قال ابن تيمية إن ما تضمنه هذا الكتاب وما شاكله من الكلام فإنه كفر باطناً وظاهراً وباطنه أقبح من ظاهره وهذا يسمى مذهب أهل الوحدة وأهل الحلول وأهل الاتحاد وهم يسمون أنفسهم المحققين ، وهؤلاء نوعان : نوع يقول بذلك مطلقاً كما هو صاحب الفصوص ابن عربى وأمثاله مثل ابن سبعين وابن الفارض والقونوى والششترى والتلمسانى

وأمثالهم ممن يقول إن الوجود واحد ، ويقولون إنّ وجود المخلوق هو وجود الخالق ، لا يثبتون موجودين خلق أحدهما الآخر . بل يقولون : الخالق هو المخلوق ، والمخلوق هو الخالق ويقولون إن وجود الأصنام هو وجود الله ، وإن عباد الأصنام ماعبدوا شيئاً إلا الله ، ويقولون إن الخالق يوصف بجميع ما يوصف ، المخلوق من صفات النقص والذم .

ويقولون إن عباد العجل ما عبدوا إلا الله ، وإن موسى أنكر على هرون لكون هرون أنكر عليهم عبادة العجل ، وإن موسى بزعمهم كان من العارفين الذين يرون الحق فى كل شىء ، بل يرونه عين كل شىء ، وإن فرعون كان صادقاً فى قوله : « أنا ربكم الأعلى » بل هو عين الحق ، ونحو ذلك مما يقوله صاحب الفصوص . ويقول أعظم محققيهم : إن القرآن كله شرك لأنه فرق بين الرب والعبد وليس التوحيد إلا فى كلامنا — فقيل له فإذا كان الوجود واحداً فلم كانت الزوجة حلالا والأم حراماً ؟ فقال الكل عندنا واحد ولكن هؤلاء المحجوبون قالوا حرام فقلنا حرام عليكم .

ويستمر بن تيمية فى رده ويقول : « إن التلمسانى كان من أعظمهم كفراً وفسقاً وكان من أعرفهم لهذا المذهب وأخبرهم بحقيقته فأخرجه ذلك إلى الفعل » .

ويقول إنه كان يستحل المحرمات ويصنف للنصيرية كتباً على مذهبهم يقرهم فيها على عقيدته الشركية ، ويقول إن ابن سبعين كان من أئمة هؤلاء وكان له من الكفر والسحر الذى يسمى السيمياء والموافقة للمسيحية والقرامطة والرافضة ما يناسب أصوله .

وهو يشبههم بالجهمية ، ويقول إن هؤلاء من جنس الجهمية الذين يقولون إن الله بذاته حال فى كل مكان ، ولكن أهل وحدة الوجود حققوا هذا المذهب أعظم من تحقيق غيرهم من الجهمية .

وأما النوع الثانى فهو قول من يقول بالحلول والاتحاد فى معين كالحاكمية الذين يقولون بذلك فى الحاكم ، والحلاجية الذين يقولون بذلك فى الحلاج ، واليونسية الذين يقولون بذلك فى يونس ، وأمثال هؤلاء من يقول بألوهية البشر وبالحلول والاتحاد فيه ، ولا نجعل ذلك مطلقاً فى كل شىء ومن هؤلاء من يقول بذلك فى النسوان والمردان أو بعض الملوك وغيرهم ، انتهى ما أخذناه من كلام ابن تيمية .

ويكفى للمرء أن ينظر نظرة عابرة إلى هذه الأمثلة ثم يرجع إلى ما أثبتناه فى فصولنا السابقة ليرى كيف انحدرت هذه المبادىء فى أصلاب الزمن تنتقل فى الأشخاص والنحل وتتطور حتى لبست ثوبها الأخير المهلهل الذى تهلهلت به أخلاق الأمة وتقاليدها فأخذت تسبح فى هذا الفساد المزدكى المتحلل من كل قيد والذى تستر بستار الدين ومعرفة الكشف عن الحقيقة فضل به الجهال الذين يحسنون الظن بأقوال أولئك فتاهوا وطفقوا يمشون فى يهماء من الضلال والغى يرتعون بما تشتهيه لذاتهم وغرائزهم ثم ينسبون ذلك كله إلى وحدة الوجود .

ونشأ عن هذا النوع من التأليه تقديس البشر والأحجار ونصب الأصنام وعبادة النقوش فقد نقشت على الصخور آثار قدم زعم ناقشوها أنها قدم النبى (ص) ونقشت كف زعم الدجالون أنها كف الرسول (ص) وأخذوا يطوفون بها على البيوت يخدعون العامة ويأخذون منهم الأموال ويدعون أن من نذر لها أو تبرك بها شفى وطفق من على شاكلة هؤلاء يبنون المشاهد والمساجد على قبر من القبور يزعم أحدهم أنه رأى فى المنام أن هذا المكان مرقد لولى أو لرجل صالح وأنه شم عبيراً منتشراً من هذا المكان وأن هذه الرائحة ما هى إلا دلالة على صلاح صاحب هذا المكان وولايته ، ثم يشرعون يدعون الناس للتبرك به والتوسل إليه ، وليس من شك فى أن هذه الوثنية يقصد بها صرف الناس عن التوحيد وعن

حج بيت الله اكتفاء بمثل هذه الزيارات ، ولقد مر بنا كيف خطف القرامطة الحجر الأسود من مكة ووضعوه عندهم ليضعضعوا عقيدة الناس فى أول بيت وضع لهم .

لقد اطمأن كثير إلى هذه المبادىء وصارت أصولا فى عقائدهم يدافعون عنها ويحاربون من أجلها حتى لقد ساعد النصيرية التاتار على اغتيال الإسلام ، هال ابن تيمية فساد مجتمعه بهذه المبادىء الهدامة فنزل يدفع عن عقيدة التوحيد بقلمه وفمه وسيفه وطفق . يحرر الرسائل فى الرد على هؤلاء المبتدعة ويعظ الناس وحرض السلطان على مقاتلة النصيرية مع التاتار فنجح وكسر النصيرية شر كسرة وكم مرة نزل ابن تيمية يحمل فأسه يحطم الأصنام كما حطم ابن الوليد اللات والعزى . وكان عبدة الأصنام يفرون منه إشفاقاً عليه وخوفاً أن يناله عقابها ، وكان يبتسم ضاحكا منهم ويعجب لأمر هذه الأمة التى رفع التوحيد مكانتها إلى السماء كيف انحدرت بالشرك تتمرغ على أقدام الأحجار تستنزل النصر من القبور بدل أن تطلبه من خالق الخلائق ، أراد ابن تيمية أن يهذب النفوس ويبعث فيها العزة والقوة ويربطها بالسماء فكتب لهم رسالته فى الرد على الاتحادية يدلل رده بالمعقول والمنقول ، ويكفى أن ننقل إليك ماجاء فى أدلته المنقولة فإن العقل مع ابن تيمية والذوق . إذ لا يعقل أن يجول فى الذهن اتحاد خالق بمخلوق فان تجرى عليه نواقص الحياة وزياداتها جميعها قال ابن تيمية مقتبساً من القرآن : لاريب فى أن الله رب العالمين ، رب السموات والأرضين ومابينهما ورب العرش العظيم رب المشرق والمغرب لا إله إلا هو فاتخذه وكيلا ، ربكم ورب آبائكم الأولين ، رب الناس ملك الناس إله الناس . وهو خالق كل شىء وهو على كل شىء وكيل ، وهو الله لا إله إلا هو له الحمد فى الأولى والآخرة وله الحكم وإليه ترجعون ، وهو الحى القيوم الذى لا تأخذه سنة ولا نوم .

فهذه المعانى وما أشبهها من معانى ربوبيته وملكه وخلقه ورزقه وهدايته ، ونصره وإحسانه ، وبره وتدبيره ، وصنعه ، ثم ما يتصل بذلك من أنه بكل شىء عليم ، وعلى كل شىء قدير ، و أنه سميع بصير ، لا يشغله سمع عن سمع ، لا تغلطه المسائل ، ولا يتبرم بإلحاح الملحين ، يبصر دبيب النملة السوداء فى الليلة الظلماء على الصخرة الصماء . فهذا كله حق ، وهو لمحض توحيد الربوبية ، وهو مع هذا قد أعطى كل شىء خلقه ثم هدى ، وأحسن كل شىء خلقه ، وبدأ خلق الإنسان من طين .

ومن هنا نرى ابن تيمية يؤكد على عقيدة التوحيد وينزه الإله عما يريده به الضالون من البشر . لأن الإله يجب أن يكون منزهاً عن هذه النواقص التى تحيط بالإنسان ، وأن الإنسان لا يمكن أن يقيس الإله بمقاييسه الصغيرة الضيقة . وكتب رسالة فى زيارة القبور والاستنجاد بالموتى ، واعتمد فى أدلته على ما جاء من الآيات فى القرآن الكريم وما جاء فى أحاديث النبوة ، قال تعالى : « تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم ، إنا انزلنا إليك الكتاب بالحق فاعبد الله مخلصاً له الدين ، إلا لله الدين الخالص ، والذين اتخذوا من دونه أولياء ، ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى إن الله يحكم بينهم يوم القيامة فيما هم فيه يختلفون » .

وقال تعالى « وأن المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحداً » وقال « قل أمر ربى بالقسط وأقيموا وجوهكم عند كل مسجد وأدعوه مخلصين له الدين » وقال « قل ادعوا الذين زعمتم من دونه فلا يملكون كشف الضر عنكم ولا تحويلا » .

« أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب ويرجون رحمته ويخافون عذابه إن عذاب ربك كان محذورا » .

وقال تعالى : « أفحسب الذين كفروا أن يتخذوا عبادى من دونى أولياء إنا اعتدنا جهنم للكافرين نزلا » .

وقال تعالى : « من ذا الذى يشفع عنده إلا بإذنه » .

وقال : « ما كان لبشر أن يؤتيه الله الكتاب والحكم والنبوة ثم يقول للناس كونوا عباداً لى من دون الله ولكن كونوا ربانيين بما كنتم تعلمون الكتاب وبما كنتم تدرسون ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أربابا ، أيأمركم بالكفر بعد أنتم مسلمون » .

وقال تعالى : « فلا تخشو الناس واخشونى » .

وقال : « وإذا سألك عبادى عنى فإنى قريب أجيب دعوة الداعى إذا دعانى » .

وجاء فى الحديث ، أن الصحابة كانوا فى سفر وكانوا يرفعون أصواتهم بالتكبير فقال النبى صلى الله عليه وسلم : « يا أيها الناس اربعوا على على أنفسكم فانكم لا تدعون أصم ولا غائباً بل تدعون سميعاً قريباً أقرب إليكم أو إلى أحدكم من عنق راحلته » .

لقد جاء الإسلام قوياً شديداً يملأ القلوب نوراً ويحرر النفوس من الذلة لخطر الأصنام وبعث فى الناس العزة والكرامة وساواهم وجعلهم أخوة وارتفع بهم من ذلة الأرض إلى عزة السماء لكيلا يتمرغوا تحت قدم صنم ولا يسجدون للنصب ولا يخشون عبداً من عباد الله مهما كانت منزلته ، فالخشية لله وحده والرابطة به وحده أيضاً . وفى هذه الرابطة المقدسة تعتز النفوس وتسمو الكرامة وتبدو الحرية مجلوة ، وفى ظلال الحرية المجلوة يبدع الإنسان فى عمله ويثق بنفسه ، وليس أحلى من الثقة بالنفس إذا كانت معتزة بعقيدة سامية . وهذه هى المثل العليا الأمم فى تكوين الفرد والأسرة والمجتمع ، وإذا كان الفرد عزيزاً عزت الأسرة وإذا عزت الأسرة عز المجتمع وإذا كان المجتمع عزيزاً عزت الدولة ، وصارت مرهوبة الجانب وهذا ما كان يريده ابن تيمية لأمته فى ذلك

الزمن الذى ذلت به النفوس فأصبحت هذه الأمة نهباً مقسما يقتسمها الطامعون بعد أن كانت عزيزة الجانب .

إن النفوس الضعيفة تتعلق بخيوط العنكبوت وتتشبث بأضعف الوسائل وتتمسك بالأوهام ، فأراد ابن تيمية أن يرتفع بها من ساحة الأوهام إلى الحقائق ويبدد سحباً مظلمة غشيت عيونهم فذكرهم بعقيدتهم الغراء ، عقيدة التوحيد ، وجاءهم بآيات واضحات تحدد مكانة الإنسان بالنسبة لأخيه الإنسان وبالنسبة لخالقه .

إن التوحيد ميزة الأمم الراشدة العاقلة التى يصل بها منطقها إلى وجود قوة خارقة فوق الطبيعة وفوق الممكنات ، وفوق مقاييس البشر ، هذه القوة هى رب واحد قديم غنى عما سواه ، لا شريك له فى الوجود ، وأن العباد مهما سمت منزلتهم لن يصلوا إلى منزلة الربوبية ؛ ولن تصح عبادتهم والتوسل إليهم ، إنهم عباد الله لا يضرون ولا ينفعون ، وإن الإنسان لن يسمو إلى منزلة ربه .

قال تعالى : « وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو ، وإن يردك بخير فلا راد لفضله » . فالقوة فى كشف الضر وارادة الخير لن تكون لبشر ، وإنما تكون لله وحده ، ومن يلجأ إلى بشر فى رأى ابن تيمية فقد أشرك ، ومن أشرك فقد ضل ، ومن ضل فقد ذل ، ومن يذل يسهل الهوان عليه ، وهكذا أصاب الأمة الإسلامية ذلك الضعف حين ألهت الضعفاء واستكانت إلى الأصنام .

وناقش ابن تيمية أهل الفرق فى ذات الله وصفاته ، فقال : « الأصل فى هذا الباب أن يوصف الله بما وصف به نفسه وبما وصفه به رسله نفياً وإثباتاً فيثبت لله ما أثبته لنفسه وينفى عنه ما نفاه عن نفسه وقد علم أن طريقة سلف الأمة وأئمتها اثبات ما أثبته من الصفات من غير تكييف ولا تمثيل ، ومن غير تحريف ولا تعطيل ، وكذلك ينفون عنه ما نفاه

عن نفسه مع إثبات ما أثبته من الصفات من غير إلحاد لا فى أسمائه ولا فى آياته .

ثم قال : « وطريقتهم فى ذلك تتضمن اثبات الأسماء والصفات مع نفى مماثلة المخلوقات اثباتاً بلا تشبيه وتنزيها بلا تعطيل ، كما قال تعالى : « ليس كمثله شىء وهو السميع البصير » . ففى قوله ليس كمثله شىء رد للتشبيه والتمثيل وقوله وهو السميع البصير ، رد للإلحاد والتعطيل ، والله سبحانه بعث رسله باثبات مفصل ونفى مجمل ، فأثبتوا لله الصفات على وجه التفصيل ، ونفوا عنه ما لا يصح له من التشبيه والتمثيل كما قال تعالى : « فاعبده واصطبر لعبادته هل تعلم له سمياً . »

وقال تعالى : « لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد » .

وقال تعالى : « فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون » . وقال تعالى : « ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله والذين آمنوا أشد حباً لله » وقال تعالى : « وجعلوا لله شركاء الجن وخلقهم ، وخرقوا له بنين وبنات بغير علم سبحانه وتعالى عما يصفون ، بديع السموات والأرض أنى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة وخلق كل شىء وهو بكل شىء عليم » .

وقال تعالى : « فاستفتهم ألربك البنات ولهم البنون ، أم خلقنا الملائكة إناثاً وهم شاهدون ، ألا إنهم من أفكهم ليقولون ولد الله ، وإنهم لكاذبون ، اصطفى البنات على البنين ، مالكم ، كيف تحكمون ، أفلا تذكرون ، أم لكم سلطان مبين ، فأتوا بكتابكم إن كنتم صادقين ، وجعلوا بينه وبين الجنة نسباً ، ولقد علمت الجنة أنهم لمحضرون ، سبحان الله عما يصفون وسلام على المرسلين ، والحمد لله رب العالمين » .

وقال ابن تيمية ، وأما الإثبات المفصل ، فإنه ذكر من أسمائه وصفاته ما أنزله فى محكم آياته كقوله تعالى : « الله لا إله إلا هو الحى القيوم ، بكمالها . وقوله : « قل هو الله أحد الله الصمد .. السورة » .

وقوله : وهو العليم الحكيم ، وهو العليم القدير ، وهو السميع البصير وهو العزيز الحكيم ، وهو الغفور الرحيم ، وهو الغفور الودود ذو العرش المجيد ، فعال لما يريد .

هو الأول والآخر ، والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم هو الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام ثم استوى على العرش يعلم ما يلج فى الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها وهو معكم أينما كنتم والله بما تعملون بصير .

وقوله : « ذلك بأنهم اتبعوا ما أسخط الله وكرهوا رضوانه ، فاحبط أعمالهم ، وقوله فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين » .

وقوله رضى الله عنهم ورضوا عنه ، ذلك لمن خشى ربه . وقوله : « ومن يقتل مؤمناً متعمداً فجزاؤه جهنم خالداً فيها وغضب الله عليه ولعنه » .

وقوله : « إن الذين كفروا ينادون لمقت الله أكبر من مقتكم أنفسكم إذ تدعون إلى الإيمان فتكفرون » ...

إلى أمثال هذه الآيات والأحاديث الثابتة عن النبى فى أسماء الله تعالى وصفاته ، فإن ذلك من إثبات ذاته وصفاته على وجه التفصيل ، وإثبات وحدانيته بنفى التمثيل ماهدى الله به عباده إلى سواء السبيل ، فهذه طريقة الرسل صلوات الله عليه وسلامه أجمعين .

وقال ابن تيمية : وأما من زاغ وحاد عن سبيلهم من الكفار والمشركين الذين أوتوا الكتاب ومن دخل فى هؤلاء من الصائبة والمتفلسفة والجهمية والقرامطة والباطنية ونحوهم فانهم على ضد ذلك ، يصفون بالصفات السلبية على وجه التفصيل ولا يثبتون إلا وجوداً مطلقاً لا حقيقة له عند التحصيل ، وإنما يرجع إلى وجود فى الأذهان يمتنع تحققه فى الأعيان فقولهم يستلزم غاية التعطيل وغاية التمثيل ، فإنهم يمثلونه بالممتنعات

والمعدومات ، والجمادات ويعطلون الأسماء والصفات تعطيلا يستلزم نفى الذات ، فغلاتهم يسلبون عنه النقيضين ، فيقولون لا موجود ولا معدوم ولا حى ولا ميت ، ولا عالم ولا جاهل ، لأنهم يزعمون أنهم إذا وصفوه بالإثبات شبهوه بالموجودات وإذا وصفوه بالنفى شبهوه بالمعدومات فسلبوا النقيضين ، وهذا ممتنع فى بداهة العقول ، وحرفوا ما أنزل الله من الكتاب وما جاء به الرسل ، فوقعوا فى شر مما فروا منه ، فإنهم شبهوه بالممتنعات إذ سلب النقيضين كجمع النقيضين كلاهما من الممتنعات وقد علم من الاضطرار أن الوجود لا بد له من موجد واجب بذاته غنى عما سواه قديم أزلى ، لا يجوز عليه الحدوث ولا العدم فوصفوه بما يمتنع وجوده فضلا عن الوجوب أو الوجود أو القدم ، وقاربهم طائفة من الفلاسفة وأتباعهم فوصفوه بالسلوب والإضافات ، دون صفات الإثبات ، وجعلوه هو الوجود المطلق بشرط الإطلاق وقد علم بصريح العقل أن هذا لا يكون إلا فى الذهن ، لا فيما خرج عنه من الموجودات ، فجعلوا الصفة هى الموصوف ، فجعلوا العلم عين العالم مكابرة للقضايا البديهيات ، وجعلوا هذه الصفة هى الأخرى ، فلم يميزوا بين العلم والقدرة والمشيئة جحداً للعلوم الضروريات ، وقاربهم طائفة ثالثة من أهل الكلام من المعتزلة ومن اتبعهم ، فأثبتوا الله الأسماء دون ما تتضمنه من الصفات فمنهم من جعل العليم والقدير والسميع والبصير كالأعلام المحضة المترادفات ، ومنهم من قال عليم بلا علم ، قدير بلا قدرة ، سميع بصير ، بلا سمع ولا بصر . فأثبتوا الاسم دون ما تضمنه من الصفات ، والكلام على فساد مقالة هؤلاء وبيان تناقضها بصريح المعقول المطابق لصحيح المنقول مذكور فى غير هؤلاء الكلمات .

وهؤلاء جميعهم يفرون من شيء فيقعون فى نظيره وفى شر منه مع ما يلزمهم من التحريف والتعطيل ، ولو أمعنوا النظر لسووا بين المتماثلات

وفرقوا بين المختلفات كما تقتضيه المعقولات ولكانوا من الذين أوتوا العلم الذين يرون أنما أنزل إلى الرسول هو الحق من ربه ويهدى إلى صراط العزيز الحميد . ولكنهم من أهل المجهولات المشبهة بالمعقولات يسفسطون فى العقليات ويقرمطون فى السمعيات ، وذلك أنه قد علم بضرورة العقل أنه لابد من موجود قديم غنى عما سواه إذ نحن نشاهد حدوث المحدثات كالحيوان والمعدن والنبات ، والحادث ممكن ليس بواجب ولا ممتنع وقد علم بالاضطرار أن المحدث لابد له من محدث والممكن لابد له من موجد كما قال تعالى : « أم خلقوا من غير شىء أم هم الخالقون » .

فإذا لم يكونوا خلقوا من غير خالق ولا هم الخالقون لأنفسهم تعين أن لهم خالقاً خلقهم .

يتبين من هذه الأمثلة التى اقتبسناها من الرسالة التدمرية لابن تيمية أن هناك صراعاً عنيفاً فى الآراء بينه وبين القرامطة الباطنية ومن اشتق منهم والفلاسفة والمعتزلة فى بعض آرائهم ولقد أوضح ابن تيمية بعض ما جاءوا به وأورد رأيه .

وصفوة ما جاء فى آرائه فى هذا الباب : أن ما ورد فى القرآن الكريم من الأسماء والصفات فى ذات الله وصفاته مقرر ثابت لا ينكر ولكنها لا تخضع لمقاييسنا نحن البشر ، فله استواء معلوم وله سمع ليس كسمعنا وبصر ليس كبصرنا وقدرة لا تشبه قدرتنا ، ومقته وغضبه وحبه وانتقامه ورضاه أمور على غير ماهو معروف بيننا ، فهو قديم غنى عمن سواه ، وأن الضرورة تقتضى ذلك وتقتضى هذه القاعدة المنطقية بمقدماتها ونتائجها ، وهو : أن الممكن لابد له من موجد ، والله واجب الوجود هو موجد هذا الكون وإذا سمى الله نفسه سميعاً بصيراً فى قوله : « إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل ، إن الله نعما يعظكم به إن الله كان سميعاً بصيرا » وسمى بعض عباده سميعاً بصيراً فى

قوله : إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعاً بصيراً » .
فإنه ليس السميع كالسميع ولا البصير كالبصير ، كذلك ليس المتكبر كالمتكبر والجبار كالجبار فى الآيات التى سمى الله نفسه بذلك وسمى عباده بها .

لم يوجه ابن تيمية إصلاحه إلى العقيدة فقط بل اتجه إلى إصلاح اجتماعى خطير إلى مكانة المرأة فى بيتها فاختلف مع علماء عصره فى شأن الطلاق إذا كان يميناً وذلك إذا قال الرجل : « الطلاق يلزمنى لأفعلن كذا أو لا أفعل كذا فيحلف به على حض لنفسه أو لغيره أو تصديق خبر أو نفيه . فإن ابن تيمية يجعله من قبيل الأيمان التى لا تعقد بالله ولا لله وإنما تعقد بمخلوق أو لمخلوق مثل أن يحلف بالطواغيت أو بأبيه أو الكعبة أو غير ذلك فهذه يمين غير محترمة فلا تنعقد ولا كفارة بالحنث فيها باتفاق العلماء[1] .

ويستدل على ذلك بالأحاديث النبوية والآيات القرآنية ولا يجعلها تدخل فى أيمان المسلمين لقوله صلى الله عليه وسلم (من حلف بغير الله فقد أشرك)

وقد اشتد الخلاف بينه وبين علماء عصره حتى طلبوا من السلطان أن يأمر بمنعه من الافتاء بمثل هذه المسائل ، ولما لم يخضع لهذا الأمر حكم عليه بالسجن فى أغسطس عام ١٩٣٠ وسجن فى قلعة دمشق ولبث فى السجن خمسة أشهر وثمانية عشر يوما .

ولم ينس ابن تيمية فى إصلاحاته وصيحاته سياسة الملك فكتب رسالته السياسية الشرعية فى إصلاح الراعى والرعية ، وجعل الإمارة قوام الأمة وواجباً من واجبات الدين لا يقوم إلا بها ، لأن المجتمع يقتضى ذلك فى رأيه ، ولأن الله أوجب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ولا يتم ذلك إلا بالقوة والإمارة ، ولذلك قيل إن السلطان ظل الله فى الأرض كما قيل : « ستة من إمام جائر أصلح من ليلة بلا سلطان » .

---

(١) رسالة الاجتماع والافتراق .

ويرى ابن تيمية أن الإمارة دين وقربة يتقرب بها إلى الله فإن التقرب إليه فيها بطاعته وطاعة رسوله من أفضل القربات وإنما يفسد فيها حال أكثر الناس لا بتغاء الرياسة أو المال بها .

وينكر على الإمارة الاستبداد واحتجان السلطان والمال ، وينذر بما أنذر الله به عباده فى قوله : « أو لم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم ، كانوا أشد منهم قوة وآثارا فى الأرض فأخذهم الله بذنوبهم ، وما كان لهم من الله من واق » وقال تعالى : « تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً فى الأرض ولا فساداً والعاقبة للمتقين » .

ويعنى بذلك رؤساء الدول الذين يستبدون بالملك ويفسدون فى الأرض ويقول إنهم شرار الخلق ، قال تعالى : « إن فرعون علا فى الأرض وجعل أهلها شيعاً يستضعف طائفة منهم يذبح أبناءهم ويستحيي نساءهم إنه كان من المفسدين » .

ويجب الإطاعة من الرعية والمشورة من الراعى .

قال تعالى : « أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم فإن تنازعتم فى شيء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلا » .

وقال تعالى : « فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم فى الأمر فإذا عزمت فتوكل على الله إن الله يحب المتوكلين » .

وقوله تعالى : « وما عند الله خير وأبقى للذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون والذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش وإذا ما غضبوا هم يغفرون والذين استجابوا لربهم وأقاموا الصلاة وأمرهم شورى بينهم ومما رزقناهم ينفقون » .

وأولو الأمر الذين ذكرهم فيما مر صنفان عنده : الأمراء والعلماء

وهم الذين إذا صلحوا صلح الناس ، فعلى كل منهم أن يتحرى ما يقوله ويفعله طاعة لله ولرسوله واتباع كتاب الله ، ومتى أمكن فى الحوادث المشكلة معرفة مادل عليه الكتاب والسنة كان هو الواجب ، وإن لم يمكن ذلك لضيق الوقت أو عجز الطالب ، أو تكافؤ الأدلة عنده أو غير ذلك فله أن يقلد من يرتضى علمه ودينه .

ويفتتح ابن تيمية هذه الرسالة بأداء الأمانات ويقسمها قسمين يدبر بأحدهما الولاية والثانى الأمانات من الأموال ، ويبدؤها بالحديث : « من ولى من أمر المؤمنين شيئاً وهو يجد من هو أصلح المسلمين منه فقد خان الله ورسوله » .

وقال عمر بن الخطاب (رضى الله عنه) : من ولى من أمر المسلمين شيئاً فولى رجلا لمودة أو قرابة بينهما فقد خان الله ورسوله والمسلمين » .

وبذلك يحارب ابن تيمية المحسوبية ، ولا يريد للولاية إلا الكفوء القدير المستحق للولاية الذى ينوب عن الخليفة أو السلطان فى الأمصار لكيلا يستذلوا الناس ولا يحكموا بالعدل بينهم . والولاية كما قدم عنده أمانة بدليل قوله تعالى : « يأيها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول وتخونوا أماناتكم وأنتم تعلمون » . وينصح ابن تيمية أولى الأمر أن يختاروا الأمثل فالأمثل فى كل منصب بحسبه . وإذا فعلوا ذلك بعد التحرى والتدقيق فقد أدوا الإمارة حقها وقاموا بالواجب .

ويستمر ابن تيمية فى هذه الرسالة ، يفصل واجبات الإمارة ، وواجبات الولاة ، وواجبات الرعية حتى يستوفى الحاجة التى كانت أيامه تحتاج إليها ، ويفصل بعد ذلك الحدود والحقوق وصلات الناس بإمامهم وخالقهم وبأمثالهم من الناس يستمد ذلك من القرآن الكريم والحديث وأقوال السلف الصالح . وموجز القول : ما ترك هذا العربى المصلح باباً

من أبواب الفساد المنتشر فى أيامه إلا أوصده ووقف قلمه ولسانه وسيفه الخلاص منه .

كانت التهم تكال له جزافاً وكان حساده يؤلبون عليه السلطان وولاة الأمور فى كل حين ، وكان السجن والحرمان من بعض وظائفه وتقييد حريته ومنعه من الكلام جزاء هذه التهم ، لقد اتهم بشايعة مذهب التجسيم ظلماً فحكم عليه بأن يلقى هو وأخوه فى الجب بقلعة الجبل فى القاهرة فبقى فيه سنة ونصف سنة وخرج منه عام ١٣٠٨ م وبعد أيام قلائل من خروجه اعتقل مرة أخرى ، وحبس فى برج الإسكندرية فلبث فيه ثمانية أشهر فلما أخلى سبيله عاد إلى القاهرة فعين مدرساً فى مدرسة أسسها السلطان ناصر وقد امتنع عن الفتيا للسلطان بما يجيز له الانتقام من أعدائه ، وكيف يفعل ذلك ابن تيمية وهو حر أبى ، وفى أغسطس عام ١٣١٨ منع بأمر من السلطان أن يفتى فى مسألة الحلف بالطلاق ، ولما لم يخضع لهذا الأمر حكم عليه فى أغسطس عام ١٣٢٠ بالسجن فى قلعة دمشق وأفرج عنه بعد أن لبث فيها خمسة أشهر وثمانية عشر يوماً بأمر من السلطان ثم أعيد إلى السجن عام ١٣٢٦ بعد أن ظفر أعداؤه بفتواه فى مسألة شد الرحال إلى القبور التى كان أصدرها عام ١٣١٠ وقد أخليت له فى هذه المرة غرفة كان يخدمه فيها أخوه . وفيها أقبل على تفسير القرآن وكتابة الرسائل للرد على الخصوم وكتابة المؤلفات حول ما حبس من أجله . فلما علم خصومه خبر هذه المؤلفات ، وشوا به فجرد من كتبه وأوراقه ومداده ، فكانت صدمة شديدة لم تخففها كثرة الصلاة وقراءة القرآن فمرض عشرين يوما وتوفى فى الليلة الثانية والعشرين من شهر ذى القعدة عام ٧٢٨ الموافق ٢٦ — ٢٧ سبتمبر سنة ١٣٢٨ .

وقال الذهبى : وفى هذه السنة سنة ثمان وعشرين وسبعمائة هـ فى ليلة اثنتين وعشرين من شعبان مات الشيخ الإمام العلامة الحافظ الزاهد

القدوة شيخ الإسلام أبو العباس أحمد بن المفتى شهاب الدين عبد الحليم
ابن شيخ الإسلام مجد الدين أبى البركات عبد السلام بن عبد الله
ابن أبى القاسم بن تيمية الحرانى ثم الدمشقى معتقلا بالقلعة وغسل وكفن
فأخرج وقد اجتمع خلق كثير بالطرق وامتلأ الجامع والكلاسة
والحوانيت كيوم الجمعة أو أكثر وصلى عليه أولا بالقلعة الشيخ محمد بن
تمام ، ثم بجامع دمشق بعد الظهر واشتد الزحام ، وألقى الناس عليه عمائمهم
ومناديلهم للتبرك وارتص الناس تحت النعش وشيعه الخلائق فى جوار
من أبواب البلد ومعظمهم كان من باب الفرج مع الجنازة وعظم الأمر
بسوق الخيل ، وتقدم فى الصلاة عليه هناك أخوه وانتشر الناس والنسوان
على الأسطحة وإلى قبلى مقابر الصوفية فدفن إلى جانب أخيه الشيخ عبد الله
وحزر النساء بخمسة عشر ألفاً ، وأما الرجال فحزروا بستين ألفاً وأكثر
إلى مائتى ألف وكثر البكاء حوله وختمت له عدة ختم ، وتردد الناس إلى
زيارة قبره أياماً ورويت له منامات صالحة ورثاه جماعة ، وكان مولده
بحران عاشر ربيع الأول سنة إحدى وستين وستمائة ، وطلب الحديث
وقرأ الكثير ، ووجدت بخط الشيخ كمال الدين بن الزملكانى أنه اجتمعت
فيه شروط الاجتهاد على وجهها ، وكان آية فى الذكاء وسرعة الإدلاء
بحراً فى النقليات ، رأساً فى معرفة الكتاب والسنة ، هو فى زمانه فريد
عصره علماً وزهداً وشجاعة وسخاء وأمراً بالمعروف ونهياً عن المنكر
وكثرة التصنيف ، وما رأت عيناى مثله ولا رأى مثل نفسه فى العلم .

ترك ابن تيمية الحياة الدنيا وهو مؤمن أن تعاليمه ستأخذ مكانتها
فى قلوب الناس ، ولكنه لم يدر أن الناس يجتمعون على نعشه يرمون
عمائمهم ومناديلهم للتبرك به ويتخذون قبره مزاراً ، وتروى عنه المنامات
الصالحة وغير ذلك من الأمور التى كان يحاربها فى حياته . لقد كان هذا
الشيخ عظيما فى أعين الناس ، عظيما برأيه وشجاعته وقوة إيمانه عظيما بثقته
بالله الواحد القهار .

لقد حدث المؤرخون أن ابن تيمية صنف خمسمائة مؤلف ولكن وا أسفاه لم يصل إلينا إلا نيف وستون كتاباً انتشر القليل منها .

وتكاد تكون هذه المؤلفات دفاعاً عن وحدة العقيدة وتبياناً لشأن الإسلام فى قلوب حملته وفى هذا العدد الضخم من المؤلفات دلالة على جهد هذا العلامة الكبير والمصلح العظيم ودلالة على مبلغ حرصه على مكانة هذه الأمة التى تقسمتها الأهواء وتنازعتها ميول الموالى واتجاهاتهم لإضعاف شوكتها والقضاء عليها . ولا شك فى أن كثيراً من مؤلفاته التى فقدت إنما فقدت عن طريق الخصوم الذين سعوا فى إتلافها وإخفائها .

أخذ صوت هذا العالم الجليل يدوى فى أنحاء الجزيرة العربية وفى البلاد التى يظللها القرآن فتمكن من قلوب المؤمنين وأثر تأثيراً كبيراً . وقد خلفه تلميذه ابن القيم الجوزية وسار على نهجه فكتب وألف وظلت تعاليمهما معاً تنتقل فى أصلاب الحياة من طور إلى طور ، والزمن شحيح لا يلد المصلحين والعباقرة إلا بمقدار ، وإذا انفلت من حضنه مصلح تنكر له وأدار له ظهر المجن وهيأ الخصوم . وما كان ابن تيمية يدرى أن يهيء الله لتعاليمه رجلا من قلب الصحراء يدرسها فيهتدى بهديها وينسج على منوالها فلقد أتاح لتعاليمه محمد بن عبد الوهاب ، ولد ابن عبدالوهاب عام ١١١٥هـ ودرج فى بلدة صغيرة تسمى عيينة من أعمال نجد وتعلم دروسه على شيوخ الحنابلة ، ومنها ذهب إلى مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم ليكمل علومه ، ولما عض على قارحة الكمال حمل عصا التسيار وشرع يطوف فى أرجاء العالم الإسلامى فوصل البصرة وأقام بها وتركها إلى بغداد وأقام بها ، وكان مجموع الإقامتين بالعراق تسع سنين ، ثم ذهب إلى كردستان ، وإلى همذان وأصفهان فألقى عصا التسيار فدرس فلسفة الأشراق والتصوف ، وذهب إلى قم ومنها عاد إلى بلاده ، وانزوى فى داره مدة من الزمن وخرج بعد ذلك إلى الناس يدعوهم يبشرهم وينذرهم ويستهزىء

بأفعالهم وأعمالهم الوثنية ، ويدعوهم إلى التوحيد وإلى كلمة لا إله إلا الله يستدل بالقرآن والحديث ويشرح أدلته شرحاً وافياً ، يحاول فيه صدق الحجة والإقناع . ولكنك لا تبصر فى ثنايا شرحه وحججه ما كنت تراه فى كتب ابن تيمية ، مما يدل على أن ثقافة ابن عبد الوهاب لم تصل إلى ذلك الأفق الواسع الذى كان ينبسط أمام ابن تيمية ، ومع ذلك فقد أدرك سر انهيار هذه الأمة . ووجد مفتاح السر فى تبديل العقيدة « إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » . لقد وجد التوحيد تحيط به الأشواك والعوسج وتأشب حوله أدغال لا يستطيع أحد أن ينفذ إليه إلا بسلطان . وأن المانوية والمزدكية والباطنية والقرامطة والسبأية تركت آثاراً امتد بها الزمن وطال حتى تمكنت من النفوس واستقرت فى قراراتها وأصبحت عقائد لا يمكن تحويل الناس عنها ورأى الأوثان والأصنام التى حطمتها عقيدة التوحيد عادت ثانية فصدع بقوله تعالىٰ « اعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً » . وقوله تعالى : « قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم ألا تشركوا به شيئاً » . « فلا تدعوا مع الله أحداً » . « له دعوة الحق والذين يدعون من دونه لا يستجيبون لهم بشىء » إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء » . « ويوم نحشرهم جميعاً ثم نقول للملائكة أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون ؟ قالوا سبحانك أنت ولينا من دونهم بل كانوا يعبدون الجن أكثرهم بهم مؤمنون . »

ما المسيح ابن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل وأمه صديقة كانا يأكلان الطعام انظر كيف نبين لهم الآيات ثم انظر أنى يؤفكون . « من ذا الذى يشفع عنده إلا بإذنه » وإذا غشيهم موج كالظلل دعوا الله مخلصين له الدين « وإذا مسكم الضر فى البحر ضل من تدعون إلا إياه فلما نجاكم إلى البر أعرضتم وكان الإنسان كفورا » . قل أرأيتم إن أتاكم عذاب الله أو أتتكم الساعة أغير الله تدعون ، إن كنتم صادقين !

بل إياه تدعون فيكشف ما تدعون إليه إن شاء وتنسون ما تشركون .
وإذا مس الإنسان ضر دعا ربه ، منيباً إليه ثم إذا خوله نعمة منه نسى
ما كان يدعو إليه من قبل وجعل لله أنداداً قل تمتع بكفرك قليلا إنك
من أصحاب النار .

بمثل هذه الآيات البينات سلك ابن عبد الوهاب سبيل أستاذه ابن تيمية
فى توجيه الناس إلى عقيدة التوحيد التى جاء بها رسول الله صلى الله عليه
وسلم إلى النهوض بأنفسهم من حضيض الذلة إلى العزة والقوة إلى الإيمان
الصافى إلى الارتباط بالله وحده . وفى هذه الفكرة وحدها معنى السمو
والرفعة ومعنى الاعتصام بحبل متين لا ينقطع والنفس التى ترتبط بالله
لا تذل ولا تخضع لأحد ، ولا توجد نفس أذل من النفس التى تتمرغ
أمام صنم ضخم منحوت من حجارة أو شجرة نابتة ، ولا توجد نفس
أذل من النفس التى تتخذ أحبارها ورهبانها أربابا من دون الله أو تتخذ
أنداداً تحبهم كحبها لله ساء ابن عبد الوهاب هذه الذلة ورأى الناس قد
علقوا آمالهم وأعمالهم على غير الله واطمأنوا إلى المخلوقات يستشفون بها
من أمراضهم وعللهم ويجعلونها وسائل لأعمالهم وأرزاقهم وطفق الناس فى
البلاد يأكل بعضهم بعضاً لفساد العقيدة وضعف الإيمان فلم ير بدا من أن يهزهم
هزا ولم يجد شيئا يبعث فيهم الحياة الصالحة والحياة العزيزة إلا الرجوع
إلى عقيدة التوحيد إلى الإيمان بالله إلى المبادىء التى جاء بها الإسلام
فى أوله . ووجد العودة إلى هذه الفكرة وحدها كفيلة برجوع القوة
والعزة التى كانت للإسلام فى سالف عهده ، وللمؤمن المخلص الذى كان
لا يرهب أحداً إلا الله فى تغيير المنكر والدعوة إلى الحق .

فأوذى بدعوته وحورب فى بلدته . ثم هجرها إلى الدرعية حيث وجد
القوة تعين الدعوة والسيف يحرس مبادئه . فقويت شوكته وانتشرت
دعوته . وسار فى عرض بلاده يعلم ويصلح حتى اكتمل له العدد والعدة

ومشى إلى مكة والمدينة فاستولى عليهما . فأصيبت دعوته فى هذا الاستيلاء بنكسة قوية . فقد اهتز العالم الإسلامى واهتز عرش الخلافة فى الآستانة لأمرين اثنين أولها أن أتباعه هدموا القباب وأزالوا ما كان على قبر الرسول صلى الله عليه وسلم من الحلى والزينة فانتفض المسلمون فى مشارق الأرض ومغاربها لهذه الجرأة ورموا أصحاب هذه الحركة بالزندقة واتهموهم بالكفر .

وثانيهما خوف الخلافة فى الآستانة من هذه الحركة التى تؤذن بقيام دولة عربية تناوىء الخلافة التركية .

وعلى ذلك نبط عداء شديد لها وأخذت السلطنة التركية تعمل لقبرها فى مكانها قبل أن تتسع ، فأحكمت الدعاية ضدها وشرعت تعد العدة لمقاومتها . فلم ير السلطان محمود بدأ من الاستنجاد بعامله على مصر محمد على باشا أن يسير الجند للقضاء عليها فى مهدها . صحب هذا الإذن دعاية واسعة النطاق قام بها علماء المسلمين فألفوا الكتب ووضعوا الرسائل ونشروها بين الناس يحذرونهم وينذرونهم من البلاء المؤكد الذى سيصيب الإسلام إذا نجحت دعوة ابن عبد الوهاب .

جهز محمد على جنده بإمرة ولده طوسون وكتب إلى الشريف غالب شريف مكة يعلمه إعداد هذه الحملة ، وعلم إتباع ابن عبد الوهاب ما عزم عليه عامل مصر فتجمعوا له ، ولما التقى الجمعان انهزم جند طوسون تاركين وراءهم المؤن والذخائر ، ثم جاء طوسون المدد من أبيه فأعاد الكرة على جند ابن عبد الوهاب وهزمهم واستعاد المدينة ومكة .

وفى صيف ١٨١٢ م أعاد أتباع ابن عبد الوهاب الكرة على جند طوسون فاستولوا على مكة وكادوا يأخذون المدينة ، فبلغ الخبر محمد على فسار بنفسه بجند لجب عام ١٨١٣ ونزل جدة وحدث أن مات قائد الوهابيين فى درعية عام ١٨١٤ فانهارت قواهم ولم يصمدوا لجنود محمد على وسار

طوسون إلى نجد ، ثم اضطرته قلة المؤن إلى الرجوع عن عاصمتها ، وعاد كذلك محمد على بعد أن فتح طريق الحج للحجاج ، ثم عاد طوسون ولم يلبث قليلا حتى توفى .

وبعد أن استقر محمد على فى ولايته خشى أن تعود الوهابيين قوتهم تارة أخرى فكتب إلى عاهلهم عبد الله أن يأتى إليه ومعه جميع الأموال التى أخذها جنده من الكعبة فاعتذر عن المجىء وأخبر أن الأموال قد ذهبت إلى أيدى الناس أيام أبيه .

فهدده محمد على وجهز عليه حملة بقيادة ابنه إبراهيم باشا ، فأوغل هذا فى بلاد الحجاز ونجد وقبض على عبد الله وأرسله إلى أبيه فى القاهرة ومن ثم أرسلوه إلى الآستانة فطافوا به ثلاثة أيام فى شوارعها ثم قتلوه وبهذه الحملة قضى على الحركة السياسية نهائياً وخلع السلطان على إبراهيم باشا خلعة الشرف وعهد إليه بالولاية على مكة وأنعم على محمد على بلقب « خان » مكافأة له على إخلاصه وشجاعته فى وأد هذه الحركة العربية فى مهدها . وإذا كانت هذه الحركة قد أخمدت ، فإن أفكار ابن تيمية لم تمته واستمرت تفتق أذهان النبهاء من طلاب العلم والإصلاح ، واعتنقها كثيرون ممن يرون فى عودة التوحيد وخلاص العقيدة من الشرك عزة ومنعة .

وكان من هؤلاء الشوكانى أخذ تعاليم ابن تيمية ودرسها وشرح بعضها وعلق عليها وطفق يحارب البدع فى بلاد اليمن فثارت عليه حرب شعواء ورموه بالزندقة والخروج على العقائد ذلك لأنه ندد بالناس الذين يرون النفع والضر منوطين بالمشاهد وهو يرى أن الله وحده هو النافع والضار ، فتصدى له العلماء فى صنعاء ونازلوه بالجدل والمراء فصمد لهم ودافع دفاعا مجيداً عن عقيدة المسلمين فى كتابه « نيل الأوطار » الذى شرح به كتاب ابن تيمية « منتقى الأخبار » .

وأخذ عن ابن تيمية وعن ابن عبد الوهاب كثيرون فظهر المصلحون في الهند والعراق وبلاد المغرب يبشرون بمبادئ التوحيد ويدعون الناس إلى نبذ البدع والخرافات والتمسك بأصول الدين الصحيحة حباً بعزة الإسلام وخلاصه من شوائب البدع ولم تقتصر هذه الحركة الإصلاحية على بلاد العرب بل طفرت إلى الهند ونشأت حركة خطرة اتخذت سبيل السياسة سبيلا لها مع الوعظ والإرشاد وأخذت تهدد قوة المستعمر ولكن هذه القوة تصدت لها فأخضعتها وأمنت شرها .

جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده

وفي النصف الثاني من القرن التاسع عشر استقبل العالم الإسلامي باعثاً ومبدعاً هو السيد جمال الدين الأفغاني ، ولد في عام ١٢٥٤هـ ، ١٨٣٩م وتوفي عام ١٣١٢ هـ ، ١٨٩٧ م من بيت في الذروة من قريش ، فهو ينمي إلى السيد علي الترمذي المحدث المشهور ، ويرتفع بهذا النسب صعداً حتى يصل إلى الحسين بن علي رضي الله عنه . ودرج بين عشيرة قوية الجانب محترمة الأرومة يجلها الأفغانيون لصلة النسب برسول الله صلى الله عليه وسلم ويهابونها لكثرتها وشدة شكيمتها ، وكانت لها سيادة على قسم من أراضي الأفغان ظلت تستقل في الحكم بها إلى أن سلب الإمارة منها دوست محمد خان ، فذهب والد جمال الدين وبعض أعمامه إلى مدينة كابل ، أخذه أبوه بالعلم والأدب ، فدرس العربية والتاريخ وعلوم الشريعة في التفسير والحديث ، والفقه وأصول الفقه والكلام والمنطق والسياسة ودرس الرياضيات: الحساب والهندسة والجبر ، وهيئة الأفلاك ، ونظريات الطب والتشريح وبعد أن اكتمل شبابه أخذ يطوف في العالم ، فحذق العربية والفارسية والتركية والفرنسية وعرف طرفاً من الإنكليزية والروسية .

فى هذه المعرفة والتجارب تكونت هذه الشخصية الجبارة ، ولقد ظهرت بوادرها فى براعة موقفه من اختلاف الأسرة الحاكمة فى الأفغان وعظمت ثقة محمد أعظم خان به فأحله محل الوزير الأول يلجأ إليه فى عظائم الأمور وحل المشكلات . وكادت تخلص حكومة الأفغان لمحمد أعظم بتدبير جمال الدين لولا انشقاق حدث فى صفوف الأسرة أدى إلى هزيمة أعظم ، وبقى جمال لم تمسسه يد سوء لقوة العشيرة وهيبتها ، وبدا له أن يسافر إلى الهند ، فعز على حكومة الهند أن تراه يجول فى الهند وحده حراً . فأرادت أن تحد من ذلك فحددت له مكاناً ينزل فيه ومع هذا فقد استقبل على الحدود استقبالا منقطع النظير — وأخذت الوفود تفد عليه . فوفد فى اليوم الأول عشرات من المعجبين به . ثم صارت العشرات مئات حتى صار المستفيدون من فضله يسعون إليه بالجماهير المجمهرة ينصتون إلى أقواله ودروسه فارتجت أقطار الهند وهرع أكابر العلماء والراجات ومن بين هؤلاء من لاتستطيع الحكومة منعه من الاجتماع بجمال الدين وعرفت الحكومة آراءه وما يبثه فى جماعات الأمة ، فقصرت الحكومة الإقامة على ماتم منها وطلبت منه أن يغادر الهند حالا ، فهاجت الجموع وماجت من هذا الأمر ووقف جمال الدين بينهم خطيباً وقال : « يأهل الهند ، وعزة الحق لو كنتم وأنتم تعدون بمئات الملايين ذباباً لأصم طنينكم آذان بريطانيا العظمى ولجعل فى أذن كبيرها غلادستون وقراً »

« ولو انقلبت ملايينكم سلاحف وخضتم البحر وأحطتم بجزر بريطانيا لجررتموها إلى القعر وعدتم إلى الهند أحراراً » .

فما أتم جمال الدين كلامه حتى أذرف الحاضرون الدموع ، فقال لهم : « اعلموا أن البكاء للنساء ، ولم يأت السلطان محمود الغزنوى الهند باكيا بل أتى شاكياً سلاحه ، ولا حياة لقوم لا يستقبلون الموت فى سبيل الاستقلال بثغر باسم » .

هز نفوس الهنود وأيقظها من رقادها ، وارتعدت فرائص المستعمر فرقا من هذه الظاهرة العجيبة فى أقوال هذه الشخصية الجبارة فلم تتركها فى الهند إلا يوماً واحداً بعد هذه الخطبة ، سار جمال الدين متجهاً إلى الآستانة إلى مركز الخلافة الإسلامية لعله يجد فيها أرضا خصبة ينمو بها زرعه ، فلما رآه الصدر الأعظم عرف فضله وأنزله نزل الكرامة ، وأجمعت قلوب الأمراء والوزراء على حبه ، وتناقلوا المدح والثناء على علمه وأدبه فعين عضواً فى مجلس المعارف ورأى آراء لم تعجب رفاقه فى هذا المجلس ومنهم شيخ الإسلام خاصة . وهو الذى حفظها حتى وجد فرصة فأوقع فيه وادعى عليه باطلا من القول وزوراً وظل يلاحقه حتى صار باطل شيخ حقا على جمال الدين . فاضطر إلى ترك الآستانة ، بعد أن أنب ونبه وأنذر وأوضح : أن الأمة هى مصدر القوة ، ومصدر الحكم ، وإرادة الشعب الحر هى القانون المتبع للشعب ، والقانون الذى يجب على كل حاكم أن يكون خادما له وأميناً ، وكل شعب تلعب به الأهواء ويتفرق شيعا وأحزابا وتستحكم فى أفراده محبة الذات والأنانية فيتجرون باسم الأمة تجاه الفرد المسلط ، ويستنزفون ثروة المجموع إرضاء له لينالوا بلغة من العيش ، مثل هذا الشعب كمثل الأنعام السائمة أو أضل سبيلا ، ومثل هذا الشعب تصدق عليه قاعدة جور ، أوجدها المستبدون وهى القول السابق : « مشيئة الملك قانون المملكة[١] » .

خرج جمال الدين من الآستانة فجاء مصر تتقدمه كوكبة من المديح والثناء ووصلها فى أول محرم الحرام ١٢٨٨ هـ و ٢٢ آذار ١٨٧١ فاستقبله رياض باشا فأكرمه ونعمه ، وصار بيت جمال الدين مثابة يفد إليه طلاب العلم ، وشرع يعلم ويوجه ، وفى كل يوم يعظم قدره فى نفوس طلابه حتى ملأت سمعته سمع العالم وكان لشخصيته وعبقريته المبدعة أثر كبير

(١) خاطرات جمال الدين ص ٣٧ — ٣٨ .

فى تكوين الشخصيات وتنشيط العقول ، وحل عقد الأوهام من الأحلام ، حمل طلابه على التفكير والكتابة فنشطوا لما أراد ، وبرعوا وتقدموا فى مضمار الحياة ، فكان تقدم فن الكتابة من إبداعه والتفكير الحر من خلقه وإيجاده .

خلق فى مصر جواً تسمع فيه كلمات عن الحرية والاستقلال والتكوين والإنشاء والإدارة والشعب والشورى والحاكم . فدار فى أذهان الإنكليز أن هذا الرجل سوف يبقظ الرقود وينبه الغافلين وزينوا للخديوى أن يخرجه من مصر ، فاتخذ من مناقشته فى حكم الشعب وسيلة وحفظها له حتى تهيأت الفرصة فأخرج من البلاد .

رأى جمال أن يذهب إلى الهند ، ولما وصل إلى السويس جاءه قنصل إيران وبعض التجار وجماعة من تلامذته يحمل كل منهم مقداراً من المال ولما عرضوه عليه أجابهم أنتم إلى هذا المال أحوج ، فإن الليث لايعدم فريسته حيثما ذهب » . وصل حيدر آباد الدكن واتخذها مقراً ، ثم حدد له المقر أثناء ثورة عرابى فلما انتهت هذه الثورة سمح له بالذهاب حيث يشاء . فقصد جمال الدين أوربا ووصل إلى لندن فأقام فيها مدة ثم سافر إلى باريس فاستدعى صديقه وتلميذه الشيخ محمد عبده وأخرجا معاً جريدة « العروة الوثقى » لسان حال جمعية العروة الوثقى التى تألفت من خيار القوم ، وكادت هذه الجريدة تفتح آفاق العالم الإسلامى فى الهند ومصر والبلاد العربية والإسلامية الأخرى لولا كيد المستعمرين الذين وقفوا لها بالمرصاد ، فمنعت من دخول الهند ومصر ، وقد كتبت الجريدة بعد هذا المنع ما جاء فيه : « نلتمس من أبناء الأمم الشرقية أن يلقوا سلاح التنازع بينهم ويأخذوا حذرهم وأسلحتهم لدفع الضوارى التى فغرت أفواهها لالتهامهم ، ومن رأينا أن الاشتغال بداخل البيت إنما يكون بعد الأمن من طروق الناهب » .

ولما ظهرت حركة المهدى فى السودان كتب جمال الدين يحذر الإنكليز عاقبة سوء فعلهم ، وثابر على الكتابة يعدد خطيئاتهم ويفند حجج وزرائهم ، فاضطروا أن يرسلوا إليه يستدعونه ، فلما قدم لندن أثنى عليه اللورد سالسبورى وقال له : « إن بريطانيا تعلم مقدرتك ونحن نقدر رأيك قدره ، ويجب أن نسير مع حكومات الإسلام بمودة وولاء على قدر ما تسمح به ظروفنا ، لذلك رأينا أن نرسلك إلى السودان سلطانا عليه لتستأصل جذور الفتنة وتمهد السبيل لإصلاحات بريطانيا » .

فأجابه جمال الدين : تكليف غريب وسفه فى السياسة ما بعده سفه اسمح لى ياحضرة اللورد أن أسألك : هل تملكون السودان حتى تريدوا أن تبعثوا إليه بسلطان ؟ » .

أخذ جمال الدين يحث الناس على تفهم القرآن والتمعن بمعانيه ومقاصده وحضهم على الترفع عن التقليد وقال : إن من يفهم القرآن فهماً صحيحاً ويعرف صحيح الحديث ويثقف ثقافة تعينه على صحة الحكم بمنطق واضح يتمكن به من الاستنتاج فذلك هو المجتهد الذى يعرف الأحكام . ثم قال « ما معنى باب الاجتهاد مسدود ؟ وبأى نص سد باب الاجتهاد وقال ، إننى لا أرتاب بأنه لو فسح فى أجل أبى حنيفة ، ومالك والشافعى وأحمد بن حنبل ، وعاشوا إلى اليوم لداموا مجدين مجتهدين ، يستنبطون لكل قضية حكما من القرآن والحديث وكلما زاد تعمقهم وتمعنهم ازدادوا فهماً وتدقيقاً ، لقد اجتهدوا ، وأحسنوا جزاهم الله عن الأمة خيراً ، ولكن لا يصح أن نعتقد أنهم أحاطوا بأسرار القرآن كلها ، أو تمكنوا من تدوينها بكتبهم ، والحقيقة أنهم مع ما وصلنا من علمهم الباهر وتحقيقهم واجتهادهم إن هو بالنسبة إلى ما حواه القرآن من العلوم والحديث الصحيح من السنن والتوضيح إلا كقطرة من بحر أو ثانية من دهر والفضل بيد الله يؤتيه من يشاء من عباده ، وعلمهم مالم يكونوا يعلمون »

كان جمال الدين يجد فى القرآن عاصماً للأمم الإسلامية من الفرقة والخور والضعف وكان يرى فيه بعثاً للعزة والمنعة والشجاعة ، ويرى الجبن عاراً ما بعده عار ويبسط القول فيه ويقول : « ماذا يحمل الخائنين على الخيانة فى الحروب الوطنية ؟ أليس هو الجبن ؟ ماذا يبسط أيدى الأدنياء لدنيئة الارتشاء ؟ أليس هو الجبن ؟ إن أبناء الملة الإسلامية ينبغى أن يكونوا بمقتضى أصول دينهم أبعد الناس عن هذه الصفة المهينة فإنها أشد الموانع عن أداء ما يرضى الله ، وإنهم بما يعملونه إنما يبتغون رضاه ، ويعلم من فى القرآن هدايته أن الله قد جعل حب الموت علامة الإيمان ، وامتحن الله به قلوب المعاندين ، ويقول فى ذم من ليسوا بمؤمنين : « ألم تر إلى الذين قيل لهم كفوا أيديكم وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة ، فلما كتب عليهم القتال إذا فريق منهم يخشون الناس كخشية الله ، أو أشد خشية ، وقالوا ربنا لم كتبت علينا القتال لولا أخرتنا إلى أجل قريب . . الخ الآية .

ثم يقول لا يظن أحد أنه يمكن الجمع بين الدين الإسلامى وبين الجبن فى قلب واحد ، كيف يمكن هذا ؟ وكل جزء من هذا الدين يمثل الشجاعة ويصور الإقدام .

كان يدعو الناس أن يرجعوا إلى عقيدة الرعيل الأول من السلف الصالح ، تلك العقيدة الصافية التى لم تشبها أخلاط الفرق الناشئة بعد الصدر الأول من الإسلام التى توزعت أصوله وأخطأت فهمها واتبعت ما يبثه الزنادقة والباطنيون من البدع ، وما وضعه الناقمون على الإسلام من الأحاديث الكاذبة التى حورت الإسلام تحويراً شديداً ، وأبعدته عن أصوله ، ففرقت شمل هذه الأمة وأضعفت كيانها وتضعضعت أركانها بالتواكل الذى جاءها من أهل الحلول والتصوف وأهل الزهد وأهل الإباحة .

وبينما كان السيد جمال الدين يدعو الناس إلى سبل الرشاد ويهيب بهم أن ينفضوا عن رءوسهم غبار الماضى السحيق ويفيقوا من نومهم العميق ويتمسكوا بحبل الله ويعتصموا بالتوحيد ، كان يقف بالمرصاد لأعداء الإسلام الذين عبأهم الاستعمار فأخذوا يشنون عليه حرباً شعواء فألف رسالة يرد بها على الدهريين تدل على منطق واضح وفكر صادق الحكم ومما جاء فى هذه الرسالة :

« إن الدين أكسب عقول البشر ثلاث عقائد . وأودع نفوسهم ثلاث خصال كل منها ركن لوجود الأمم وعماد لبناء الهيئة الاجتماعية .

العقيدة الأولى : التصديق بأن الإنسان ملك أرضى ، وأنه أشرف المخلوقات . والثانية يقين كل ذى دين أن أمته أشرف الأمم ، وكل مخالف له فعلى ضلال باطل . والثالثة جزمه بأن الإنسان إنما ورد هذه الحياة الدنيا لاستحصال كمال يهيئه للعروج إلى عالم أرفع وأوسع من هذا العالم الدنيوى ، والانتقال من دار ضيقة الساحات كثيرة المكروهات جديرة بأن تسمى بيت الأحزان ، وقرار الآلام إلى دار فسيحة الساحات خالية من المؤلمات لا تنقضى سعادتها ولا تنتهى مدتها .

والخصال الثلاث : الحياء ، والأمانة ، والصدق ، أما الدهريون « الطبيعيون » فقد وضعوا مذهبهم على أساس بطلان الأديان كافة وعدها أوهاما باطلة ومجعولات وضيعة ، ووجوب إزالة العقائد الثلاث ومحو الخصال الثلاث من الإنسان ، وبنوا على هذا ألا حق لملة من الملل أن تدعى لنفسها شرفا على سائر الملل ، ولا أن تعتقد أنها أولى من غيرها بفضيلة ولا أجدر بمزية ، وقالوا إن الإنسان فى المنزلة كسائر الحيوانات وليس من المزايا ما يرتفع به عن البهائم بل هو أحسن منها خلقة وأدنى فطرة .

وقالوا وبئس القول : إن الحياء من ضعف النفس ونقصها فإذا قويت النفوس وتم لها كمالها ، لم يغلبها الحياء فى عمل ما ـ كائناً ما كان ـ

فيجب على زعمهم أن يسعى الإنسان فى معالجة هذا الضعف ومقاومته ليفوز بكمال القوة وهو قلة الحياء ، ثم قالوا وفى مقدمتهم أبيقور الدهرى وأتباعه رداً على القول : إن الإنسان أشرف المخلوقات » ما بال الإنسان معجب بنفسه مغرور بشأنه ، يظن أن الكون العظيم إنما خلق لوجوده الناقص ، ويزعم أنه أشرف المخلوقات وأنه العلة الغائية لجميع المكونات وأن الإنسان من جنونه على زعمهم اعتقاده أن له عوالم روحانية نورانية ومعاهد قدسية ينتقل إليها بعد الموت ويتمتع فيها بسعادة لا يشوبها شقاء ولذة لا يخالطها كدر ، ولهذا قيد نفسه بسلاسل كثيرة من التكاليف مخالفا نظام الطبيعة العادل ، وسد فى وجه رغبته أبواب اللذائذ الطبيعية وحرم حسه كثيراً من الحظوظ الفطرية مع أنه لا يمتاز عن سائر الحيوانات بمزية من المزايا .

والصدق والأمانة وغيرها من الأمور الوضعية التى تقيد الناس بها جهلا ولم يتقيد بها الحيوان إلى غير ذلك .

وقد أفاض السيد بتفنيد هذه المزعومات بمقدمات صادقة واضحة ، ومن ذلك : أن فى الاعتقاد بالله صونا للجماعة وحفظا لكيان المجتمع فإن الدولة لا تستطيع أن تحكم إلا بالظاهر ، ولا ترفع الحيف والظلم إلا إذا رأت ذلك بعينها ، ولكن من الذى يسيطر على الأمور التى تجرى فى الخفايا من الذى يردع السارق عن سرقته والقاتل عن القتل والمختلس عن الاختلاس ؟ لا شك فى أنه لا يوجد رادع غير الله ، ولا وازع غير الدين فالدين ضرورى للبشر ولتكوين مجتمعهم ، من أين للحكومة الاطلاع على خفيات الحيل وكامنات الدسائس ومطويات الخيانة ، ومستورات الغدر ؟

هب أننا أخذنا بقية أباطيل الدهريين وفرضنا تمكنهم من إزالة العقائد الثلاث والخصال الثلاث وتسنى لهم أن يبدلوا الحياء بقلة الحياء ،

والصدق بالكذب ، والأمانة بالخيـــانة ، وصون الأعراض بالهتك .
والإباحة ، والاشتراك . فبأى نظام تصان الحقوق وتحفظ هيئة الاجتماع ؟
كان هم جمال الدين أن يرى الإسلام قويا فى دولة قوية ، وكان لايجد حداً بين الدين والدولة ويرى أن أحدهما يكمل الآخر ، فالدين عنصر هام من عناصر مقومات المجتمع . والدولة لن يتم لها مجتمع لا دين له .

لقد بذل جمال جهده وأنفد عمره فى تحقيق هذا الرأى ، ولكن الإسلام كان موزع الأهواء والميول فتمكت به رواسب الماضى السحيق التى خلفتها السبئية والباطنية .

وجد فى السلطان عبد الحميد جانباً من الخير فأبان له النصح وأشار عليه أن يجعل من ولايات امبراطوريته التى تبلغ ثلاثين ولاية خديويات على غرار خديوية مصر ، تبقى كلها خاضعة للخلافة ، يأتمر الخديوى بأمر السلطان ، والعساكر فيها عثمانية تسرع لتلبية الأمر باللحاق بجيوش السلطان ، ورعية طائعة خاضعة ، فزوى عبد الحميد وجهه وأبى ، وقال لجمال : ماذا أبقيت أيها السيد لتخت آل عثمان ؟ » فقال جمال : يبقى جلالة مولاى السلطان ملك أولئك الملوك ، فإذا قويت هذه الخديويات فإنه سرعان ما تنضم إيران وأفغان والهند ويصبح الإسلام قوة عتيدة يرهب الغرب جانبها ، وتهدأ ثائرته على الإسلام .

ومن أجرأ الآراء التى كان يثيرها طلبه استعراب الأتراك وجعل اللغة العربية لغة الدولة ، فكان يقول : « لو أنصف الأتراك أنفسهم لاستعربوا وترأسوا ذلك الملك وعدلوا فى أهله وجروا على سنن الرشيد والمأمون على الأقل ولكانوا أعز جانباً وأغنى مملكة فى دول الأرض » ومما كان يحز فى نفسه أن الأتراك كانوا يجرون وراء تتريك العرب واستبدال اللسان العربى لسان الدين والأدب والفضائل باللسان التركى .

وكان ينبه العالم الإسلامى على أهمية مصر وموقعها ويقول :

فى صون مصر فى حوزة الملك الإسلامى وكشف الإنجليز عنها صون الممالك العثمانية ، وغلق لكل بلية مهيأة فى المسألة الشرقية » . وقال : « وعزة الحق إن ما كتبته عن حق مصر وما استنهضت من الهمم وما حذرت به من سوء المصير لو تلى على الأموات لتحركت أرواحهم ولو فرفت على أجداثهم ولأحدثت لأعدائهم أحلاما مزعجة ومراء مريعة وما قرعت آذان المسلمين والشرقيين عموماً بالحجج القاطعة ، وهتكت أستار الطامعين بالبراهين الساطعة ، وأظهرت فظائع حكمهم بمن حكموا محسوساً إلا لأقرب البعيد من زمن الاستعباد وأقصر طيات المسافة فى الذلة والمهانة لمن لم يسقط بعد من المقاطعات الشرقية » . هكذا كان جمال الدين يبشر وينذر ويحض النفوس ، ويحرك الهمم ويشير إلى مواطن الخطر ، أينما حل حلت معه فكرة العرب والإسلام ، إذا وقف فى الهند أشار إلى مواطن الخطر التى تهدد مصر ، وإذا ذهب إلى الآستانة ولى وجهه شطر المسجد الحرام ، وإذا ذهب إلى باريس كتب عن مصر وعن بلاد الإسلام . جبل دمه بحب العروبة واتجه فكره إلى إيجاد أمة قوية تحفظ هذا التراث الذى فيه العزة والمنعة . نفخ الصور فى آذانها فلم تتململ ولم تبعث وأنى له ذلك والعظام نخرة ليس لأحد قدرة على بعثها إلا الباعث القدير والأمل المرتقب .

ولما ترك جمال الدين مصر قال : « مصر أحب بلاد الله إلى وقد تركت لها الشيخ محمد عبده طوداً من العلم الراسخ وعرمرماً من الحكمة والشمم وعلو الهمم . »

وهو قول حق فقد كان محمد عبده فى الذروة من هذا الوصف شأنه فى علو الهمة شأن كل مبدع يريد بعث أمة وتكوين أجيال . أخذ محمد عبده علمه عن الأزهر وعن معاهد الدين فى أول أمره وقد استعصى عليه التعليم فى البداية ، ثم لان له فى النهاية ولكن ما كان هذا العلم يوائم هذه

الهمة ويوافق ذلك الذكاء حتى بعث الله لهذه الأمة جمال الدين الأفغانى فنزل مصر فيما نزله من بلاد الشرق الأدنى ، فكان كالغيث أنبت الخمائل فوق الربا فازدهرت وأثمرت . وكان الشيخ ثمرة من ثمار جمال الدين هيأه فيمن هيأ للنضال والإصلاح فى هذا الشرق الذى تعاقبت عليه المصائب واصطلحت عليه الأهواء والشرور فتركته يموج فى سحابة مظلمة لا يتبين فيها الرشد من الغى — لقد كان فى محمد عبده استعداد النبهاء ومواهب الأذكياء . جمع من علوم الأزهر ما وعى والتقى بجمال الدين فأخذ عنه الفلسفة والمنطق والحكمة . فكان من امتزاج هاتين الثقافتين ثقافة ذات لون خاص فيها روح الإسلام وعزته وجرأته وإقدامه وإباؤه وإذا بالمحفوظ من القرآن والحديث صور وأشكال وأخيلة تموج بالقوة والسمو . وإذا الأدب العربى الذى تعلمه الشيخ أداة من أدوات الفصاحة والبيان تنقل هذه الصور والأشكال إلى أذهان الناس واضحة بينة تهز المشاعر وتعطف القلوب وترشد العقل إلى الحكم الصحيح .

رأى الشيخ محمد عبده جواً من المفاسد الاجتماعية والسياسية وفوضى فى الأمور الدينية . فقد ساءت العقيدة ، وضعف الإيمان ، وساد الشرك وعادت عبادة الأوثان واشتغل الناس بالرقى والنذور والموالد وتعلقوا بالأرواح والأشباح وما إلى ذلك مما يضعف النفوس ويبعدها عن التوحيد ورأى فى فساد العقيدة إضاعة للأخلاق فماذا يفعل ؟

لقد رأى أن هذا الضعف المنتشر والفساد الشامل يرجعان إلى جهل الناس بأصول دينهم بالقرآن والحديث ووجد أن التعليم الدينى على أساس متين ركن ركين فى إعادة مجد الأمة ، فلجأ إلى القرآن فاتخذه عاصماً والحديث فجعله دليلا ودعا إلى اتباع آثار السلف الصالح ، لأن فى هذا الاتباع رجوعا إلى العقيدة السليمة من شوائب البدع فى هذه الأصول التقى الشيخ محمد عبده بابن تيمية وابن عبد الوهاب ، ووجد فيهما مثلين

من أمثلة الإصلاح ، سارا على نهج القرآن والسلف الصالح من الرعيل الأول فى صدر الإسلام . وإن كان يختلف عنهما بسعة الأفق وسعة الثقافة باطلاعه على الثقافة الغربية والثقافة الإسلامية .

التقى بهما فى توحيد الله ونبذ الخرافات والبدع ومحاربة الشرك والرجوع إلى القرآن والحديث فى توجيه الناس إلى السماء ليسموا ويرتفعوا عن التمرغ بالرغام على أقدام الأصنام ، فكل شىء على هذه الأرض ممكن يطرأ عليه التغيير والضعف ، أما الإله فى السماء فهو إله خالد ، لا تنطبق عليه مقاييسنا ، صفاته ليست كصفاتنا وأفعاله ليست كأفعالنا ، وما دام الأمر كذلك فهو واجب الوجود ، وما عداه داخل فى حيز الإمكانيات ، وما يدخل فى حيز الإمكانيات لا يستند إليه فى عبادة وتوجيه وإنشاء أمم وأجيال .

صدع محمد عبده بالحق فتكأكأت عليه الخصوم يرمونه بالزندقة والكفر لا لشىء سوى أنه موحد ، ينبذ الشرك ويحطم الأصنام ، وحسبك أن تجده يرد على الوثنيين والمشبهة والمجسمة والمركبة والمشركين فى سورة التوحيد أو سورة الإخلاص رداً واضح الحجة والبرهان :

« قل هو الله أحد » : الأحد هو الواحد الذى لا كثرة فى ذاته ، فهو ليس بمركب من جواهر مختلفة ، فليس بمادى ، ولا هو من أصول متعددة غير عادية كما يزعم بعض أرباب الأديان ، من أنه أصلان فاعلان أو أنه ثلاثة أصول تعتبر واحداً وهى متعددة ، سواء أعقل ذلك أم لم يعقل ، فإن الله برىء منه ، لأن العقلاء أجمعت على أن موجد العالم وهو الله واجب الوجود ، ووجوب الوجود يستلزم ببداهة العقل وحدة الذات لأن التعدد فى الذات مستلزم لافتقار المجموع إلى الأجزاء فلا يكون المجموع المسمى بالله أو موجد العالم واجب الوجود ، وكذلك الأفراد نفسها لا يكون كل واحد واجب الوجود لأنه يختلف عن الآخر بمميزه ،

وذلك المميز غير ما يشتركان فيه من الوجود فيكون كل منهما مركباً والمركب غير واجب كما ذكرنا ، فلم يبق إلا أن يكون واجب الوجود واحداً . فالله أحد .

« الله الصمد » من الكلمات الجامعة التى تملأ النفس مما قصد بها دون جهد ولا تعب، فهذه الآية تقول لك إن حاجة مافى الوجود لا تتوجه إلى غيره وأن محتاجا لا يجوز أن يتوجه فى طلب حاجته إلى سواه فقد أفادتنا أن جميع المسببات تنتهى إليه ، وجميع ما يسرى فيها من الوجود فهو من إيجاده ، وأن صاحب الاختيار كالإنسان إذا أراد أن يحصل مسبباً من سبب فعليه أن يبحث عن طريقة ارتباطه به على حسب ماأمره الله بالبحث والنظر والتدبير فى مخلوقاته ، ليعلم كيف يسرى الوجود الموهوب من واجب الوجود من الأسباب إلى المسببات ، ثم يذهب بها حتى يسندها إلى مبدئها وهو الأمر الإلهى ، هذا فيما يظهر فيه السبب والمسبب ويظهر فيه عمل الكسب والإرادة والقوى الممنوحة البشرية ، أما ماهو وراء ذلك مما لادخل للإرادة فيه فعلى صاحب الحاجة ألا يتوجه فى المعونة عليها إلا بعد الأخذ بالأسباب إلى الله وحده فهو المستأثر بالعمل فيما وراء ما جعل لك فيه عملا .

وقوله الصمد يشعر بأنه الذى ينهى الطلب مباشرة بدون واسطة ولا شفيع ، وهو فى ذلك يدعو إلى مايخالف عقيدة مشركى العرب الذين يعتقدون بالوسائط والشفعاء ، وكثير من أهل الأديان الأخرى يعتقدون أن لرؤسائهم منزلة عند الله ينالون بها التوسط لغيرهم فى نيل مبتغاهم فيلجئون إليهم أحياء ، أو أمواتاً ، ويقومون بين أيديهم ، أو عند قبورهم خاشعين خاضعين ، كما يخشون الله بل أشد خشية ، ثم هو الصمد فى تحديد الحدود العامة للأعمال ووضع أصول الشرائع فلا بد أن يرد إلى ما أنزل جميع مايقع من الاختلاف فيه وليس من المباح أن يرجع إلى قول غيره متى نطق صريح كتابه بخلافه ، وعلى الناس أن يرجعوا إلى الكتاب ،

فإذا لم يكونوا عارفين به رجعوا إلى العارف وطالبوه بالدليل منه وعليهم أن يهتموا بأن يعرفوا منه أصول ما يعتقدون وما يعملون فإن لم يفعلوا اختلف الآراء وحجبت المذاهب كتاب الله فدرس معناه وذهبت الحكمة من إنزاله عبثا لتعلق الناس بقول غير المعصوم وعماهم عن هدى المعصوم فكانوا بمنزلة من لم تأتهم رسالة وإنما يعملون بما يقول لهم زعماؤهم الذين لا يجدون دليلا على امتيازهم بالزعامة فيكونون مستمسكين بما لم ينزل به الله سلطاناً فيسقطون فى مهاوى الشقاء الدنيوى والأخروى .

فى تفسير هذه السورة تلتقى آراء محمد عبده وابن تيمية وابن عبد الوهاب فى وجوب الرجوع إلى توحيد الله والسمو بالمسلمين عن مواطن الشرك وحضهم على التمسك بكتاب الله الذى هو مصدر الشريعة الإسلامية ومصدر العزة والقوة . لم يمكن الزمن محمد عبده وجمال الدين أن يتموا رسالتهم فى نشر مبادئهم لإصلاح النفوس فقد دهمتهم قوة الاستعمار التى أخذت تمد أيديها مد الأخطبوط خراطيمه ، فدهشا وأخذا تارة يوجهان الأنفس إلى منابت العزة والقوة فى عقيدة التوحيد وتطهير النفوس ، وأخرى فى حثها على مقاومة المستعمر ودحض دسائسه . واتخذ من جريدة العروة الوثقى ميداناً لعملهما : يردان على المستعمر مكايده ، ويردان على هادمى عقيدة التوحيد ومهاجمى الإسلام ، ويردان على مثبطى الهمم . وقد أخذ « القضاء والقدر » مكاناً كبيراً فى جدلها ، إنهما أرادا أن ينتزعا من صدور المخطئين فهمه سوء الفهم ، وأن القدر ليس كما يعتقد أصحاب الجبر . إن القدر الذى يعتقد به المسلمون قد أمرنا به فى شطر العمل من حياتنا ، لا فى شطر البطالة والكسل . ولم يأمرنا الله أن نهمل فروضنا وننبذ ما أوجب علينا بحجة التوكل عليه فتلك حجة المارقين عن الدين الحائدين عن الصراط المستقيم .

إن الاعتقاد بالقضاء والقدر إذا تجرد عن شناعة الجبر تتبعه صفة الجرأة والإقدام ، وخلق الشجاعة والبسالة ويبعث على اقتحام المهالك

التى ترجف لها قلوب الأسود وتنشق منها مرائر النمور . هذا الاعتقاد يطبع الأنفس على الثبات واحتمال المكاره ، ومقارعة الأهوال ويحليها بحلى الجود والسخاء ويدعوها إلى الخروج من كل ما يعثر عليها بل يحملها على بذل الأرواح والتخلى عن نظرة الحياة كل هذا فى سبيل الحق الذى قد دعاها للاعتقاد بهذه العقيدة .

الذى يعتقد أن الأجل محدود والرزق مكفول ، والأشياء بيد الله يصرفها كما يشاء ، كيف يرهب الموت فى الدفاع عن حقه وإعلاء كلمة أمته أو ملته ، والقيام بما فرض الله عليه من ذلك ؟ وكيف يخشى الفقر مما ينفق من ماله فى تعزيز الحق وتشييد المجد على حسب الأوامر الإلهية ، وأصول الاجتماعات البشرية .

امتدح الله المسلمين بهذا الاعتقاد مع بيان فضيلته فى قول الحق « الذين قال لهم الناس ، إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيماناً وقالوا : حسبنا الله ونعم الوكيل ، فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء واتبعوا رضوان الله والله ذو فضل عظيم » .

هكذا أخذا يصححان خطأ المسلمين فى فهم عقيدتهم ، ويبعثان فى نفوسهم ذكريات أمجاد السلف الأولين الذين فتحوا العالم ونشروا الإخاء والعدالة كان لهذا الاتفاق العجيب بين هاتين الشخصيتين صيحة داوية فى الشرق العربى بلغة عربية متينة تستند على القرآن وعلى تعليم محمد ابن عبد الله صلى الله عليه وسلم التى لم تشبها شائبة البدع والخرافات ، وكانا فى حديثهما وخطبهما وكتابتهما حرباً على هذه البدع ووقفا لهذا الشرق الذى أخذت مطامع الأقوياء تمتد إليه فتنتقصه من أطرافه وأهله نيام فى غفلة عن عين الدهر اليقظ التى تفتحت للغرب ؛ لقد نشرا آراءهما فى جريدتهما التى أجملا مبادئها فيما يأتى :

١ — أن تكون خدمة للشرق فى بيان واجباته التى كان التفريط فيها موجباً لضعفه وسقوطه ، وتوضيح الطريق التى يجب سلوكها لتدارك ما فات والاحتراس من غوائل ما هو آت .

٢ — تبحث فى أصول الأسباب والعلل التى قصرت بهم إلى جانب ذلك التفريط فوقعوا فى هذه الحيرة الرابكة التى ضل بها المرشد وعميت فيها عليهم السبل فلا يدرون من أين تفجعهم الطوارق المزعجة .

٣ — تكشف الغطاء عن الشبه التى شغلت أوهام المترفين فضلوا مسالك الرشد ، وتزيح الوساوس التى أخذت بعقول المنعمين حتى أورثتهم اليأس من مداواة عللهم وشفاء أدوائهم .

٤ — تحاول إشراب الأفهام سهولة الأمر والنجاح فى المقاصد إذا عقدت العزائم .

٥ — وتبين للناس أن هذا النجاح مقصود بالتمسك بالأصول التى كان عليها أسلافنا التى هى كفيلة فى رد العزة والقوة لنا وقد تمسك بها بعض الدول الأجنبية فقويت وعزت .

٦ — وتنبه على أن الروابط بين الدول يجب أن تكون على أساس التكافؤ بالقوى وهذا التكافؤ هو الضامن لدوام العلاقات ، وإذا فقد التكافؤ فإن الرابطة تكون وسيلة لابتلاع القوى الضعيف .

٧ — تخبر أهل الشرق عامة والمسلمين خاصة ما يتهمهم به أعداؤهم وتدافع عنهم وتبين لهم ما يدور حولهم من الحوادث الجسام فى السياسة .

٨ — تراعى تقوية الصلات بين الأمم الإسلامية وتمكين الألفة بين أفرادها ، وتأييد المنافع المشتركة بينها ونصر السياسات القديمة التى لا تميل إلى الحيف والإجحاف بحقوق الشرقيين .

٩ — تتخذ هذه الجريدة مبدأ الصراحة والحق وتسير على صراط مستقيم وترسل إلى من تعرفه ومن يريدها مجاناً ليتداولها الأمير والحقير والغنى والفقير. حسبك أن تقرأ طرفا من تفسير القرآن ورسالة التوحيد للشيخ محمد عبده وتطلع على العروة الوثقى التى كان يحررها مع شيخه وإمامه السيد جمال الدين الأفغانى وتقرأ رسالة الدهريين التى ألفها جمال ونقلها إلى العربية تلميذه الشيخ محمد عبده.

لاشك فى أنك تجد روحا من نفحة سماوية فى شخصيتين أيقظتا نيام العرب والشرق الإسلامى ونبهتا على خطر يحدق به ونددتا بالبدع والخرافات التى ضعفت بها النفوس وضمرت الجسوم فذلت الرقاب التى نسيت قول الله تعالى فى كتابه العزيز:

« ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون ».

عبد الرحمن الكواكبى

نشأ عبد الرحمن الكواكبى فى مدينة حلب فى بيت دين وحسب، أما الحسب فإن أسرته تنحصر فيها نقابة الأشراف لهذه المدينة وهى مكانة لا ينالها إلا من له وشيجة نسب بأهل بيت النبوة وأما الدين فإنه تخرج فى مدرسة الكواكبية التى سميت باسم هذه الأسرة، درس علوم الدين وتفقه وتعلم التفسير وحفظ الحديث وبرع فى اللغة وأضاف إلى إتقان الفصحى إجادة الفارسية والتركية ونشىء فى بيت أبيه على العزة والكرامة والطبع المهذب حتى إذا شب واكتمل دخل ميدان الحياة يزينه علم وأدب وحسب وعزة تتمشى إلى الأبوة والجدود، فكان مثال أخيه المسلم فى صدر الإسلام عف اللسان، صريح القول، ثابت الجنان لا يخشى فى الحق لومة لائم، تفتحت له أبواب الرزق فى وظائف الدولة تارة وأخرى

فى التجارة والكسب الحلال، وطوراً بقلمه وآرائه يبثها فى جريدة ينشرها وصحيفة يكتبها، ورجل مثل هذا فى مثل ذلك الزمن لا يعدم الحساد، ترقبه أعين الناس والسلطة تخشى على نفسها أى نابغة ينبغ فى هذه الغفلة الراقدة فى مطاوى الزمن أن يكدر عليها صفوها، أو يهز كتفها وهى تمشى سادرة فى غلوائها، فأخذت تطارده وتضيق عليه منافذ الحرية والرزق حتى اتهم زوراً وعدواناً وأدخلوه السجن وحاكموه فبرأه الله.

ولما وجد بلدته جحيما تتأجج بالقسوة والبطش والخوف، هجرها وضرب فى أرض الله يفتش عن منأى للكريم من الأذى، فذهب إلى زنجبار والحبشة وأكثر شطوط شرق آسيا وغربها وأوغل فى أواسط الجزيرة العربية وقطع صحراء الدهناء حتى وصل اليمن على ظهور الجمال ثم عاد فألق عصا التسيار بمصر فكانت هذه الرحلات ميداناً لإحكام التجارب وتقوية الملاحظة، اطلع فيها على حال المسلمين فى هذا الشرق، وأبصر ما هم عليه من انهيار فى نواحى الحياة جميعها، فانكب يدرس ويبحث ويعلل ويستنتج ويحكم فكان صادق الحكم سديد المنطق.

بدأ حياته مثلما بدأها زميلاه: جمال الدين ومحمد عبده، القرآن مصدر أفكاره والعزة وحرية الرأى هدفه، والرجوع إلى آثار الأولين والتخلص من البدع دعوته.

وعندى أنه أوسع أفقاً منهما معاً، وإن كان مقلا موجزاً وكانا مكثرين، وهو على إقلاله لم يقل عنهما شأناً فى التأثير. ورب جملة فيها معنى خطبة وعبارة فيها أثر مقالة.

لقد بث محمد عبده آراءه فى تفسير القرآن وتدريسه وكتاب التوحيد والعروة الوثقى، وبث جمال الدين آراءه فى العروة الوثقى وكتاب الرد على الدهريين، وبعض الخطب ونصائح الحكام التى ورد ذكرها فى مذكراته، أما الكواكبى فقد قارع الاستبداد بكتابه «طبائع الاستبداد»

وهو يعلم قوة الخصم فى هذا الفراغ ، فلبث ثابت الجنان فصيح اللسان يهز قلمه كما يهز الكمى المشرفى لقد خضع الناس إلى العثمانيين الأتراك باسم الخلافة ، وخلدوا إلى السكينة والكسل وتركوا الأمر للطبيعة تطحنهم وتسقيهم ، حتى انقلبت جنان بلادهم إلى صحارى مقفرة ، وشاع الجهل والفقر والمرض والذلة ، واستغل الحاكمون بأمرهم هذه الحال فاقتعدوا مقعد الجبارة وتسموا بالخاقان الأعظم ، وحامى الحرمين وسلطان البرين والبحرين إلى غير ذلك من الألقاب التى تجفل منها نفوس الضعفاء وتعنو لها جباه الأذلة ، وطفقوا يتصرفون فى شئون الرعية كما يشاءون لاراد لأحكامهم ولا وازع لسلطانهم ، لا يتقيدون بنظام ولا بشرع ، وإذا ركب الراعى رأسه وسد على الناس أنفاس الحرية ، وخنق إرادتهم استعلى سلطانه وعظم بين هؤلاء الضعفاء شأنه ، فذلت نفوسهم ، وإذا ذلت النفوس ركبها التزلف والملق ، والعبودية وملك التأله عقل الحاكم فيرى نفسه السيد المطاع ويرى فى الرعية المسود الخاضع . فى هذه الغمرة من الفساد بين الراعى والرعية تطلع رءوس البدع وتحل الأباطيل مكان الحقائق وتجد الخرافات طريقها إلى قلوب الضعفاء لتأوى إليها ، وتسكنها وتجعل عليها غشاوة فلا تعقل القلوب ، ولا تسمع الآذان ، ولا تبصر العيون إلا من رحم ربك ، وإذا وصلت النفوس إلى هذا الدرك الأسفل انهارت قواعد الأخلاق واختلت موازين الحياة وأصبح المرء خائفا على عرضه وماله ودمه لا يعرف كيف يهدر دمه ولا يدرى متى يسلب ماله ويهتك عرضه ، وإذا خافت النفوس صغرت ، وإذا صغرت أصبحت تمثل الدعة والهدوء ، وتنفر من الطموح والسمو وفى كل ذلك معنى انهيار الأمة .

بمثل هذه المعانى أخذ الكواكبى يشرح فى كتابه «طبائع الاستبداد» نتائج الاستبداد ويعرف المستبد والمستبد به وعلى مثل هذا وضع كتابه

« أم القرى » استعرض فيه أحوال المسلمين وما وصلوا إليه وطلع على الناس بآراء صائبة وحضهم أن يخرجوا على هذا الفساد ويربئوا بأنفسهم عن هذه الذلة .

وجد الكواكبي أن انهيار الأمة العربية ما كان إلا لتهاونها فى الدين وتركها ثغراً فى حياتها مرت منها أباطيل المبتدعة فبعدت هذه بهم عن أصول الدين الحقيقية ولو كان المؤمنون يقرءون القرآن بإمعان وتدبر لما ذلوا ففى القرآن معانى العزة ومعانى القوة .

لهذا أخذ الكواكبي يوجه الناس إلى عقيدة التوحيد « لا نعبد إلا الله » ونبذ البدع والخرافات والتقليد الأعمى والرجوع إلى القرآن والأخذ بآثار السلف الصالح من هذه الأمة ، ابتدع كتابه « أم القرى » كما ذكرنا آنفاً على لسان ممثلين للبلاد الإسلامية جمعها وجعلهم على هيئة مؤتمر تعرض فيه أحوال المسلمين وأسباب فتورهم وانهيار قواهم وجعل مكة « أم القرى » مركزاً لهذا المؤتمر الذى كان فيه المؤمن الشامى والقدسى والإسكندرى والمصرى واليمنى والبصرى والنجدى والمدنى والمكى والتونسى والفاسى والإنكليزى والرومى والكردى والتبريزى والتاتارى والقازانى والتركى والأفغانى والهندى والسندى والصينى .

وجعل شعار المؤتمرين « لا نعبد إلا الله » وجعل جدول أعمال المؤتمر البحث فى :

١ — موضع الداء .
٢ — أعراض الداء .
٣ — جراثيم الداء .
٤ — ماهو الداء ؟
٥ — ما هى وسائل استعمال الدواء ؟
٦ — ما هى الإسلامية ؟

٧ — كيف يكون التدين بالإسلامية ؟
٨ — ما هو الشرك الخفى ؟
٩ — كيف تقاوم البدع ؟
١٠ — قانون تأسيس الجمعيات .

وبعد أن أخذ المؤتمرون مكانهم ، وتجادلوا فى شئون الأمم المنحطة قال الشامى :

« إننى أرى أن منشأ هذا الفتور هو بعض القواعد الاعتقادية والأخلاقية مثل العقيدة الجبرية التى من بعد كل تعديل فيها جعلت الأمة جبرية باطناً قدرية ظاهراً ، والحث على الزهد فى الدنيا والقناعة باليسير والكفاف من الرزق ، وإماتة المطالب النفسية كحب المجد والرياسة ، والتباعد عن الزينة والمفاخر والإقدام على عظائم الأمور وكالترغيب فى أن يعيش المسلم كميت قبل أن يموت وكفى بهذه الأصول مفترات مخدرات مثبطات معطلات لا يرتضيها عقل ولم يأت بها شرع .

ويرى القدسى : أن سبب الفتور هو تحول نوع السياسة الإسلامية حيث كانت « ديمقراطية » تماماً فصارت بعد الراشدين ملكية مقيدة بقواعد الشرع الأساسية ثم صارت أشبه بالمطلقة .

وتحكمت فيها آراء الدخلاء فرجحوا الأخذ بما يلائم بقايا نزعاتهم الوثنية فاتخذ العمال السياسيون ولا سيما المتطرفون منهم هذا التخالف فى الأحكام وسائل للإنقسام والاستقلال السياسى ، فنشأ عن ذلك أن تفرقت المملكة الإسلامية إلى طوائف متباينة مذهباً متعادية سياسة متكافئة على الدوام ، وهكذا خرج الدين من حضانة أهله وتفرقت كلمة الأمة فطمع به أعداؤها .

وقال التونسى : إن بلادنا من تأصل الجهل فى غالب أمرائنا المترفين

الأخسرين أعمالا الذين ضلوا وأضلوا سواء السبيل وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً . إنهم يتشدقون بالإصلاح السياسى مع أنهم وأيم الحق يقولون بأفواههم ما ليس فى قلوبهم ؛ يظهرون الرغبة فى الإصلاح ويبطنون الإصرار والعناد على ما هم عليه من إفساد دينهم ودنياهم وهدم مبانى مجدهم وإذلال أنفسهم والمسلمين وهذا داء عياء لا يرجى شفاؤه .

وقال المولى الرومى وهو من أهل القسطنطينية الذين حرم عليهم سياسة التلفظ بكلمات : حرية وجمعية ووطنى ، ومرادورشاد ، وخلافة وخلع ومبعوث ، ومعتوه ومختل إلى نحو ذلك من الألفاظ التى تمس سياسة الوهم .

قال هذا الرومى : عندى أن البلية فقدنا الحرية ، وما أدرانا ما الحرية هى ما حرمنا معناه حتى نسيناه ، وحرم علينا لفظه حتى استوحشناه ، وقد عرف الحرية من عرفها : بأن يكون الإنسان مختاراً فى قوله وفعله لا يعترضه مانع ظالم . ومن فروع الحرية تساوى الحقوق ومحاسبة الحكام باعتبار أنهم وكلاء ، وعدم الرهبة فى المطالبة ، وبذل النصيحة ، ومنها حرية التعليم وحرية الخطابة والمطبوعات وحرية المباحثات العلمية ومنها العدالة بأسرها حتى لا يخشى إنسان من ظالم أو غاصب أو غدار أو مغتال ومنها الأمن على الدين والأرواح والأمن على الشرف والأعراض ، والأمن على العلم واستثماره ، فالحرية هى روح الدين وينسب إلى حسان ابن ثابت الشاعر الصحابى (رضى الله عنه) قوله :

وما الدين إلا أن تقام شرائع   وتؤمن سبل بيننا وهضاب

وقال المجتهد التبريزى : يلوح لى أن انحطاطنا من أنفسنا إذ أننا كنا خير أمة أخرجت للناس نعبد الله وحده ، أى نخضع ونتذلل له فقط ونطيع من أطاعه ما دام مطيعاً له ، نأمر بالمعروف وننهى عن المنكر ،

أمرنا شورى بيننا نتعاون على البر والتقوى ولا نتعاون على الإثم والعدوان فتركنا ذلك كله ما صعب منه وما هان .

وأجاب المرشد الفاسى : إننا كنا على عهد السلف الصالح شريعتنا سمحاء واضحة المسالك معروفة الواجبات والمناهى فكان الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وظيفة لكل مسلم ومسلمة . . . ثم دخل بيننا أقوام ذوو بأس ونفاق أقاموا الاكتساب مكان الاحتساب وحصروا اهتمامهم فى الجباية وآلتها هى الجندية فقط فبطل الاحتساب وبطل الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر طبعاً ، فهذا يصلح أن يكون سببا من جملة الأسباب وقد يضاف إليه شركهم الخفى الذى لا يشعرون به .

وقال المحقق المدنى : إن فقد الرابطة الدينية والوحدة الخلقية لا يكفيان سبباً للفتور العام ، بل لا بد لذلك من سبب أعم وأهم ثم قال أما أنا فالذى يجول فى فكرى أن الطامة من تشويش الدين والدنيا على العامة بسبب العلماء المدلسين وغلاة المتصوفين الذين استولوا على الدين فضيعوه وضيعوا أهله ، وذلك أن الدين إنما يعرف بالعلم ، والعلم يعرف بالعلماء العاملين ، وأعمال العلماء قيامهم فى الأمة مقام الأنبياء فى الهداية إلى خير الدنيا والآخرة . ولكن بعض ضعيفى العلم وجدوا هذه المنزلة فوق طاقتهم فتحيلوا للمزاحمة والظهور مظهر العلماء العظماء بالإغراب فى الدين وسلوك مسلك الزاهدين ، ومن العادة أن يلجأ ضعيف العلم إلى التصوف كما يلجأ فاقد المجد إلى الكبر ، وكما يلجأ قليل المال إلى زينة اللباس والأثاث ، فصار هؤلاء المتعالون يدلسون على المسلمين بتأويل القرآن بما لا يحتمله محكم النظم الكريم فيفسرون مثلا البسملة أو الباء منها بسفر كبير تفسيراً مملوءاً بلغط لا معنى له ، أو بحكم لا برهان عليه ، ثم جاءوا الأمة بوراثة أسرار ادعوها وعلوم لدنيات ابتدعوها وتسنم مقامات اخترعوها ووضع أحكام نقضوها وترتيب قربات زخرفوها .

وهكذا يستمر السيد الكواكبي في نقده المجتمع الإسلامي حتى يتم في هذا النقد اثني عشر اجتماعاً يعقدها ويتخيل المتكلمين فيها الذين يفتشون عن الداء ليضعوا عليه الدواء ، ويلخص أقوالهم جميعاً بموجز من القول في جمل منها ما يجعلها أصولا ومنها فروعاً ، وإنا لذاكرون طرفاً مهماً منها ومحيلون القارىء على كتابه أم القرى الذي بسط فيه الكلام قال :

يستفاد من مذاكرات جمعيتنا المباركة أن هذا الفتور المبحوث فيه ناشيء عن مجموع أسباب كثيرة مشتركة فيه لا عن سبب واحد أو أسباب قلائل تمكن مقاومتها بسهولة ، وهذه الأسباب منها ماهو أصول ومنها ما هو فروع لها حكم الأصول ، وكلها ترجع إلى ثلاثة أنواع وهي أسباب دينية وأسباب سياسية وأسباب أخلاقية ، وإني أقرأ عليكم خلاصتها من جدول الفهرست الذي استخرجته من مباحث الجمعية رامزاً للأصول منها بحرف الألف وللفروع منها بحرف الفاء وهي :

(ا) الأسباب الدينية

من الأصول

١ — تأثير عقيدة الجبر على أفكار الأمة .

٢ — تأثير فتن الجدل في العقائد الدينية .

٣ — الاسترسال للتخالف والتفرق في الدين .

٤ — الذهول عن سماحة الدين وسهولة التدين به .

٥ — تشديد الفقهاء المتأخرين في الدين خلافاً للسلف .

٦ — إدخال العلماء المدلسين والمقابرية على العامة كثيراً من الأوهام .

٧ — إدخال العلماء المدلسين على الدين مقتبسات كتابية وخرافات وبدعاً مضرة .

٨ — إيهام الدجالين والمداجين أن فى الدين أموراً سرية وأن العلم حجاب .
٩ — اعتقاد منافاة العلوم الحكمية والعقلية للدين .
١٠ — الغفلة عن حكمة الجماعة والجمعة وجمعية الحج .

ومن الفروع فى هذا الباب

١١ — تهوين غلاة الصوفية الدين وجعلهم إياه لهواً ولعبا .
١٢ — إفساد الدين بتفنن المداجين بمزيدات ومتروكات وتأويلات .
١٣ — التعصب للمذاهب ولآراء المتأخرين وهجر النصوص ومسلك السلف .
١٤ — العناد على نبذ الحرية الدينية جهلا بميزتها .
١٥ — تطرق الشرك الخفى أو الصريح إلى عقائد العامة .

(ب) الأسباب السياسية العامة
من الأصول

١ — السياسة المطلقة من السيطرة والمسئولية .
٢ — حصر الاهتمام السياسى بالجباية والجندية فقط .
٣ — اعتبار العلم عطية يحسن بها الأمراء على الأخصاء وتفويض خدم الدين للجهلاء .
٤ — قلب موضوع أخذ الأموال من الأغنياء وإعطائها الفقراء
٥ — إبعاد الأمراء النبلاء والأحرار وتقريبهم المتملقين والأشرار .

ومن الفروع فى هذا النوع

٦ — فقد قوة الرأى العام بالحجر والتفريق .
٧ — مراغمة الأمراء السراة والهداة والتنكيل بهم .

٨ — فقد العدل والتساوى فى الحقوق بين طبقات الأمة .
٩ — ميل الأمراء طبعاً للعلماء المدلسين وجهلة المتصوفين .

(ﺣ) الأسباب الأخلاقية

من الأصول

١ — الاستغراق فى الجهل والارتياح إليه .
٢ — انحلال الرابطة الدينية الاحتسابية .
٣ — التباعد فى المكاشفات والمفاوضات فى الشئون العامة .
٤ — فقد التناصح وترك البغض فى الله .
٥ — غلبة التخلق بالتملق تزلفاً وصغاراً .
٦ — فقد التربية الدينية والأخلاقية .

وأضاف السيد الكواكبى إلى تلك الأسباب أسباباً أخرى منبعثة عن الخور فى سياسة الدولة العثمانية وإدارتها ومظهر ذلك كما يعتقد الكواكبى فى توحيد قوانين الإدارة والعضوية مع اختلاف طبائع أطراف المملكة وتباين أهلها فى الجنس والعادات ، زد على ذلك تنويع القوانين الحقوقية وتشويش القضاء فى الأحوال المتماثلة .

ويقول الكواكبى إن من أسباب الخور فى الدولة تمسكها بأصول الإدارة المركزية مع ارتباك هذه الإدارة بما يصيبها من عدم الالتفات إلى توحيد الأخلاق والمسالك فى الوزراء والولاة والقواد ، واضطرار الدولة لاتخاذهم من جميع الأجناس والأقوام الموجودين فى المملكة .

زد على ذلك أن الدولة درجت على قاعدة اختلاف الجنسين بين ولاة الأقاليم وأهلها لكى تأمن غائلة الاتفاق عليها ، كذلك درجت الدولة على التمييز الفاحش بين أجناس الرعية فى الغنم والغرم فى المناصب والارتزاق من بيت المال ، وقد أصاب العرب غرم كبير مع أنهم يكونون ثلثى رعيتها .

ومما زاد فى ضعف الدولة تساهلها فى انتخاب العمال والمأمورين والإكثار منهم بغير لزوم ، وإنما يقصد فى انتخابهم إعاشة العشيرة والمحاسيب والمتملقين . ولقد كانت تتلافى ضعفها بالضغط على الأفكار المتنبهة لكيلا تسمو وتنمو وتتطلع على مجارى الإدارة فى محاسنها ومعايبها ، مع أن مثل هذا الضغط لا يؤثر على النمو الطبيعى ، وإنما هو عبث محض لا يتأتى منه إلا الإغراء والتحفز والحقد على الإدارة .

أما فى إدارة بيت المال فكانت مطلقة اليد تصرف دون مراقبة وتنشر جزافاً بغير موازنة ، وتسرف بلا عتاب وتتلف بغير حساب حتى صارت المملكة مديونة للأجانب بديون ثقيلة انهكت كاهل المملكة .

وفى إدارة المصالح المهمة السياسية ما كانت تستشير ولا تقبل المنافسة ولو كانت هذه الإدارة مشهودة المضرة فى كل حركة وسكون وكان دأبها فى تغطية هذه المعايب المداراة واسكات المطلعين على المعايب حذراً من أن ينفثوا ما فى الصدور فتعلم العامة حقائق الأمور ، والعامة من إذا علموا قالوا ، وإذا قالوا فعلوا وهناك الطامة الكبرى . وأما إدارة السياسة الخارجية فكانت تديرها بالتزلف والإرضاء والمحاباة بالحقوق والرشوة بالامتيازات وبذل النقود للجيران بمقابلة تعاميهم عن المشاهد المؤلمة التخريبية وصبرهم على الروائح المنتنة الإدارية .

ولقد أوضح الكواكبى اتساع الهوة بين العرب والترك وضرب أمثلة من العبارات والأسماء التى كان الأتراك ينبزون العرب بها .

وبعد ذكر هذه الأسباب والعلل فى فتور العالم الإسلامى التى أوردها على لسان جمعية المتخيلة طالع بهذا الرأى فقال :

وحيث كانت الجمعية لا يعنيها غير النهضة الدينية رأت من الضرورى أن تربط آمالها بالجزيرة وما يليها وأهلها ومن يجاريهم وأن تبسط لأنظار الأمة ما هى خصائص الجزيرة وأهلها والعرب عموماً وذلك لأجل رفع

التعصب السياسي أو الجنسي، ولأجل إيضاح أسباب الجمعية للعرب فنقول :

١ — الجزيرة هي مشرق النور الإسلامي فيها الكعبة المعظمة، وهي أنسب المواقع لأن تكون مركزاً للسياسة الدينية لتوسطها بين أقصى آسيا شرقاً وأقصى أفريقيا غرباً، وهي أسلم الأقاليم من الأخلاط جنسية وأديانا، ومذاهب، وأبعد الأقاليم عن مجاورة الأجانب وأفضل الأراضي لأن تكون ديار أحرار لبعدها عن الطامعين والمزاحمين نظراً لفقرها الطبيعي وعرب الجزيرة هم ومن يتبعهم من العشائر القاطنة بين الفرات ودجلة والنازحين إلى أفريقيا مؤسسو الجامعة الإسلامية لظهور الدين فيهم .

وعرب الجزيرة مستحكم فيهم التخلق بالدين لأنه مناسب لطبائعهم الأهلية أكثر من مناسبته لغيرهم وهم أعلم المسلمين بقواعد الدين، لأنهم أعرقهم فيه ومشهود لهم بأحاديث كثيرة بالمتانة في الإيمان .

وعرب الجزيرة أكثر المسلمين حرصاً على حفظ الدين وتأييده والفخار به خصوصاً والعصبية النبوية لم تزل قائمة بين أظهرهم في الحجاز واليمن وعمان وحضرموت والعراق وأفريقيا ولا يزال الدين عندهم حنيفاً سلفياً بعيداً عن التشويش والتشديد وهم أقوى المسلمين عصبية وأشدهم أنفة لما فيهم من خصائص البدوية، وأمراؤهم جامعون بين شرف الآباء والأمهات والزوجات فلم تختل عزتهم، وهم أقدم الأمم مدنية مهذبة بدليل سعة لغتهم وسمو حكمتهم وأدبياتهم وأقدر المسلمين على تحمل قشف المعيشة في سبيل مقاصدهم وأنشطهم على التغرب والسياحات وذلك لبعدهم عن الترف المذل أهله، وهم أحفظ الأقوام على جنسيتهم وعاداتهم فهم يخالطون ولا يختلطون .

وعرب الجزيرة أحرص الأمم الإسلامية على الحرية والاستقلال

وإباء الضيم ومن ذلك عدم انقياد أهل اليمن ومن يليهم للعثمانيين والعرب عموماً لغتهم أغنى لغات المسلمين في المعارف ومصونة بالقرآن الكريم من أن تموت .

وهي اللغة العمومية بين المسلمين كافة البالغ عددهم ٣٠٠ مليون وهي اللغة الخصوصية لمائة مليون من المسلمين وغير المسلمين . والعرب أقدم الأمم اتباعاً لأصول تساوي الحقوق وتقارب المراتب في الهيئة الاجتماعية وأعرفها في أصول الشورى في الشئون العمومية ، وأهدى الأمم لأصول المعيشة الاشتراكية وأحرصها على احترام العهود عزة واحترام الذمة إنسانية ، واحترام الجوار شهامة ، وبذل المعروف مروءة ، والعرب أنسب الأقوام لأن يكونوا مرجعاً في الدين ، وقدوة للمسلمين حيث كان بقية الأقوام قد اتبعوا هديهم ابتداء ، فلا يأنفون من اتباعهم أخيراً .

فهذه الأسباب التي جعلت جمعية أم القرى أن تعتبر العرب هم الوسيلة الوحيدة لجمع الكلمة الدينية بل الكلمة الشرقية .

وهكذا يستنهض الكواكبي بني قومه يذكرهم بأمجادهم ومآثرهم ويشرح خصائصهم ، وصفاتهم الكامنة فيهم ، ويبين لهم أن هذه الصفات إذا عادت للوجود كافية أن تعيد للأمة قوتها وترجع إليها سلطانها .

وأن الأمة العربية فيها من عناصر القوة ما يؤهلها أن تتزعم العالم الإسلامي مرة أخرى .

الفصل التاسع

اليقظة العربية الحديثة

تمهيد

أنهيت فى مختتم الفصل الثامن بحث الصراع بين الموالى والعرب ، وكنت أود الاكتفاء بذلك لولا أنى وجدت أن من اللازم أن أضيف ملحقاً أذكر فيه شيئاً من مظاهر اليقظة العربية الحديثة إلى مواد البحث ليكون من ذلك كله سلسلة مكتملة الخدمات .

لقد وصل بى البحث فى رد الفعل على آثار الموالى إلى مفتتح القرن التاسع عشر ووجدت ذلك متمثلا بالأصول المنحدرة من تعاليم ابن تيمية التى تبناها ابن عبد الوهاب ثم جمال الدين ومحمد عبده والكواكبى .

وكانت آراء هؤلاء الأماثل تكاد تنحصر فى مجملها فى العودة إلى العقيدة الصحيحة التى جاء بها السلف الصالح من آبائنا الأولين فى صدر الإسلام والرجوع إلى هذه الروحانية السامية الكامنة فى أسرار القرآن والمأثور عن النبى (ص) وصحبه الكرام وأمجاده الأجداد .

أجل ! لقد كان ما قام به هؤلاء الأماثل رد فعل لأعمال الباطنية والسبأية التى هاجمت العقيدة بعقائد أخرى وعارضت تعاليم الإسلام بتعاليم أخرى لتأتى على أصول هذه العقيدة وتضع مكانها بناءاً مهلهلا فكان من جراء ذلك هذا الأثر العنيف الذى ترك الأمة مثخنة بالجراح تنوء بالأعباء وتئن من الآلام على أنى لن أقول إن هؤلاء الأماثل ماساهموا فى إيقاظ الرقود فى النهضة الحديثة فإن أصواتهم وإن كانت

رد فعل لنتائج الباطنية واليهودية السبأية فإنهم بعثوا فى النفوس آمالا فى توجيهها وإرشادها ولقد جاوز جمال الدين الأفغانى ذلك ونادى بطلب استعراب الأتراك بدل استتراك العرب ورجا أن يتحقق ذلك لتكون الدولة العثمانية فى مركز يجعلها تحكم هذه الأمة وتسير على أساس ما سار عليه الرشيد والمأمون فى ازدهار حضارة جديدة أما الكواكبى فقد كان يرى أن الأمة العربية أولى بالخلافة وأولى بالحكم . وكاد ابن عبدالوهاب يؤسس إمبراطورية عربية لولا تدخل الأجانب فى الأمر ولولا طموح محمد على خديوى مصر فى أن تكون له هذه المكانة .

كان من جراء ما فعلته مكائد اليهودية السبأية والباطنية أن انهارت تلك الامبراطورية المترامية الأطرف وتفاورت عليها قوى الشرق فى غزوات التاتار وقوى الغرب فى الحروب الصليبية وظلت الأمة تتأرجح بين القوة والضعف وتمزقت أوصالها إلى دويلات وتعدد الحكام فيها وصارت تلك الرقعة الواسعة تحكم بعدة عناصر من مغول وترك وشراكسة وعرب وظلت على ذلك ردحاً من الزمن حتى نشأت الدولة العثمانية فى آسيا الصغرى وقويت شوكتها ففتحت القسطنطينية عام ١٤٥٣ ومشت جيوشها غازية موفقة حتى وقفت على أبواب فينا .

ولقد رأى المسلمون فى هذه الدولة الفتية قوة لحماية العقيدة وأخذوا ينظرون إليها نظر المنقذ لذلك لم يكن بدعاً أن يسكت العرب على كل ما كانت تقوم به فى بادئ أمرها .

العرب والترك

اندفع العرب من قلب الجزيرة فاتحين ومبشرين ، فاجتمعوا بإخوانهم فى الشام والعراق ، ثم انتشروا فى البلاد ، فوصلوا إلى إفريقيا وعبروا البحر إلى الأندلس وركزوا أعلامهم على جبال البرنات ، وساروا شرقاً

حتى وصلوا إلى كاشغر ، ولقد انتشرت اللغة العربية وأصبحت لغة الدين لجميع المسلمين ، يذكرون الله بها ويقرؤون القرآن وصارت لغة الكلام والأدب والعلم للأمة التى تقطن المنطقة التى تبدأ بسواحل الأطلنطى فى الغرب مارة بالشواطىء الجنوبية للبحر الأبيض المتوسط وتنتهى شرقاً بحدود بلاد إيران .

ولقد انتقلت الخلافة العباسية إلى القاهرة بعد ما دمر هولاكو بغداد غير أن القاهرة لم تحتفظ بكيانها ، فاضطربت فيها الأحوال . وكانت الدولة العثمانية تزداد قوة فى كل يوم وكان فتاء السن وحرارة الشباب يساعدانها على النمو فى ذلك الزمان ، فافترص السلطان سليم العثمانى الفرصة وخلص العراق من حكم الفرس عام ١٥١٥ وفتح مصر عام ١٥١٧ واضطرت الحالة فى تلك الأيام الخليفة العباسى أن ينزل له عن سلطانه الروحانى وزعم بعض المؤرخين أن رسلا من سدنة الكعبة جاءوا إلى مصر يحملون مفاتيحها وبذلك صارت بغداد ودمشق ومكة وبيت المقدس والقاهرة فى حوزة آل عثمان واستطاعت هذه الدولة أن تستولى على تونس وطرابلس الغرب وبرقة دون عناء يذكر كما انضمت إليها الجزائر طوعاً . وبقيت مراكش مستقلة وبلغت سلطة الدولة العثمانية ذروتها أيام سليمان القانونى وموجز القول أن قلب الجزيرة واليمن وعدن صارت فى منطقة نفوذها أيضاً . وبذلك اجتمع الشعبان العربى والتركى تحت لواء الخلافة العثمانية وأصبحا وجهاً لوجه ، واستسلم العرب لهذا الحادث الجلل الذى حول صفحة التاريخ ونقل الخلافة من قريش إلى الترك وارتبط التاريخ الإسلامى للأمتين برباط واحد وكان الأتراك يحترمون العرب لمكانتهم المعروفة فى الإسلام فإن العرب هم الذين حملوا هذه العقيدة إلى العالم ونشروها وحموها حتى استقرت فى أرجاء المعمورة

وقد أضاءت قلوب الأتراك فيمن أضاءت من قلوب الأمم . لقد اشتركت الأمتان فى السراء والضراء وصار العربى يحارب مع أخيه التركى جنبا إلى جنب دفاعاً عن العقيدة . وأخذ العرب مراكزهم فى الدولة .

وهنا تململت اليهودية العالمية مرة أخرى وأخذت تنشر دعاياتها فى العالم الغربى على ألسنة علمائها وساستها والقائمين بالاستشراق من أبنائها . وطفقت تصور للغربيين الإسلام فى صورة الطامح للفتح واكتساح العالم خاصة بعد أن وقف العرب فى يوم من الأيام على جبال البرنات ووقف الأتراك على أبواب فينا ، ورأى المستشرقون قوة الإسلام متمثلة فيما تسمعه آذان المؤمنين فى الآيات التى تقول لهم : إنما المؤمنون الذين إذا ذكرَ الله وجلت قلوبهم ، وإذا تُليت عليهم آياته زادتهم إيمانا وعلى ربهم يتوكلون .

« يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفاً فلا تولوهم الأدبار ، ومن يولهم يومئذ دبره إلا متحرفاً لقتال أو متحيزاً إلى فئة فقد باء بغضب من الله ومأواه جهنم وبئس المصير » .

« يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه وأنه إليه تحشرون ، واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة ، واعلموا أن الله شديد العقاب ، واذكروا إذ أنتم مستضعفون فى الأرض تخافون أن يتخطفكم الناس فآواكم وأيدكم بنصره ، ورزقكم من الطيبات لعلكم تشكرون .

يا أيها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول وتخونوا أماناتكم وأنتم تعلمون .

يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون وأطيعوا الله ورسوله ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم واصبروا إن الله مع الصابرين .

وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم ، وما تنفقوا من شيء في سبيل الله يوف إليكم وأنتم لا تظلمون ، وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله إنه هو السميع العليم .

قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يدوهم صاغرون . هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله .

إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويُقتلون وعداً عليه حقاً فى التوراة والإنجيل والقرآن ومن أوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذى بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم .

وما كان المؤمنون لينفروا كافة ، فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا فى الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون .

يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار وليجدوا فيكم غلظة واعلموا أن الله مع المتقين .

هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله وكفى بالله شهيدا محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعاً سجداً يبتغون فضلا من الله ورضوانا سيماهم فى وجوههم من أثر السجود ذلك مثلهم فى التوراة ومثلهم فى الإنجيل كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجراً عظيما .

إنما المؤمنون إخوة ، فأصلحوا بين أخويكم واتقوا الله لعلكم ترحمون .

والقرآن مملوء بمثل هذه الآيات التى فيها الشدة والعزة والصبر والثبات والإنذار والتبشير والوعد والوعيد والترغيب والترهيب ، والإخاء والترابط والتراحم والتعاون والنزوع إلى الحرية .

وتميل الآيات التى تثقف الأنفس وتهذبها وتلين الطباع وتتمم مكارم الأخلاق لتكوين الشخصية ، شخصية الأمة المحترمة .

كما لفتت اليهودية أنظار الغرب إلى موقع البلاد العربية الستراتيجى والاقتصادى ، فإن كعب الأحبار المتآمر على الخليفة الثانى لا يختلف عن عبد الله بن سبأ الذى أطلق فكرة تأليه البشر وتآمر على قتل الخليفة الثالث وأشعل أتباعه نار الفتنة فى واقعة الجمل ولا يختلف عن يعقوب ابن كلس وزير الإخشيدى الذى دل المعز لدين الله الفاطمى على عورات البلاد فى حكم سيده وهذا لا يختلف عن دزرائيلى الذى اشترى لقومه أسهم قناة السويس واحتجن للانكليز جزيرة قبرص .

وهكذا تلفتت الأمم ذات المصالح إلى مكانة البلاد العربيـــة والامبراطورية العثمانية وفتحت عيونها على هـذه الدعايات اليهودية وربطت كل ذلك بالأمور الاقتصادية والمواقع الستراتجية والمصالح السياسية وكان من مجموع ذلك كله فكرة الانتباه إلى الشرق العربى بصورة خاصة .

وكان أشد دول الغرب اتجاها إليه بريطانيا وفرنسا وإيطاليا وروسيا . أخذت هذه الدول تتدخل فى شئون الدولة العلية فى كل فرصة تراها وبدأت بريطانيا تنظر إلى الخليج العربى وأجزاء تركيا الأخرى نظر الطامع وشرعت فرنسا تنظر إلى شمال أفريقيا نظر المستأثر صاحب الحق .

ففى عام ١٨٧٨ أخذت بريطانيا قبرص من الدولة العثمانية نظير دفاعها عنها فى مؤتمر برلين لتكمل سلسلة ممتلكاتها فى البحر الأبيض

المتوسط . ثم التفتت إلى الجنوب حيث يمر طريق الهند فأخذت تبسط نفوذها على أطراف الجزيرة العربية من الجنوب والشرق فاستولت على عدن وحضرموت عام ١٨٣٩ وشرعت تعقد مع شيوخ المقاطعات المجاورة للخليج والجزر الموجودة فيه سلسلة من المعاهدات ما كانت إلا سلاسل وقيوداً أدت إلى الاستيلاء عليها وضمها إلى التاج البريطانى وكانت القاعدة الأولى التى وثبت منها بريطانيا على العراق فى الحرب العالمية الأولى .

وكما لعبت اليد اليهودية فى أخذ قبرص أخذت تلعب فى مصر ، فقد استطاع دزرائيلى أن يشترى لبريطانيا ١٧٦ سهماً من أسهم قناة السويس من الخديوى الذى أثقلته الديون فأصبح لها ٢٠٧ آلاف سهم من أصل (٤٠٠٠) سهم فى القناة ، وبهذا أخذ أخطبوط الاستعمار يمد خراطيمه وانتهزت بريطانيا فرصة اضطراب البلاد فاتفقت مع فرنسا لإرسال أسطول مشترك إلى الإسكندرية واتخذت عذراً تافهاً لإطلاق يدها ومدافعها على هذه البلاد الآمنة وفى ١١ حزيران عام ١٨٨٢ ضرب الأسطول البريطانى مدينة الإسكندرية ودك حصونها ثم أنزلت بريطانيا جنودها إلى البر ، وفى ١٣ إيلول عام ١٨٨٢ التقت جيوشها بجيش عرابى عند التل الكبير فغلب الجيش المصرى على أمره وسارت جيوش بريطانيا إلى القاهرة فاحتلتها ثم أضافت السودان إلى ذلك . ولا تزال مصر تنوء بهذا الاغتصاب وتعمل ليل نهار للخلاص منه .

وفى عام ١٨٣٠ أقدمت فرنسا على فتح الجزائر فأنزلت جنودها منتحلة أعذاراً تافهة ونشرت المنشورات المنذرة بالاستيلاء على البلاد وإخراج العثمانيين منها فغضب العرب لهذا الخطب الجلل وانقضوا على فرنسا وأجبروا جيوشها على التقهقر إلى الشواطئ ، ولكن ما لبث الأمر قليلا حتى عاد الفرنسيون واستولوا على وهران فانتشر الذعر وسادت

الفوضى وأثمر العرب فيما بينهم ، وكان من بين المؤتمرين محيى الدين الحسينى والد عبد القادر الجزائرى ، وبعد المداولة والتشاور قر الرأى على مبايعة سلطان مراكش مولاى عبدالرحمن ، فقبل وأخذ الجزائريون يخطبون باسمه على المنابر فغضب الفرنسيون من أجل ذلك . وبعثوا إلى عبد الرحمن يهددونه بالحرب أو يسحب جنوده من الجزائر فخشيهم وانسحب .

وأراد الجزائريون مبايعة محيى الدين فأبى ودلهم على ولده عبد القادر الجزائرى فوافقوا وبايعوه فعقد العزم على طرد الفرنسيين ونازلهم وغلبهم واضطر قائدهم على الصلح ، وعقد معه معاهدة عام ١٨٣٤ ولكن الفرنسيين شأن كل مستعمر لا يرعون إلا ولا ذمة ، وكان عبد القادر يعتقد أنهم سوف لا يفون بما عاهدوا الله عليه فأخذ يعد لهم مااستطاع من قوة ومن رباط الخيل ، فشرع يصب فى بلاده المدافع ويصنع الأسلحة استعداداً لمنازلتهم ، وظلت الحرب بينه وبينهم سجالا وكثيراً ماكانت الغلبة له .

وهنا أيضاً بدأت اليد اليهودية تلعب واستولى الفرنسيون على تلمسان ووضعوا ضريبة على يهودها فندم اليهود وأخذ يتمنون العودة إلى عبد القادر فعاد إليهم واسترجعها .

وعادت فرنسا تفاوضه بأمر الصلح وبعد المداولات تم الأمر على أن يتعهد عبد القادر بعدم السماح لأى دولة أجنبية بالاستيلاء على شىء من شواطئ بلاده إلا بمشورة فرنسا وأن يكون لكل من الأمير وفرنسا قناصل فى بلاد الآخر .

فلما اطمأن الأمير إلى هذه المعاهدة شرع ينظر فى إصلاح أمور بلاده الداخلية وابتنى مدينة سماها تقدمة ونظم جيشه تنظيما غربياً وأنشأ

المدارس في كل مكان وعزم على افتتاح جامعة تجمع بين الثقافة الإسلامية وبين العلوم الحديثة ، وبينما كان الأمير منصرفاً إلى إصلاحاته نقضت فرنسا عهدها أيضاً . فاستولت على قسطنطينية واعتذرت عن عملها بأن المعاهدة تقضى بذلك مستندة إلى تحريف فى نصوصها .

وفى عام ١٨٤٠ عززت فرنسا قوتها تحت إمرة قائد جديد فضيق الأمر على عبد القادر .

كان الأمير صنع مدينة متنقلة سماها الزملة ، فلما سمع الفرنسيون بها أخذوا يعملون ليل نهار حتى أحرقوها ، وكان لهذه المدينة من الفوائد مالها .

ظل عبد القادر يحارب الفرنسيين خمسة عشر عاماً حتى أنهكه التعب وأسلمته الخيانة ، فقد نفض سلطان مراكش يده منه بل أعان الفرنسيين عليه ، ولما بلغ منه اليأس مبلغه سلم نفسه إلى الفرنسيين وبهذا التسليم طويت صفحة عربية جليلة طواها الاستعمار وانطلقت فرنسا تعمل فى البلاد ما تشاء وتريد . أكرم الفرنسيون مثواه وفرحوا بهذا التسليم ، ثم مالبثوا أن اعتقلوه وسجنوه فصبر على هذا المكروه . ثم تيقظ ضميرها فأطلقت سراحه ، واختار دمشق مقراً له ، وبقى فيها معززاً مكرماً يؤلف ويرشد ، وكان وجوده فى دمشق عاملا من عوامل إيقاظ الرقود .

انتهت فرنسا من الجزائر فوجهت عنايتها إلى تونس مع أن إيطاليا كانت قد وضعتها نصب عينها طمعاً فى الاستيلاء عليها معتقدة اعتقاداً جازماً أن ذلك من حقها .

وفى عام ١٨٨١ احتلت فرنسا تونس وفرضت الحماية عليها بمعاهدة أملتها على الباى ، وكان سبب ذلك أن لفرنسا ديناً على تونس بمبلغ قدره

١٢٥ مليون فرنك وقد عجزت تونس عن أدائه وتشبثت بأمور تافهة أرسلت على أثرها حملة تأديبية ، ووقع الباى بعد ذلك معاهدة تضطره على الاعتراف بأن لفرنسا حق الرقابة على ماليتها كما لها الحق فى إدارة شئون تونس الخارجية .

وفى معاهدة الحماية التى وضعت على تونس جعلت فرنسا للباى جعلا يقيم أوده ويصلح البلاد وقدر هذا الجعل ١٢٥ مليون وبذلك انسلخت تونس عن البلاد العثمانية بعد أن كانت جزءاً منها بالاسم .

وأخذت فرنسا تزحف على مراكش وهو القسم الأخير من البلاد العربية من جهة الغرب ، وكان هذا القسم العربى مستقلا لم يخضع للعثمانيين لمناعته وقوة شكيمة أهله ، ولكن الاستعمار أبى أن يتركه حراً وفعلت فرنسا الفعائل فى إقناع الدول المتزاحمة حتى تم لها الأمر بتأييد بريطانيا وأمريكا وروسيا ، ولم يزاحمها غير ألمانيا وأسبانيا ، وأطلقت فرنسا يد أسبانيا فى الريف المغربى وشرعت تنفذ خططها خطة بعد خطة حتى كانت اتفاقية فاس فى ٤ أيلول عام ١٩١١ حيث اعترفت ألمانيا بحق فرنسا فى مراكش .

وفى اتفاقية يناير عام ١٩٠٦ انتدبت فرنسا لحماية حقوق جميع الدول فى مراكش واشترط لذلك أن تكون الجمارك تحت مراقبة دولية .

وأن تكون مراكش مستقلة بشرط أن يدير ماليتها بنك حكومى يكون مقره فى طنجة يكون تحت مراقبة بنوك الدول وأسهمه موزعة بالتساوى بينها ولفرنسا حصة الأسد من ذلك .

ولما رأت إيطاليا ما فعلت بريطانيا وفرنسا أقدمت على احتلال طرابلس الغرب وبرقة وأنذرت الدولة العثمانية النائمة وأنزلت جيوشها فى البر بعد مقاومة عنيفة من الحامية التركية والسكان العرب وزحفت

تلك الجيوش تفتك بالبشر دون رحمة لا تتورع فى الإجهاز على الجريح وقتل الشيخ الطريح والمرأة الحاملة والطفل البرىء ، أما المقاتلة فليس لهم شفاعة فى ضمير الإيطاليين .

وهكذا أصبحت البلاد العربية التى كان يجب أن تكون كلها جزءاً عظيما وعوناً كبيراً للامبراطورية العثمانية ، مجزءأة يحتل قسما كبيراً منها ثلاث دول فرنسا وإيطاليا وبريطانيا وشرعت هذه الدول تتنافس على البقية الباقية التى انحصرت فى قلب الجزيرة : اليمن ونجد والحجاز وبلاد العراق وبلاد الشام .

فتح العرب عيونهم على هذه الأحداث فرءوا أنفسهم فى خطر محدق وعيون الغرب تتربص بهم الدوائر وتركيا على فراشها تحتضر ولكن رغم هذا الاحتضار نبطت فكرة القومية التركية وبدأ الصراع بين الأمتين يأخذ دوراً مهماً فى كيان الإمبراطورية العثمانية .

عوامل اليقظة

بسطنا فى فصولنا السابقة أن للعرب ذخيرة فكرية ممتازة تتمثل فى القرآن والحديث والأدب وما أنتجه الفكر العربى فى عصوره الزاهرة وذكرنا كيف استطاع ابن تيمية أن يوجه الأمم الإسلامية والعربية إلى هذه الثروة وكيف سار على نهجه ابن عبد الوهاب وجمال الدين الأفغانى والشيخ محمد عبده . وأن هذه الثروة مثلها كمثل الجمر غطاه الرماد لا يحتاج إلا إلى قبس يزيده اشتعالا ليلتهب ويضىء فينير الأرجاء . فإذا قيل إن الغرب احتك بالشرق فأخذ الشرق عنه . فقديماً كان الغرب فى ظلام دامس وكانت فيه كل مقومات الحضارة الكامنة مما خلفه الإغريق والرومان أغطشت سماء الغرب حيناً من الدهر حتى جاءت حضارة العرب الزاهرة ونقلت إليهم هذا التراث تارة أخرى وأحدثت فيه تلك الهزة العنيفة

التى كانت هذه الحضارة من نعمائها . وهكذا أعاد الغرب تلك اليد إلى بلاد الشرق فكانت غزوة نابليون قبساً أثار الشعلة . فقد جاء نابليون إلى مصر لا ليبعث فى الشرق نهضة أو يوقظ النيام فيه وإنما غرضه من هذه الحملة الاستيلاء على مصر لمكانتها فى الشرق العربى ولأهميتها الستراتيجية والاقتصادية فهى سوق واسعة لفرنسا وهى مركز مهم بين الشرق والغرب وهى نقطة يمكن منها القضاء على نفوذ بريطانيا فى الشرق ثم هى بعد جسر مهم بين البحرين الأبيض والأحمر . زد على ذلك ما كان يدور فى أذهان رجال الدين من رد الصاع بالصاع ، فقد كانت مصر كنانة هذه العقيدة ردت الصليبين وردت التاتار وحفظت التوحيد من كيد الكائدين كل أولئك وغيرها هيأت هذه الحملة الجبارة المجهزة بالعلماء والمختبرات .

فتح العرب فى مصر عيونهم على رجال هذه الحملة ورءوا شيئاً عجباً رءوا صحة ونشاطاً . وعملا مثمراً فأثار فى نفوسهم أملا وبعث ثقة بأن الإنسان إذا أراد « أن يفعل شيئاً فعل » .

أبحر نابليون فى ١٩ مارس عام ١٧٩٨ متجهاً إلى مصر فاضطربت فرائص بريطانيا لهذا الحادث الجليل ، ولكن كيد نابليون غلب كيد خصومه ووصل مصر وبعد مواقع حربية بينه وبين المماليك استطاع أن ينزل القاهرة وأن يعلن الملأ أنه لا يريد محو دين البلاد وإنما جاء منقذاً لها من يد الظالمين وأنه يدين بدين الإسلام بل هو مخلص للسلطان . و... وغير ذلك مما يهدئ الخواطر . ثم أصدر لجنوده الأوامر بعدم التعرض لأحد وأن يتوددوا للناس فاطمأن المصريون له ولجنوده . وأخذ نابليون يزور العلماء والمشايخ ووجوه البلد فى بيوتهم حتى إذا تم الاطمئنان من الجهتين شرع نابليون يدرس طبيعة البلاد فأنشأ مجمعاً علمياً . مكوناً من

ثمانية وأربعين عضواً فى أربعة أقسام : قسم للرياضيات وقسم للطبيعيات وقسم للاقتصاد السياسى وقسم للآداب وجعل رياسته لأحد هؤلاء العلماء وأنشأ جريدتين ومدرستين ومسرحاً للتمثيل وبنى المصانع ومعملا للورق وأسس مطبعة وفتح مكتبة عامة جمع فيها الكتب من بعض المساجد وأضاف إليها ماجاءت به الحملة وجعلها مباحة لكل من يريد الدخول فيها .

وقد قام المجمع بأبحاث قيمة وكانت هذه الأبحاث تنشر كل ثلاثة أشهر وكان رجال هذه الحملة شبه مدرسة سيارة تعلم منها أهل مصر حياة جديدة فى العمل والانتاج بل حتى فى الأمور الاجتماعية . ومن مآثر هذه الحملة العلمية عثورها على حجر رشيد الذى كان الأثر الكبير فى دراسة التاريخ المصرى القديم . لقد نظم نابليون جهاز الإدارة فى مصر وأنشأ الدواوين ورتب أمور المالية وعين لها الأكفاء من بنى مصر . وقد كان حظ مصر عظيما إذ انتهت الحملة إلى هذا الحد من الفائدة فحفظ الله كنانته وعمل الحظ عمله وتوالت الظروف فى جانب مصر فجلا الفرنسيون ومن سوء حظ هذه الحملة أن نقض رجالها العهد فأطلق الجنود أيديهم فى القرى ينهبونها ولم يعبئوا بتقاليد الشعب وديانته وفرضت الضرائب فكان كل ذلك سبباً لثورة أكتوبر عام ١٧٩٨ إذ تجمهر الناس وذهبوا لرفع الشكوى وعندما علم حاكم القاهرة الفرنسى خرج إليهم فأصيب بحربة من يد وطنية قضت عليه فاغتاظ الفرنسيون ونصب نابليون مدافعه على المقطم وأخمد الثورة بقوة وشدة أثارت الكره والحقد فى نفوس المصريين . ومهما يكن فقد أفادوا من هذه الحملة فائدة كبرى تركت أثراً كبيراً فى حياتهم وكانت نواة للنشاط الذى استقبل به محمد على الشعب المصرى .

محمد على

تولى محمد على ولاية مصر فى ١٣ مايو عام ١٨٠٥ والبلاد لا تزال نشوى بما رأته فى حملة نابليون من النشاط والحيوية والحياة الجديدة . ولكنها فى اضطراب مالى وفوضى فى الإدارة فأول ما عمل أنشأ المجالس والدواوين وقسم القطر إلى مديريات ومحافظات وكان الديون العالى بمثابة رياسة الوزارة تتبعه فروع كل فرع له اختصاص كديوان المدارس وديوان الحربية وهو بمثابة وزارة المعارف ووزارة الحربية وأنشأ عام ١٨٢٩ مجلس المشورة وهو الذى يختار أعضاءه بنفسه من الأعيان ورجال الدولة والعلماء ومهمته النظر فى المشروعات الكبرى ويرأس هذا المجلس ولده إبراهيم . واتجه إلى الإصلاحات التجارية والزراعية والرى وكان فى كل ذلك موفقاً جد التوفيق .

واهتم بالتعليم اهتماما عظيما ففتح مدارس الناشئة فى القرى والأرياف والمدن . وأنشأ مدرسة للطب البشرى ومدرسة للطب البيطرى ومدرسة للهندسة ومدرسة للزراعة وأنشأ مدرسة الترجمة لنقل آثار الغرب إلى لغة العرب وجلب لهذه المعاهد أكابر الأساتذة من الفرنسيين لقد كان فى الأزهر لمحمد على مادة قوية ومصدر عظيم فأرسل منه البعوث إلى أوربا ففى عام ١٨٢٦ أرسل أربعة وأربعين طالباً وأخذ هذا العدد يزداد حتى جاوز المائة .

وعاد هؤلاء الطلاب من أوربا بعد أن تخصصوا فى العلوم والفنون على اختلاف أنواعها من طب وهندسة وكيميا وزراعة ورى وميكانيكا وطباعة وحفر فكانوا خير عون لنهضة محمد على . وأقام المطبعة الأميرية على أنقاض المطبعة الأهلية التى كان الفرنسيون أتوابها معهم ثم ذهبت بذهابهم . وأصدر الجريدة الرسمية عام ١٩٢٨ .

وكان من أبرز رجال بعثته رفاعة بك الطهطاوى الذى ينتهى نسبه إلى الحسن بن على . نشأ هذا العالم فقيراً ولكنه كان شغوفاً بالعلم وساعده اجتهاده إلى أن ينال حظوة عند محمد على فأرسله ليكون إماما لطلبة البعثة فقام بواجبه على أتمه ولكنه افترص الفرصة وانتسب إلى الدراسة شأنه شأن إخوانه ، فبرز وتقدم ولما عاد أحدث ثورة أدبية فى الترجمة وهو الذى اقترح تأسيس مدرسة الألسن فكان مديرها ورئيس تحرير الوقائع المصرية وقد ترجم كتاب مبادئ " الهندسة .

وجملة القول أن محمد على أوجد جهازاً إدارياً محكما استطاع به أن يوجد دولة حديثة ذات كيان يخشى بأسها ويسمع قولها وكان يرمى من وراء ذلك إلى إيجاد مملكة واسعة الأطراف تنتظم جميع البلاد الناطقة بالضاد ومن ثم تنتقل إلى الخلافة الإسلامية وقد لاحت هذه الفكرة فى مخيلة محمد على حين قضى على الحركة الوهابية فى مهدها كما قدمنا سابقاً فقد خبر بنفسه بلاد العرب وعجم قوتهم ولم تكن فى الجزيرة قوة عربية تصمد للحرب غير تلك القوة التى غلبها على أمرها . إلا أن هذا الحلم لم يكن واضح الخطوط عنده فالدولة العثمانية التى يتبعها ان تفسح له المجال فى تحقيقه ونتيجة الأمر القضاء عليها حتما . زد على ذلك ما يقوم بوجهه من العقبات التى تقيمها مصالح الدول الكبرى . فان بريطانيا لا يسهل عليها أن تقوم دولة عربية فتية قوية فى طريق الهند . ومن مصلحتها أن تبقى تركيا مالكة زمام الأمر رغم ضعفها ، فان هذا الضعف يسهل على بريطانيا أن تتدخل فى شئونها وتملى عليها ما هو فى صالح طريق الهند فاذا أقام محمد على دولة فتية فى هذا الطريق وجب على بريطانيا أن تكون فى موقف تمنع فيه أن يمس هذا الطريق أو يتحكم فيه . والعقبة الثالثة التى تقف فى وجه محمد على عدم استعداد العرب لقبوله خليفة عليهم خاصة

بعد ما قام بقمع حركة ابن عبد الوهاب وترك جرحاً عميقاً فى قلوب أبناء الجزيرة .

أما ولده إبراهيم فقد كانت الفكرة واضحة فى مخيلته وكان يبشر بها دون خوف . لقد نشأ إبراهيم فى بلاد عربية وربى تربية عربية وتكلم بلسان عربى فصيح بخلاف أبيه الذى لا يقيم كلمة . لقد درس التاريخ العربى الذى هو جزء من التاريخ الإسلامى وتمكن فى نفسه ميل قوى لهذه الأمة بل أصبح يعد نفسه عربياً وكان لا يتوانى عن التصريح بذلك فماذا يفعل محمد على يا ترى لتحقيق فكرته وإجابة رغبة ولده إبراهيم لقد انتحل شتى الأعذار لغزو سوريا وكان أهم هذه الأعذار نزاع قام بينه وبين عبد الله الجزار والى عكا ، لأن عدداً من الفلاحين المصريين هاجروا إلى عكا فراراً من أعمال السخرة ودفع الضريبة وهروباً من خدمة الجيش ولما طلب محمد على إرجاعهم أبى عليه الوالى .

وقد أعدت الحملة لتأديب الجزار غير أن محمد على كان يخفى وراء ذلك هدفاً أعظم . وتظاهر بالولاء للسلطان وفى ٢٩ أكتوبر عام ١٨٣١ سار جيش محمد على زاحفاً على سوريا . وذهب ابنه إبراهيم القائد العام لهذا الجيش بحراً . ولم يلق الجيش مقاومة فى طريقه حتى وقف على أبواب عكا . وكان يلقى ترحيباً كلما مر على مدينة .

حاصر إبراهيم باشا عكا من البر والبحر مدة استسلمت بعدها رغم محاولة الدولة العثمانية فك الحصار عنها بجيش لجب ، وسقطت عكا فى ٢٧ مايس عام ١٨٣٢ . كان لسقوط عكا أثر كبير فى نفوس أبناء الشام فأقبلت القبائل والوفود فرحة مستبشرة بهذا الفتح وعرضوا أنفسهم لمساعدة الجيش المصرى وانضم الأمير بشير الشهابى إلى محمد على وساعد الجيش المصرى مساعدة فعالة . غضب السلطان على محمد على وأصدر إرادته السنية بعزله وعزل إبراهيم عن بلاد العرب . فاهتم محمد على للأمر

يعرض على السلطان خضوعه بعد فتح عكا ورغب فى وقف القتال على أن يوليه السلطان أمر الشام فأبى السلطان ذلك . لقد كانت هذه هى أمنية محمد على فلو ضم السلطان إليه بلاد الشام لاشتد ساعده وقوى أمره وصار من السهل عليه أن يستولى على البلاد العربية المجاورة . ولما أصر السلطان على إبائه تقدمت الجيوش المصرية تهزم أمامها جيوش السلطان فبلغ إبراهيم «أذنه» واستمر حتى بلغ «قونية» والتقى بجيش الخليفة الذى كان بقيادة محمد رشيد باشا فهزمه شر هزيمة واستولت جيوش إبراهيم على أكثر بلاد الأناضول وزاد الطين بلة استسلام الأسطول التركى إلى محمد على ، وهكذا بقيت الدولة بلا جيش وبلا أسطول . فلم ير السلطان بدا من المهادنة وعقدت بين الطرفين اتفاقية «كوتاهية» التى تقضى بمنح محمد على بلاد سوريا علاوة على مصر وتعيين ولده إبراهيم والياً على أذنه لقد أطلقت يد محمد على فى بلاد الشام . وتحققت الرغبة التى كان يتمناها إبراهيم . فبدأ يبث آراءه ويحث الناس على تكوين حكم عربى مستقل عن الخلافة ولعل هذا الصوت كان أول صوت من نوعه فى بلاد الشام بعد ذهاب الأمر من يد العرب، فى العالم الإسلامى .

انصرف إبراهيم إلى تنظيم شئون الإدارة وكون جهازاً حكومياً عادلا وفتح المدارس ونشر الثقافة وسهل لجمعيات التبشير الآتية من الغرب فتح مدارسهم وممارسة أعمالهم . وظل يعلن على الملأ ضرورة تكوين دولة عربية فى هذه البقعة من الشرق الأدنى . ولكن مصالح الدول التى تتضارب فى هذه البلاد وقفت دون ذلك . وبقيت هذه الفكرة حلماً يتردد فى مخيلة إبراهيم وأبيه قضت عليه دسائس السلطان وانحراف إبراهيم باشا فى سياسته فى هذه البلاد وميله إلى الشدة فى ابتزاز المال ووضع الضريبة وتنفيذ التجنيد الإجبارى ونزع السلاح ، كل ذلك

أثار حفيظة أهل البلاد وثاروا ضده . وكان ذلك إيذاناً بعدم الرضا فطويت القلوب على الكراهية والحقد .

البعثات التبشيرية

بينما كانت بعوث محمد على مستمرة إلى بلاد الغرب واستخدام الأساتذة لنشر التعليم الصحيح فى البلاد لاينقطع وحركة ابن عبد الوهاب فى الجزيرة لاتزال قائمة والأزهر مفتح الأبواب يمد والى مصر بالمثقفين لإرسالهم إلى بلاد الغرب والجريدة الرسمية فى مصر تنشر على الناس نجد البعثات التبشيرية الآتية من الغرب تنشط فى أعمالها فى فتح المدارس وتثقيف الناشئة لإيجاد جيل جديد يفهم الدين بلغة البلاد ، وكان للتنافس الذى حدث بين مبشرى جمعيات البروتستان وجمعيات الكاثوليك أثر كبير فى انتشار المدارس ، وقد ساعد ابراهيم باشا على هذا الانتشار بما بذله لهذه الجمعيات من التسهيلات ، وقد كان إبراهيم نفسه فتح المدارس والكليات فى بلاد الشام على غرار بعض ما فعل أبوه فى مصر . وبذلك بدأت نهضة ثقافية باللغة العربية ، لغة أهل البلاد . وكان إبراهيم يرمى من وراء ذلك أن يرضع الناشئة مع أفاويق العلم أفاويق الوطنية والقومية .

بدأ البرتستان بترجمة الإنجيل إلى العربية واستعانوا على ذلك بالأديب المشهور بطرس البستانى ثم استعانوا بالشيخ إبراهيم اليازجى لتأليف كتب القواعد وآداب اللغة العربية لتوضع بيد الناشئة فى مدارسهم . الكاثوليكية وأقدم هذه المدارس وأهمها مدرسة عنتورة أنشئت عام ١٧٢٨ وأغلقت ثم أعيد فتحها عام ١٨٣٤ ، والكلية السورية أنشئت فى بيروت عام ١٨٦٦ وهى بروتستانية . وهناك مدارس أخرى انتشرت فى القرى والأرياف .

لقد أراد الغرب من وراء هذه الجمعيات التبشيرية ومدارسها أن يجد

له باباً يدخل منه إلى البلاد العربية كى يفرق بينها وبين السلطان كما كان يفعل فى البلقان فى إثارة الأقليات والقصد من وراء ذلك كله إضعاف شوكة الدولة العثمانية والتدخل فى أمورها ، وقد لا تخلو حوادث ١٨٦٠ فى دمشق من يد خفية .

ومهما يكن فإن هذه المدارس التبشيرية أوجدت جيلا جديداً من رجال الدين يتكلمون ويخطبون ويعظون بلسان عربى مبين وأوجدت طبقة ممتازة من الأدباء والشعراء يستمدون معانيهم وألفاظهم من ذخيرة اللغة العربية ، كانت المدارس الإسلامية وحدها تضطلع بدراسة القرآن تراث العربية ، فلما جاءت إرساليات البروتستان إلى بلاد الشام للتبشير بمذهبهم الذى من أسسه الأولى أن يتلى الإنجيل باللغات المفهومة وأمنت الكنيسة بدراسة اللغة العربية وآدابها لتحقيق ذلك صار من السهل جداً على أبناء البلد الواحد أن يتلاقى شعورهم فى صعيد واحد . وكان يمكن أن تكون الفائدة أتم لولا مطامع بعض الدول فإن فرنسا كانت تطمع فى الاستيلاء على سوريا ولبنان وكانت لاتنى تستغل هذه الجمعيات التبشيرية ومدارسها لتحقيق هذه المطامع وتسخرها لمآربها بناء على ماتقوم به من المساعدات المادية والأدبية وكان طبيعياً أن تختلف الآراء حسب الأهواء والظروف الخاصة بكل فريق من أبناء البلاد .

حركت الدراسات العليا والمطابع والصحف والحركات التحريرية فى بلاد الغرب كوامن القومية فى نفوس الكتاب والشعراء والمفكرين وأثار ظهور اللغة العربية فى مصر وبلاد الشام والعراق تارة أخرى مادة للترجمة والتأليف احياء أمجاد الماضى والاستفادة منها وتقدم العلماء والكتاب والأدباء يبثون آراءهم ويهيئون البلاد لبعث جديد .

الأدباء والكتاب

زخر مستهل القرن التاسع عشر ومنتصفه بالعلماء والأدباء والساسة والمصلحون وملأت أصواتهم سمع العالم العربي فى استنهاض الهمم وبعث الرمم ، وكان مبعث ذلك هذه الموجة الدافقة من اليقظة التى عمت العالم أجمع وفتحت عيون العرب على حيوية الغرب ونشاطه وأطماعه ، وكانت بلاد الدولة العلية هدف هذه الأطماع وكان الصراع يدور حول أطرافها وأوساطها . تململ العالم العربي بعد جلاء الفرنسيين عن مصر وتفتحت الآفاق عن نشوء مصر الفتية فى نهضة علمية شاملة بعثت عدداً من أجلة العلماء والأدباء ، وكانت بعض المدارس الدينية فى بعض البلاد الإسلامية لا تزال فى خير يظهر فيها أجلة من العلماء فى غفلة من غفلات الزمن ، وهكذا أنجبت مصر رفاعة بك الطهطاوى ١٨٠١ — ١٨٧٣ وهو الذى يسمونه أبا النهضة المصرية نشأ فى أسرة فقيرة الحال غنية النسب ينمى إلى الحسن بن على ، درس فى الأزهر وعين مدرساً فيه وهو لم يبلغ الثانية والعشرين وقد عين واعظاً وإماماً فى جيش محمد على ، فلما أرسل محمد على بعوثه العلمية إلى باريس اختاره ليكون إماماً لهذه البعثة ، فأكب على الدرس شأنه شأن إخوانه ، فدرس اللغة والفلسفة وطالع كتب الأدب لأكابر الشعراء والأدباء . ولم يكتف بذلك فقد درس كتب المعادن والرياضيات وغير ذلك . ولما عاد إلى بلاده رأى أن ينقل ما يستطيع من اللغة الفرنسية إلى اللغة العربية فترجم وألف ومن جملة ما ترجم الدستور الفرنسى ، عاد إلى مصر بعد ست سنوات وتولى منصب الترجمة وتدريس اللغة الفرنسية فى مدرسة الطب ثم نقل إلى مدرسة المدفعية فترجم علوم الهندسة وفنون الحرب ، وترجم كتاب الجغرافيا لمؤلفه ملتيرون .

وعهدت إليه الحكومة ترجمة قانون نابليون فنقله إلى العربية وأخرجه مع رفاقه من مدرسة الألسن فى مجلدين وهو الذى اقترح إنشاء مدرسة الألسن وقد صار فيها بعد ناظراً عليها . وهكذا قدم هذا العالم لأمته ثروة من العلم وفى العراق كان من أبرز العلماء شهاب الدين محمود الألوسى ١٨٠٢ — ١٨٥٤

درس الفقه وعلوم العربية على أجلة العلماء فى عصره فبرع بها واشتغل بالتأليف والتدريس وهو لا يزال صغير السن وكانت مدرسة المرجانية ببغداد موضع عمله وإلقاء دروسه وقد تتلمذ عليه كثير وتخرج على يديه أجلة من العلماء ، ألف تفسيره المعروف بروح المعانى ويعتبر من أجل التفاسير ويقع فى تسع مجلدات جمع فيه صفوة ما جاء فى التفاسير الأخرى .

وجاء بعد محمود شكرى الألوسى الذى توفاه الله عام ١٩٢٣ ، وهو واضع بلوغ الأرب فى أحوال العرب وكان لمؤلفه هذا رنة إعجاب فى العالم الغربى والشرقى وصف فيه أحوال العرب الاجتماعية والأدبية ودحض جميع ما ألصقه الموالى والشعوبيون بالعرب مما ليس فيهم .

وفى لبنان ظهر ناصيف اليازجى ١٨٠٠ — ١٨٧١ ولع بالأدب ولم يكن فى متناوله ما يشبع رغبته من الكتب فأخذ يفتش عنها فى الأديرة حتى إذا وقع على مخطوط أسرع فى نقله أو حفظه عن ظهر قلب فتكونت فيه ملكة النثر والنظم وعرف بين الناس بأدبه وعلمه فلما علم به الأمير بشير الثانى استكتبه ونال بذلك حظوة عنده . واتصلت به جمعيات التبشير من البرتستان فكتب لهم الكتب المدرسية فى اللغة والأدب والمنطق ولا تزال بعض هذه الكتب تدرس فى المدارس المسيحية بلبنان إلى اليوم .

وظهر أيضاً الشيخ بطرس البستانى ١٨١٩ — ١٨٨٣ فألف وكتب ، واستعان به البرتستان على ترجمة الكتاب المقدس ، وكاد يتمه لولا أن عاجلته المنية فأتمه فان ديك من بعده وفى عام ١٨٦٣ أنشأ فى بيروت مدرسة عالية أسماها المدرسة الوطنية أسسها على الحرية الدينية ومبدأ الجامعة الوطنية العثمانية ، فأخذ يفد إليها الطلاب من سائر أنحاء البلاد ومن مصر والعراق وغيرها ، فرضيت عنه الدولة وأنعمت عليه بوسام عال مكافأة له على خدماته . ألف قاموسه المعروف بمحيط المحيط وفرغ منه ١٨٦٩ وأنشأ مجلة علمية أدبية سياسية سماها « الجنان » وقد بدأ بتأليف دائرة المعارف ولما أتم منها ستة مجلدات عاجلته المنية قبل أن يتم السابع فأتمه أولاده وذووه من بعده واستمروا فى عملهم حتى بلغت أحد عشر مجلدا .

وقد مر بنا فى الفصل السابق ما قام به جمال الدين الأفغانى فى أنحاء الشرق الأدنى وما قام به الشيخ محمد عبده والسيد عبد الرحمن الكواكبى فى هذه الحقبة من الزمن .

وصفوة القول كانت البلاد العربية تموج بمجموعة من أجلة العلماء والمصلحين أيقظوا فى كتاباتهم وخطبهم وأحاديثهم كوامن العزة فى النفوس ودفعوا الأمة إلى الحرية والاستقلال والطموح إلى الكمال وكان من نتاج ذلك شعور بالعمل المشترك فتألفت الجمعيات العلمية والأدبية فى بادىء الأمر ثم تطورت الحال إلى تأليف الأحزاب والجمعيات السياسية والنوادى التى تهدف فى أعمالها إلى الاصلاح وتغيير الأحوال إلى أحسن منها ويكاد تكون أول جمعية أسست هى الجمعية العلمية التى اقترح البستانى واليازجى على الأمريكان تأسيسها ولم تكن هذه إلا نتيجة يقتضيها العمل المشترك . وبرزت للوجود عام ١٨٤٧ باسم « جمعية الفنون والعلوم » وكان اليازجى والبستانى من بين أعضائها وكان جلهم من الأمريكان وقد تلتها للمزاحمة والمنافسة « الجمعية الشرقية » التى أسسها

اليسوعيون عام ١٨٥٠ وأعضاؤها على غرار أعضاء جمعية الفنون والعلوم شرقيون وغربيون وكلهم من المسيحيين . انحلت هاتان الجمعيتان فتكونت على أثر انحلالها « الجمعية العلمية السورية عام ١٨٥٧ وكانت تضم أعضاء من المسلمين والدروز والمسيحيين ، واجتماع هؤلاء الأعضاء فى جمعية واحدة دلالة واضحة على ظهور الوعى القومى ، وكان إبراهيم اليازجى أحد أعضائها والأمير محمد أرسلان الدرزى رئيسا لها .

وفى شهر ديسمبر من عام ١٩٠٤ تأسست فى باريس جمعية باسم رابطة الوطن العربى ، تديرها هيئة عليا وقد وجهت هذه الهيئة نداء إلى العرب القاطنين فى تركيا وفى عام ١٩٠٥ وجهت هذا النداء إلى العالم الإنسانى فى أوربا وأمريكا أبانت فية مطالب العرب وقد صار هذا النداء فيما بعد أساساً للمناهج الأخرى فيما تأسس من الجمعيات[١] .

ظلت الأيدى الخفية تفعل فعلها فى إثارة القلاقل وتنبيه الأذهان إلى أعمال الدولة العثمانية ، وكانت قد أوفت على الشيخوخة من جراء النكبات التى أصابتها فى البلقان وفى البلاد العربية فقد أخذ الطامعون يتتقصونها من أطرافها ، وشرعت الحركات الاستقلالية فى المقاطعات التى تتكون منها عناصر هذه الامبراطورية تزداد قوة والدولة تزداد ضعفاً وأثقلت الدولة بالديون ، وكانت فرنسا لاتنى تحدث المشاكل وتعلن على رءوس الملأ أطماعها فى بلاد الشام وبريطانيا جاثمة على فم الخليج وباب المندب يهمها ضعف الدولة على أى حال من الأحوال لتستطيع أن تملى ما يفيدها فى حفظ طريق الهند . ويعزوا المصلحون هذا الضعف إلى استبداد السلطان واستئثاره بالحكم ولذلك تأسست من بين رعايا الدولة جميعها جمعيات سرية وعلنية تمخضت كلها عن

---

(١) welt des Islam b.d. 8 s. 99-101

تأليف جمعية هي : « الاتحاد والترقي » وكان أعضاؤها من بين جميع أجناس الإمبراطورية والعدد السائد فيها على الترتيب التالي: الأتراك ويشكلون الأكثرية ويليهم اليهود في الكثرة ثم تأتي بعد ذلك الأجناس الأخرى ، وكانت هذه الجمعية ترمي إلى إصلاح المملكة عن طريق إعلان الدستور وتقليم أظافر السلطان ولما علم أعضاء هذه الجمعية بما يبيته الغرب لهم في اقتسام إرث الرجل المريض أعلنوا الثورة وطالبوا عبد الحميد بإعلان الدستور فاضطر لذلك وأعلنه في يوم ٢٤ تموز من عام ١٩٠٨ .

كانت حالة الدولة سيئة جدا إبان إعلان الدستور وكان العرب مشفقين على بقية بلادهم من الضياع لأن الدولة العثمانية أصبحت لا تدفع أذى ولا تزيل شرا . فأخذوا يفكرون في الأمر تفكيراً جدياً ووضعوا خطط الإصلاح التي يرمون من ورائها إلى الاحتفاظ بكيانهم ، فلما حدث الانقلاب الدستوري فرحوا به واستقبلوه بالبشر والحماسة وانضموا إلى الترك علماً منهم بأنه لم يبق في الدولة اختلاف عنصري بعد . كان إعلان الدستور إيذاناً بانطلاق الناس من قيود الاستبداد وإعلاناً بانبلاج نور الحرية فهب أقوام الامبراطورية يؤلفون الجمعيات ويفتحون النوادي ويعلنون ما كان في أمرهم سراً . فقد كان للروم والأرمن جمعيات منظمة سرية جعلوها شرعية علنية وقام العرب فأسسوا جمعية « الإخاء العربي العثماني » وفتحوا نادياً بهذا الاسم وكان من مبادئ هذه الجمعية الصداقة التركية العربية وقد تم افتتاحها رسمياً وحضره فريق من أعضاء جمعية الاتحاد والترقي وتهدف إلى تحسين أحوال العرب عامة وتشجيع التعليم وبث الألفة بين أقوام الدولة العثمانية وكان باب الانتساب إليها مفتوحاً أمام العرب جميعهم على اختلاف نحلهم ، كما قررت أن تنشئ لها فروعاً في الأقاليم العربية جميعها . وأنشأت فعلا جريدة تبث فيها آراءها ومقاصدها .

لقد ظن العرب بالاتحاديين خيراً ووضعوا أيديهم بأيديهم ولكن مالبث الأمر قليلا حتى تغير وكان أبرز مظاهر هذا التغير ميدان الانتخابات البرلمانية فإن جمعية الاتحاد والترقى وجهتها وجهة تكفل لها الأكثرية وأن يرجح العنصر التركى على العناصر الباقية جميعها ، وبالرغم من تفوق العرب على الترك بالعدد فقد افتتح البرلمان فى شهر كانون الأول وضم فى أعضائه ١٥٠ نائباً تركيا و ٦٠ نائباً عربياً ، أما مجلس الشيوخ الذى كان يعين من قبل السلطان وكان عدده ٤٠ عيناً فلم يكن فيه إلا ثلاثة من العرب .

وما كانت هذه النتائج لترضى السلطان وهو الآمر الناهى وكان يتحين الفرص للخلاص من جمعية الاتحاد والترقى فدبر مؤامرة فى اليوم الثالث عشر من شهر إبريل أعلنت فيها حامية القسطنطينية العصيان ، وهاجمت دار « المبعوثان » فاقتحمتها وقتلت ضباطها ووزير العدل ونائباً عربياً هو الأمير محمد أرسلان مبعوث الشام . فلما سمع محمود شوكت باشا بذلك وهو عربى يتمتع برتبة عالية فى الجيش وكان حينذاك قائداً للجيش فى سالونيك ، تقدم نحو العاصمة وبعد قتال عنيف ومعارك سالت فيها الدماء دخلها ظافرا ، وبعد ثلاثة أيام أعلن خلع السلطان عبد الحميد ونصب مكانه أخوه محمد رشاد وعاد لجمعية الاتحاد والترقى نفوذها الأول .

بدأ سوء التفاهم يزداد بين العرب والاتحاديين من نتائج البرلمان ومن حلهم لجمعية الإخاء العربى العثمانى وشرع الاتحاديون يناهضون العرب فى إقصائهم عن الوظائف بحجة التنسيق وقد نسق عدد كبير منهم فى وزارتى الخارجية والداخلية ومنع قبول العرب ودعوتهم فى الاجتماعات ودخولهم فى الجمعيات الاتحادية أو حضورهم فى المذاكرات السياسية التى كانت الجمعية تجتمع لها مع انتزاع وزارة الأوقاف من

الوزير العربى وإعطائها إلى وزير تركى واستبدال المتصرفين والقضاة من العرب بآخرين من الترك ، ومحاربتهم اللغة العربية .

أعلن الاتحاديون نياتهم وبدءوا سياستهم التى تستند إلى مبدأ سيادة الترك على العناصر الأخرى ، وتتريكها جميعها ، وما دروا أن هذه المحاولة فاشلة ذلك لأن العرب يمثلون العنصر الأكبر فى الدولة ولأن اللغة العربية هى لغة القرآن ، لها أدبها ومقوماتها ولها كيانها الدينى واللغة التركية لغة ليس لها من الشأن ما للعربية ، فإذا نجحت هذه الفكرة فى تتريك عنصر من عناصر الأقليات فلن تنجح عند العرب ولذلك ما كادت تظهر نياتهم للوجود حتى دب الانشقاق فى الصفوف وانسحب جميع نواب العرب الذين كانوا معهم وانضموا إلى « حزب الحرية والائتلاف » الذى تأسس على قاعدة التآلف بين عناصر الامبراطورية جميعهم . لقد أخذ هذا الحزب يزاحم جمعية الاتحاد فحنقت عليه وظلت تتربص به الدوائر حتى محته من الوجود قتلا وتهديداً .

تعاورت المصائب والكوارث على الدولة بعد إعلان الدستور ، فإن النمسا والمجر قد ضمت إليها البوسنة والهرسك فى أكتوبر عام ١٩٠٨ وفى الوقت نفسه انفصلت بلغاريا وفى عام ١٩١١ اعتدت إيطاليا على ليبيا وبذلك فقدت الدولة طرابلس الغرب وبنى غازى ، وفى عام ١٩١٢ اندلعت حرب البلقان وقد فقدت الدولة أثناء هذه السنوات جميع ممتلكاتها فى أوربا ماعدا تراقية الشرقية .

كذلك فقدت جزيرة كريت وجزر الدوديكان . وقد تبين للعرب أن تركيا قد ضعف كاهلها أن تحمل أمانة بلادها وبلاد العرب بعد أن عجزت عن حفظ الروملى الذى هو حصن الآستانة أمام البلقان

وفى عام ١٩٠٩ دعا ضباط العرب أهل الرأى والمشورة من أعضاء

جمعية الاتحاد والترقى للتفاهم وحسم هذا الخلاف الناشب بين أمتين يربطهما تاريخ ومصالح مشتركة فقبلوا الدعوة ولكنهم لم ينتهوا إلا إلى ماهو أسوأ . ولما لم يفد ذلك كله أخذ الشباب الوطنى يدعو إلى إيجاد نظام جديد يسمى « اللامركزية » فهو أدعى إلى العمران مع إفساح المجال لكل عنصر أن يدفع العوادى عن نفسه . ونشط العرب فى هذه الناحية لتأسيس النوادى والجمعيات والأحزاب ، ففى ١٩٠٩ تأسس المنتدى الأدبى أسسه عدد من نواب العرب والكتاب والطلاب وكان يهدف إلى غاية أدبية ، وقد ضمت إليه مكتبة ودار للضيافة وقاعة للمحاضرات ، وقد أقام هذا المنتدى عدة حفلات وطنية حماسية . وأخذ يبث الدعوة لهذه الحركة ، وقد أغلقته الدولة فى الحرب العالمية الأولى ، لقد كثر الأعضاء المنتمون إليه حتى بلغ مجموعهم الآلاف وأنشأ له فروعاً فى أنحاء البلاد . ومن ميزاته أنه ملتقى الوافدين العرب من أنحاء البلاد كافة .

وفى عام ١٩١٢ تأسس حزب « اللامركزية الإدارية العثمانى » فى القاهرة وهكذا أدت القاهرة واجبها بعد أن كانت مركزاً للقضاء على حركة ابن عبد الوهاب ومن ثم القضاء على فكرة الخلافة العربية . وقد تأسست له فروع فى سوريا والعراق وكان يهدف إلى إقناع الدولة العلية بضرورة حكم اللامركزية وتوجيه الرأى العام العربى إلى المطالبة بذلك ، وقد ظهر الحزب لأول مرة جريئاً ووقف وجهاً لوجه أمام الاتحاديين ، وقد جاء فى المادة الثالثة من منهاجه : ليس هذا الحزب خفيا وليس فيه مايعد من الأسرار فهو ينشر مقصده المبنى على المطالبة باللامركزية الواسعة جهراً وعلانية دون الخشية من أحد لاعتقاده يقينا أن الدولة لاتبقى فى العالم السياسى إلا إذا بنيت حكومتها على أساس اللامركزية الإدارية .

وفى المادة الرابعة منه : إن الدخول فيه مباح لكل عثمانى بلغ العشرين من العمر على شرط أن يكون أولا من المتمتعين بجميع الحقوق

المدنية ، ثانياً : غير محكوم عليه بحكم مخل بالشرف ، ثالثاً : غير مشتهر بسوء السيرة ، رابعاً : أن يقبل القواعد المبينة فى برنامج الحزب .

وفى عام ١٩١٣ تأسست الجمعية الإصلاحية فى بيروت وأقرت منهاجها فى جلستها الثالثة المنعقدة فى دار المجلس البلدى بإذن من الحكومة العثمانية يوم الجمعة الموافق ٣١ كانون الثانى من عام ١٩١٣ . وقد جاء فى مستهل هذا المنهاج : الحكومة العثمانية حكومة دستورية نيابية . ويتألف المنهاج من خمس عشرة مادة . جاء فى المادة السابعة منه : وتعين الحكومة المركزية مستشارين من الأجانب على شرط معرفتهم إحدى اللغات الثلاث العربية أو التركية أو الفرنسية للدوائر الآتية فى مركز الولاية وهى الجندرمة والمالية (وتلحق بها غرفة التجارة) والبوسطة والتلغراف والجرك .

وجاء فى المادة الرابعة عشرة : إن اللغة العربية تعتبر اللغة الرسمية فى جميع المعاملات داخل الولاية وتعتبر أيضاً لغة رسمية كاللغة التركية فى مجلس النواب والأعيان .

وفى المادة الخامسة عشرة : تخفض الخدمة العسكرية إلى سنتين وتقضى الخدمة أيام السلم فى الولاية . وتنزل قيمة البدل النقدى للنظامية إلى ثلاثين ليرة عثمانية وللرديف والاحتياط إلى عشرين ليرة .

لقد كانت المادة السابعة شديدة الوقع على رجال الدولة وذلك لما فيها من إفساح المجال لتدخل الأجانب فى شئون الدولة الداخلية ، أما ما جاء فى المادة الرابعة عشرة فهو نقطة حساسة طالما ارتجفت من ذكرها فرائص الاتحاديين ، لأنهم لا يريدون سماع كلمة اللغة العربية ، وهم الذين يعتقدون أنهم يحكمون البلاد العربية بالقوة والإدارة والأمة العربية تحكمهم بالثقافة ، لأن اللغة العربية هى لغة القرآن . أغضب

ما جاء فى هذا المنهاج رءوس الاتحاديين ، فأسرعت الحكومة إلى غلق الجمعية ، فأضربت المدن احتجاجاً على ذلك .

وفى البصرة تألفت جمعية البصرة الإصلاحية ، وهى لا تختلف فى خطتها وأهدافها عن أية جمعية عربية أخرى تأسست لمثل هذه الغايات فى تلك الأيام .

كان لمطاردة الاتحاديين أحرار العرب ومقاومتهم لمناهجهم الإصلاحية أثر كبير فى توسيع شقة الخلاف بين الأمتين وإلى اتجاه شباب العرب فى سرية الأعمال وعلى ذلك تشكلت فى تلك الفترة جمعيتان سريتان : الجمعية القحطانية وتمتاز بجرأة مؤسسيها وإقدامهم ووضوح مناهجهم واعترافهم بالواقع فقد أوضحوا فى مناهجهم بأن تكون الدولة العلية ذات تاج مزدوج ، أى أن السلطان يضع على رأسه فى الآستانة تاج المملكة العربية إضافة إلى تاجه التركى ، وتتكون الدولة العربية من جميع المقاطعات العربية ، ولها مجلس نيابى خاص وإدارة محلية على غرار امبراطورية النمسا والمجر . لقد أدرك رجال هذه الجمعية أن الدعوة علناً إلى تحقيق هذا المنهج أمر مستحيل ، لأن ذلك مما ترتعد له فرائص غلاة الأتراك . فاتخذت سبيل السرية لها سبيلا ووضعت لأعضائها كلمة سر يتفاهمون بها كما أنها كانت تختار الأعضاء بدقة وحذر وكان زعيم هذه الجماعة الضابط المعروف عزيز على المصرى ، وكانت تسعى لكسب ضباط العرب فى الجيش التركى . كان زمام هذه الجمعية قد أفلت من يد مؤسسيها ، لأن أحد الأعضاء من الذين كانوا لا يؤمنون بذلك أفشى سر الجمعية فخاف الأعضاء على أنفسهم فأهملوا الجمعية وتركوها تتلاشى من الوجود : ظلت هذه الفكرة تتردد فى ذهن زعيمها عزيز على حتى صمم على تأليف جمعية أخرى على غرارها وبذلك تم تشكيل جمعية العهد واقتصر فى أعضائها على الضباط العرب فقط ولما كان عدد العراقيين فى الجيش التركى كبيراً

صارت كثرة الأعضاء لهم فى هذه الجمعية وأسسوا لها فرعين فى الموصل وبغداد. كانت هذه الجمعية شديدة فى سريتها شدة جمعية « الفتاة العربية » وقد بذلت كلتا الجمعيتين جهوداً جبارة فى سبيل استقلال البلاد العربية ولم تدر إحداهما بالأخرى وقد تلاقتا فى دمشق عام ١٩١٥ ووحدتا جهودهما لإعداد الثورة.

أما الجمعية الثانية فهى جمعية « العربية الفتاة » أسسها فى باريس عام ١٩١١ فريق من طلاب العرب الذين كانوا يدرسون هناك وكانوا كلهم من المسلمين وقد أخذ عملهم فى هذه الجمعية سبيل الجد والكتمان والحذر فكانوا لا يضمون إليهم أحداً إلا بعد أن يمر بتجربة طويلة يتبينون فيها صدق عهده. وكان منهاج هذه الجمعية تخليص العرب من الحكم التركى واستقلال البلاد العربية عن أى سلطة أجنبية. ولما أتموا دراستهم وعادوا إلى بلادهم انتقل مركزها إلى بيروت وقد لعبت دوراً مهماً فى الحركة العربية وقد نمت هذه الجمعية نمواً سريعاً وبلغ مجموع أعضائها مائتين. وقد بلغ من حرصهم على العهد وكتمان السر أن حاول أحدهم الانتحار وفضل الثانى المشنقة لشدة ماعذب جسمهما فى سبيل الاعتراف.

لقد كان هدف هذه الجمعيات التى تأسست يرمى إلى المطالب الآتية: (وهذه المطالب تختلف قوة وضعفاً حسب طبيعة الجمعية وطبيعة أعضائها)

١ — الاعتراف باللغة العربية لغة رسمية.

٢ — اشتراك أكبر عدد من العرب فى تدوير شئون المملكة.

٣ — تسهيل قانون التجنيد الإجبارى « أى إبقاء الجنود العربية فى بلادهم أثناء السلم وتخفيض البدل النقدى ».

٤ — تحقيق اللامركزية.

وكانت هناك آراء مختلفة فى توضيح العلاقة بين الدولة العثمانية وبين رعاياها من العرب. فقد ساد رأى فى إيجاد خلافة عربية تقوم مقام

الخلافة التركية ، وحملة هذا الرأى العرب المسلمون المثقفون ثقافة إسلامية ويمثلهم السيد عبد الرحمن الكواكبى .

ورأى يقول بإبقاء الخلافة فى آل عثمان ويرمى إلى وحدة إسلامية شاملة ويمثلهم السيد جمال الدين الأفغانى .

ورأى متطرف يرمى إلى استقلال البلاد العربية وتخليصها من حكم الأتراك ومن أى سلطة أجنبية ورأى يقول بإبقاء البلاد العربية مرتبطة بالدولة العلية بنظام اللامركزية .

وهناك رأى متطرف آخر لعبت فيه الدسائس الأجنبية وهو القائل بوضع البلاد العربية تحت حماية دولة أجنبية وقد مهدت لهذا الرأى دولتا فرنسا وبريطانيا(١) .

المؤتمر العربى الأول

فى ٤ نيسان من عام ١٩١٣ وجه شباب جمعية « الفتاة العربية » كتاباً إلى اللجنة العليا لحزب اللامركزية فى القاهرة وإلى الجمعيات الأخرى العربية يدعونهم فيه إلى حضور مؤتمر غايته البحث فى التدابير الواجب اتخاذها لوقاية الوطن من الطوارئ وإصلاح أمور البلاد على أساس اللامركزية ، وأن تدور أبحاث المؤتمر حول الحياة الوطنية ومناهضة الاحتلال وحقوق العرب فى المملكة العثمانية وضرورة الإصلاح على قاعدة اللامركزية والمهـــاجرة من سوريا وإليها .

وفى ١٤ نيسان أجابت اللجنة العليا لحزب اللامركزية بالقبول .

فحضر مندوبون عنها وعن الجمعيات الأخرى ومندوبون عن سوريا والعراق والجاليات العربية القاطنة فى الولايات المتحدة وكان عدد الأعضاء الرسميين ٢٤ عضواً . وحضر عدد كبير من المستمعين العرب وفى اليوم

E. TOPF : S. 10. (١)

الأخير فتحت أبواب المؤتمر لجميع الزائرين أما لماذا عقد المؤتمر فى باريس فقد أوضحه السيد عبد الحميد الزهراوى بقوله : إن حوادث بيروت الأخيرة فى اضطهاد الجمعية الإصلاحية وسجن فريق من أعضائها برهنت لنا على قدر الحرية التى يمكن أن يتمتع بها مؤتمر يعقد فى سوريا وقد رأينا من جهة أخرى أن نسمع مطالبنا ونفهم رأينا أوربا التى تزداد مصالحها أهمية فى البلاد العثمانية يوماً بعد يوم ، وفضلنا باريس على غيرها من عواصم أوربا لأن الجالية العربية فيها أكثر عدداً منها فى سائر العواصم وانعقد المؤتمر فى القاعة الكبرى للجمعية الجغرافية بشارع سن جرمان فى باريس يوم الأربعاء ١٨ حزيران عام ١٩١٣ ودام إلى اليوم الثالث والعشرين منه . وكانت مناقشاته فى غاية من الصراحة والجرأة وهو فى مقرراته لم يخرج على مبادىء حزب اللامركزية . وهذه أهم مقرراته :

١ — من المهم أن يكون مضموناً للعرب التمتع بحقوقهم السياسية وذلك بأن يشتركوا فى الإدارة المركزية للمملكة اشتراكا فعليا .

٢ — يجب اعتبار اللغة العربية فى مجلس النواب العثمانى .

٣ — أن تكون اللغة العربية رسمية فى البلاد العربية .

٤ — تكون الخدمة العسكرية محلية فى الولايات العربية إلا فى الظروف التى تدعو إلى الاستثناء الأقصى .

٥ — يجب أن تنشأ فى كل ولاية عربية إدارة لامركزية تنظر فى حاجاتها وعاداتها . وهذا أهم ما جاء فى هذا المؤتمر .

وأضعف ما جاء فيه حول اللائحة التى قدمتها ولاية بيروت التى تقوم على مبدأين أساسيين ، أحدهما توسيع سلطة المجالس العمومية وثانيهما تعيين مستشارين أجانب . وفى هذا المبدأ الأخير يتضح مبلغ تلاعب فرنسا فى الأمر .

واختتمت القرارات بملحق جاء فيه : ستكون هذه القرارات برنامجاً سياسياً للعرب العثمانيين ولا يمكن مساعدة أى مرشح فى الانتخابات التشريعية إلا إذا تعهد من قبل بتأييد هذا البرنامج وطلب تنفيذه .

ما كان المؤتمر شديداً فى مطالبه وما كان المؤتمرون يريدون الانفصال عن جسم المملكة العثمانية وجل ما كانوا يريدونه إصلاح شامل يتناول الدولة العليا وفى ضمنها البلاد العربية التى ستظل مخلصة للسلطان فقد جاء فى خطاب عبد الحميد الزهراوى عند الافتتاح « إن العرب كانوا قد ألفوا الترك وهؤلاء قد ألفوا العرب وامتزج الفريقان امتزاجاً عظيما مضى عليه أكثر من عشرة قرون ولكن لما مزجت بينهم السياسة فرقت بينهم السياسة أيضاً ولم يبق من ذلك الامتزاج القديم إلا رابطة بين بعض العرب وبعض الترك وهذه الرابطة لا تزال تعد ثمينة عند الترك العثمانيين والعرب العثمانيين معا ، ولكنها مع عزتها فى نفوس الفريقين قد أصبحت مهددة بالسياسة أكثر مما كانت من قبل ومعلوم أن السياسة فى هذه المملكة بيد الترك ، ولذلك تعرفها أوربا بأنها حكومة الترك ، فلما رأى العرب ما وصلت إليه هذه المملكة بتلك السياسة التى مضى عليها العمل حتى الآن وكانوا حريصين على البقية الباقية من تلك الرابطة تنبهوا إلى واجب عظيم كان الترك والعرب جميعا غير مهتمين به كما ينبغى ، وهو اشتراك الفريقين بسياسة البلاد ، فإنه قد تبين واضحا أنه لا العرب انتفعوا ببراءتهم من ذنب إضاعة البلاد ، ولا الترك انتفعوا بتحملهم تبعة ذلك العبء الثقيل ، وبديهى أن هذا الاشتراك لا ينافى الإخاء بل الذى ينافى هو عدم الاشتراك » .

وجاء فى خطاب اسكندر عمون : « توهم بعض أنصار النظام المركزى من إخواننا الأتراك أن الغرض من النهضة العربية الانفصال عن الدولة وهو أمر بعيد عن الصحة ، فإن الأمة العربية لا تريد إلا استبدال شكل

الحكم الفاسد (الذى كاد يودى بالدولة) بالحكم الذى يرجى منه وحده الصلاح والنجاح لنا ولهم وهو الحكم على قاعدة اللامركزية . ولو كانت الهيئة الحاكمة اليوم من صميم قريش لكان موقفنا معها نفس موقفنا هذا .

أفزع المؤتمر جماعة الاتحاديين ورءوا فيه خيانة كبرى وجرأة من العرب ، فحاولوا بطرق شتى إحباطه ؛ فطلبوا من فرنسا عدم السماح بعقده فى باريس ، وعبئوا الجرائد والمجلات ورجال الدين وبعض الوجهاء من البلاد العربية لاستنكاره واحتساب القائمين بأمره من الخارجين على الخلافة والسلطان . فباءت محاولاتهم بالفشل ولم يروا بدآ من مواجهة الأمر الواقع فأرسلوا سكرتير جمعية الاتحاد والترقى إلى باريس للاتفاق مع المؤتمرين الذين كان مؤتمرهم يمثل الأحزاب العربية والجمعيات فاتفق معهم على أمور لم تنفذ منها الدولة إلا اليسير مما دل على أن الإيفاد كان لعبة أراد الاتحاديون أن يكسبوا الوقت من ورائها ويماطلوا فى الأمر ثم لايجيبون رغبة . لقد صدق العرب كلام موفد الاتحاديين وأرسلوا ثلاثة أعضاء منهم لتنفيذ الاتفاقية . واستقبل هؤلاء الأعضاء فى الاستانة استقبالا منقطع النظير ورحب الفريقان من عقلاء الأتراك والعرب بهذه الظاهرة التى تؤدى إلى الإخاء والوفاق ، ثم تمخض ذلك كله عن التصريح الآتى من قبل الحكومة الاتحادية :

١ — أن يعهد فى إدارة الأوقاف الموقوفة على عمل الخير المحلى بحسب شروط الوقف إلى مجالس الجماعات فى الولايات وذلك بموجب قانون جديد ينشر قريباً .

٢ — أن تكون الخدمة العسكرية فى زمن السلم فى دائرة التفتيش إلا إذا رأت الحكومة لسبب ما حشد قسم من الجنود فى جهة من الجهات فترسل العسكر على الطريقة النسبية إلى الولايات البعيدة كاليمن والحجاز وعسير ونجد .

٣ — أن يكون التدريس باللغة العربية فى جميع مدارس الولايات التى تتكلم أكثرية سكانها هذه اللغة وذلك لتوفير أسباب المدنيه التى تحتاج إليها فى الحال والاستقبال .

واقتصر على ذلك فى المدارس الرشدية والابتدائية أما فى المدارس الإعدادية فيجب أن يستمر التدريس باللغة التركية . وقد تجاهل هذا القرار الرسمى من الدولة جميع ما بقى فى قرارات مؤتمر باريس ولم يشر إليه . فكان صدمة قوية دهش لها العرب المشتغلون بالقضية العربية والواقفين على بواطن الأمور وكان خطوة موفقة عند البعض الآخر الذين كانوا يظنون بالاتحاديين خيراً ، فقد أقنعهم الاتحاديون بأن الدولة سائرة على تنفيذ خطتها فصلا فصلا ، إذ لم تتمكن من نشرها مرة واحدة فى الصحف لأن ذلك يثير بعض العناصر الأخرى فى الدولة للمطالبة وتفتح أبواب لا مجال لسدها . وما زال الاتحاديون يفتلون بين الذروة والغارب حتى استطاعوا أن يكسبوا الوقت ويهيئوا أنفسهم لملاقاة العرب. فقد أبعدوا الفرق العربية وأبعدوا ما يقرب من أربعمائة ضابط عربى من الأستانة إلى قلب الأناضول وتراقية وشبه جزيرة غاليبولى وعلموا أن الجو خلا لهم . وبذلك نام مشروع قرارات مؤتمر باريس نومة أبدية .

القبض على عزيز على المصرى، ونتائجه

وجد الاتحاديون فى هذا الضابط الجرىء قوة هائلة فأرادوا القضاء عليها والتخلص منها وظنوا أن الجو قد صفا لهم بإبعاد الضباط العرب عن الأستانة فدبروا له مكيدة ، وبينما كان خارجاً من الفندق تقدم إليه ثلاثة من رجال البوليس الملكى ودعوه إلى مركز البوليس ، فلما ذاع الخبر بين الناس وعلموا بالقبض عليه قام إخوانه من العرب وقعدوا لهذا الأمر وتوجهوا إلى مركز البوليس يستفسرون فكان جواب المأمور

أنه لم يسجن وإنما طلب منه الإجابة على أمور معينة وسوف يطلق سراحه فى الحال . ولما لم يتحقق ذلك قصد أحد ضباط العرب إلى الزهراوى وقال له أبلغ الحكومة التركية : « إن دماءنا نحن العرب يجب أن تحفظ للدفاع عن الوطن فلا تضطرنا إلى إراقتها فى سبيل الأفراد » .

لم تجد محاولات العرب نفعاً وقدم عزيز على بتهمة الخيانة لمناقضة أفكاره وآرائه لمصلحة الدولة العثمانية : ذلك أنه سعى لإنشاء دولة عربية مستقلة عن الدولة فى ليبيا ، وأنه أخذ رشوة من الإيطاليين مقابل تسليم البلاد إليهم ، وأنه عدو لرجال الاتحاد وماإلى ذلك من التهم التى كان عزيز على بعيداً عنها . لقد عرف عزيز بقوة الشكيمة والرجولة تخرج من مدرسة الأركان بتفوق وعين فى هيئة أركان حرب الجيش الثالث فى مقدونيا وانتسب إلى جمعية الاتحاد والترقى واشترك بالزحف على العاصمة فى ثورة ١٩٠٨ ولما أدرك أن سياسة الاتحاديين ترمى إلى مقاومة الحركة العربية نفض يده منها . وأسس هو وزميله سليم الجزائرى الجمعية القحطانية ، ثم جمعية العهد اللتين مر بنا ذكرهما . ولما نشب الخلاف بين الدولة واليمن أرسل عزيز على إلى إمام اليمن ونجح فى إقناعه بتسوية الخلاف بينه وبين الباب العالى . وقد أحرز انتصاراً باهراً فى ليبيا على الإيطاليين بالرغم من قلة ذات اليد وقلة العدة وكانت معركة ١٦ تموز التى انتصر فيها على الطليان من أكبر المعارك من الوجهة الحربية ووصفتها بعض صحف الغرب أنها تشبه معركة « كان » التى انتصر فيها هنيبال على الرومان . شاع فى الأوساط أن عزيز على قد حكم عليه بالإعدام بعد هذه الاتهامات والمحاكمة الخيالية ثم تأكد ذلك فقامت دنيا العرب وقعدت لهذا الحادث الجلل وتواردت الاحتجاجات من جميع أنحاء البلاد العربية وشكلت لجنة برياسة شيخ الأزهر للدفاع عن هذا الخطب وذهبت وفود عديدة

(١٤)

إلى اللورد كتشنر فى القاهرة . وتظافرت الجهود من جميع الجهات حتى خفف حكم الإعدام إلى الحبس الشديد والأعمال الشاقة لمدة خمسة عشر عاما . كانت نتيجة هذا العمل أن تحركت مشاعر البلاد العربية وتقاربت آراؤهم فى دفع الأخطار واستقر الرأى على المضى فى الكفاح إلى النهاية فقد كانت قضية عزيز المصرى قبساً أنار شعلة فى النفوس ظلت تلتهب حتى اندلع لهب الثورة العربية .

العرب والأتراك عند اندلاع لهيب الحرب العالمية

رضى العرب بهذا القليل الذى صدرت به الإرادة أثر الاتفاق الذى بعثه مؤتمر باريس واقتنعوا بوعود الاتحاديين ومدوا يد المعاونة إلى إخوانهم الأتراك فى ظلال الهلال العثمانى وبذلوا جهوداً جبارة قبل المؤتمر وبعده لإيجاد الطمأنينة والسكينة فى قلوب العرب فى كل مكان ، فقد استطاع عزيز على المصرى القائد المعروف أن يقنع الإمام يحيى بتسوية كل خلاف بينه وبين الدولة ، واستطاع السيد طالب النقيب رئيس جمعية الإصلاح فى البصرة أن يوفق بين رغبات الباب العالى وآل سعود فى نجد . كما كان الإدريسى فى العسير مستعداً لإجابة أى رغبة يريدها السلطان . أما فى العراق وسوريا فقد كانت الحركة والسكينة منوطتين بتوجيه الأحزاب السياسية والجمعيات وجل أعضائها موجودون فى الآستانة على صلة تامة بالدولة وبرجال الاتحاد وقد رضوا مبدئياً بهذه المنحة من الإصلاحات فى البلاد العربية .

وفى الحجاز كان الهدوء شاملا وسلطان الخليفة مستقراً وكاد يكون مطلقاً لولا وجود الشريف حسين بن على حينذاك الذى أعاد لهذا المنصب مقامه الرفيع ، أنه بسط نفوذه على جميع القبائل المجاورة وتعداه إلى أبعد من ذلك ولما قويت شوكة الاتحاديين أرادوا أن يسلبوا الحجاز ميزاته

فأعلنوا أنه يجب خضوع الحجاز لنظام المملكة المركزى وأرسلوا إليه والياً قوى الشكيمة فنفر شريف مكة من هذا التصرف واضطر الاتحاديون أن يأمروا الوالى بمصانعة الشريف .

وفى كتاب المرحوم عبد الكريم الخليل إلى أحد أصدقائه بتاريخ ٦ أغسطس عام ١٩١٤ دليل واضح على نية حزب اللامركزية . ومما جاء فيه :

« أيها العزيز . أنا على وشك السفر إلى سوريا لأن التدابير التى اضطرت حكومتنا السنية إلى اتخاذها درءاً لخطر الحرب العظمى تقضى على كل عثمانى مخلص لدولته وأمته أن يبذل جهده فى سبيل تنفيذها على أحسن مايرام ، وستكون مهمتى فى سوريا جمع كلمة الأمة على شد أزر الحكومة والسعى لمنع كل ما يحتمل وقوعه من أسباب النفور بين العناصر العثمانية وقد وعدتنى الحكومة بأن تشد أزرى فى هذه المهة وتجيبنى إلى كل المطالب العادلة التى أطلبها منها باسم الأمة العربية أو باسم الأفراد من أبنائها ، فلنكن كلنا يداً واحدة لإنقاذ الدولة من عواقب الحرب الأوربية وإظهار الوحدة العثمانية بأتم مظاهرها لنتمكن من منع اعتداء الدول الغربية علينا والخروج من هذه الأزمة الحرجة أرفع شأناً وأعلى مقاماً » .

وجاء فيما كتب المرحوم سليم الجزائرى إلى أحد أصدقائه السياسيين فى ١٥ يناير عام ١٩١٤ :

عزيزى لقد أخلصنا للاتحاديين فلا مجال للشك فى إخلاصهم لنا ، نعم إن الاتفاق الذى أبرموه مع الزهراوى وعبد الكريم لايسعدنا وليس فيه كل ما نحتاج إليه . . . ثم قال إن الحالة السياسية حرجة جداً أيها العزيز فبقدر مايسىء الاتحاديون إلينا يجب أن نحسن إليهم حرصاً على كيان هذه الدولة المنكودة الحظ » .

وكتب المرحوم مختار بيهم إلى أحد أصدقائه فى مصر فى ٢٦ أكتوبر عام ١٩١٤ قبل دخول الدولة بأيام معدودات ، أخى العزيز :

يخيل إلىّ أن الحرب واقعة لامحالة بين الدولة العلية ودول الحلفاء ، والأمل عظيم جداً بأن تكون حرباً قومية ظافرة تعوض الدولة من الخسارة التى منيت بها فى السنوات الأخيرة وترفع شأن العثمانيين فى نظر العالم ، وقد ألغينا أحزابنا السياسية وتناسينا اختلافاتنا الداخلية لأن المصلحة المشتركة تقضى بذلك وسوف يرى إخواننا الترك . ولاسيما الاتحاديون من أعمالنا فى هذه الحرب مايظهر لهم إخلاصنا للعرش العثمانى وتفانينا فى خدمة الوطن المشترك » .

كانت موجة القومية التى عمت أنحاء أوربا قد طغت على الشرق فجرفت الأقوام التى كانت تتألف منها الامبراطورية العثمانية ، ومن العجيب أن تصل هذه الروح ذروتها عند غلاة الاتحاديين الأتراك ، لقد اعتنقوا هذه الفكرة عن إيمان منقطع النظير ، وصولجان الحكم فى أيديهم والدولة دولتهم وهم يرون بعيونهم كيف فرت أقوام البلقان بالقوة والشدة من بين أيديهم ولم يبق معهم فى القوة والأخوة إلا الأمة العربية التى كانت تجتمع معهم فى أمجاد التاريخ الإسلامى ووشيجة العقيدة والتى كانت تؤمن بإطاعة الخليفة ، خليفة المسلمين . وقد كان يكون من المنطق الواضح أن تتضح هذه الحقيقة عند الاتحاديين بيد أنهم تركوها ولم يستغلوها ، وأخذوا يعملون على تحطيمها ، وقد لعبت اليهودية العالمية وأوربا المنتظرة إرث الرجل المريض الراقد على ضفاف البسفور دوراً هائلا فى إذكاء الحقد بين الأمتين فإن الأتراك كانوا حكام الامبراطورية يعتقدون أن السلطة حق من حقوقهم وأن مايقدمونه للعرب فى مشاركتهم ماهو إلا منحة ، ولذلك يغيظهم كل مايطلبه العرب من حق ، أما العرب فإنهم يعتقدون أن الدولة دولة العقيدة الإسلامية التى

تشترك فيها الأمتان وتدافعان عنها ، وأن أوربا الثائرة على الرجل المريض واليهودية العالمية الساخطة لم تكيدا كيدهما إلا من أجل تحطيم العقيدة وإضعاف هذه القوة النابتة فى الشرق والحارسة على طرق المواصلات بين الغرب والشرق المالكة لبقاع خصبة وأسواق عالمية ثرية .

وأن هذه الخصوبة وهذه الستراتيجية ماهى إلا فى بلاد العرب ، فمن حق العرب أن يشتركوا اشتراكا فعلياً فى الحكم والدفاع عن بلادهم خاصة بعدما ظهر لهم من ضعف الدولة فى تنظيم شئونها . هذه كانت نظرية العرب وعلى هذه الأسس تقدموا فى مطالبهم .

ملأت القومية رءوس الاتحاديين فكبر عليهم أن يجدوا لهم منافساً فى الدولة فوضعوا خططهم لتتريك العرب وأنشئوا جمعية « ترك أوجاغى » وهدفوا من وراء ذلك إلى بث روح القومية فى أبناء الترك وإرجاعهم إلى أصولهم الأولى حتى ولو إلى الوثنية الطورانية ومن ثم التخلص من العقيدة الإسلامية ومحوها وإدماج العناصر التى تتكون منها الإمبراطورية فى هذه الطورانية المنتظرة وجعلوا لهذه الجمعية وظائف مقسمة على لجانها الأربع وتنحصر فى العناية بالآداب التركية والرجوع إلى أصولها مع الخلاص من دخيل اللغة العربية وغيرها من اللغات وتأليف الكتب القومية بهذه اللغة الجديدة ، ومقاومة كل كاتب تركى لا يرى هذا الرأى ، والعمل على نشر هذه الفكرة بالتأليف وتدريس الناشئة التأريخ الطورانى وإفهامهم أن الشعب التركى أعظم شعوب العالم اختارته القدرة الآلهية لسيادة الأمم فيجب أن تسود قوميته وتمحى القوميات الأخرى وتدمج فيه ولتحقيق ذلك يجب أن نؤلف كتب الغرور القومى وتنشر بين الشعوب التركية فى أنحاء العالم أينما وجدوا وربطهم جميعاً بعجلة الاتحاديين وأن تعنى هذه الجمعية بتربية الناشئة وتقوية أجسامهم لإيجاد جيل جديد صحيح الجسم والعقل . وأسسوا لهذه الجمعية النوادى وفرعوا

لها الفروع وأمدوها بالمال لتعنى بوضع كتب التأريخ والتراجم عن أسلافهم الأول أمثال هولاكو وجنكيز خان وتيمورلنك وأوغوز وبدءوا فى تنفيذ ذلك بأن غير الغلاة منهم أسماءهم العربية وتسموا بأسماء طورانية منتزعة من التأريخ القديم وحرموا على غير الترك دخولها . وزادوا على ذلك بأن أدخلوا هذا التأريخ فى المدارس العالية . فكانت هذه الحركة حركة استفزاز لبقية الشعوب والعناصر التى يظللها العلم العثمانى وخاصة الأمة العربية التى تكون الأكثرية العظمى فى هذه الدولة فقد كان الهجوم موجهاً ضد تأريخ الأمة الإسلامية وضد العقيدة التى جاء بها محمد صلى الله عليه وسلم . ما صبر العرب على هذا التحدى بل أعلنوا سخطهم وشدوا أزر بعضهم بعضاً . وترابطت الجمعيات وعقدت العزم على إصلاح الحال فى أى وسيلة من الوسائل فإن بقاء الأمور معلقة مما يؤدى إلى هلاك الدولة التى يتكون منها العنصران الكبيران العربى والتركى . وكانت الحرب العظمى الأولى حداً فاصلا بين هذا الاصطراع .

أعلنت الحرب ولم تكن الدولة العلية داخلة فيها وكان يكون من الخير لها أن تبقى محايدة وتشد أزر العرب وتتفاهم معهم لتستفيد من غفلة أمم الغرب فى حروبها الطاحنة فتقوى نفسها وتعيد شبابها وتملى إرادتها على الأمم . ولكن مطامع الاتحاديين وطيشهم أجبرا الدولة على خوض معارك هذه الحرب الضروس فلما أعلنت تركيا الحرب فى جانب الألمان وقف العرب وقفتهم المعروفة ونسوا جميع أخطاء الاتحاديين ووضعوا أيديهم بأيديهم فلانت شدة الاتحاديين ورءوا أنفسهم فى حاجة إلى عون العرب فتقربوا منهم واسدلوا على الماضى القريب ستاراً وعينوا للجيوش العربية المرابطة فى سوريا قائداً عربياً وجعلوا له أعواناً من ضباط الجيوش التى كان يقودها الضباط العرب وعاملوا السوريين

والمراقبين معاملة حسنة فخاض هؤلاء القواد الميادين بشجاعة وإخلاص وجند شباب العرب فاستشهدوا دفاعاً عن الوطن وحماية العقيدة وأبلوا بلاء حسناً وألفوا جمعياتهم وأحزابهم السياسية وساهمت الأمة العربية بحضرها وريفها فى تموين الجيوش فى الميادين حتى قطع الناس لقمة العيش من أفواههم وسلموها للدولة طوعاً أو كرهاً فتولد عن ذلك غلاء فاحش واحتكار منكر بعث الجوع والهلاك وهام الناس على وجوههم يتخطفهم الموت من كل مكان وكان أشد هذا البلاء منصباً على البلاد السورية . هكذا مشت الحال فى بدء الحرب ولكن الاتحاديين لم يتركوها تسير كما هى بل عادو سيرتهم الأولى وأخذوا يسيئون الظن بالعرب وكان أول ما فعلوه أن نقلوا القائد العربى الفريق زكى باشا الحلبي الذى كان يقود الجيوش المرابطة فى سوريا وعينوه فى منصب آخر بعيد عن ميادين القتال وأحلوا مكانه القائد التركى الاتحادى المعروف جمال باشا السفاح الذى كان وزيراً للحربية فى الوزارة التركية وقد انتخب قائداً على الجيوش المرابطة فى سوريا ليقود الحملة المنتظرة يفتح بها مصر . وصل جمال باشا إلى سوريا بعد سبعة أشهر من إعلان الحرب وقد خولته الدولة سلطة واسعة ، فانتهز الفرصة وأعلن الأحكام العرفية التى وضعته بموضع الحاكم بأمره فى سوريا .

وقد أظهر ميلا شديداً فى حبه للعرب وتظاهره بالكره الشديد للاتحاديين . وكان يقال عنه إنه لا يميل إلى الطورانية كما كان زملاؤه من الاتحاديين بل كانت نزعته نزعة إسلامية ، ومشت هذه الخدعة على الناس وتقرب بها من العرب واستمال الأحرار من رجال سوريا والعراق يستشيرهم وينفذ رغائبهم واطمأنوا إليه وشرع يفتل بين الذروة والغارب وكان أول ما فعله معهم أن حمل بعض المقربين إليه والذين اتخذهم وساطة التفاهم على إقناع بعض ضباط العرب بتسنم وظائف

عالية ملكية وعسكرية وارسال قسم منهم إلى الحدود لحاجة الدولة إليهم ، ثم ما لبث أن أغلق أبواب مدرسة صف الضباط وكان فيها مايزيد على خمسمائة طالب عربى وزاد فى خدعته أن وقف مرة خطيباً فى حفل تكريم لبعض رجال العرب فقال :

« يجب عليكم يا أبناء العرب أن تحيوا مكارم أخلاق العرب ومجدهم منذ شروق الديانة الأحمدية ، أحيوا شهامة العرب وآدابهم حتى التى وجدت قبل الإسلام عضوا على عربيتكم بالنواجذ ، ودافعوا عنها بكل قواكم اعملوا على ترقية العرب والعروبة وجددوا مدنيتكم ، قوموا قناتكم ، كونوا رجالا كاملين » . ثم قال :

وإنى أناشد الشبان العرب والترك قائلا : « إن هذين الشعبين مقضى عليهما بالفناء فى اللحظة التى يتخاذلون فيها ، فالنزاع والخلاف بين عمودى الإسلام لا بد أن يؤدى إلى سقوط ذلك الدين ويومئذ لا مفر من الوقوع تحت نير الاستعمار السلافى » .

أبعد هذه الخطبة شىء يشك فيه العرب ؟ ولكن جمال لم يكد ينتهى من هذه الخطبة حتى أخذ ينفذ خططه خطة بعد خطة كأنما هذه الخطبة وأمثالها من المظاهر كانت بمثابة المخدر يخدر الطبيب فيه الجسم ليبدأ عمل المشرط . والحقيقة التى لا مرية فيها أن الجانبين كان يجد فى سوء الظن عصمة ، وفى حسن الظن ورطة ، فإن الاتحاديين بعد أن أثاروا النعرات القومية وبعد أن وجد منهم العرب ما وجدوا صاروا لا يطمئنون إلى العرب ويعتقدون أن ما تركوه فى نفوسهم ليس من السهل إزالته بوعود . وأما العرب فإنهم أصبحوا لا يعتقدون بأقوال الاتحاديين ووعودهم وخطبهم أياً كانت . إنهم يرون بلادهم أصبحت هدف المطامع وأنها ستكون ميدان حرب وفعلا قد أخذ الحلفاء ينقصونها من أطرافها

وتركيا عاجزة عن الدفاع ، زد على ذلك الدعايات التى يقوم بها الحلفاء ، والأيدى اليهودية الخفية التى تلعب بالخفاء ، ووعود فرنسا للموارنة فى لبنان وإقبال هؤلاء على فرنسا وارتماؤهم فى أحضانها للخلاص من الحكم التركى بأى وجه كان ، كل ذلك زاد العلاقات توتراً ووقف كل فريق ينظر إلى صاحبه نظر المستريب ، استطاع جمال باشا إبعاد الضباط العرب إلى خارج بلادهم وأرسل فرقة من الجيش العربى إلى جناق قلعة فأضعف قوة المقاومة وخلا له الجو ، وهيأ حملته التى ساقها إلى قناة السويس ليحتلها فى اليوم الثانى من شباط عام ١٩١٥ ، ولكنه عاد إلى دمشق مغلوباً على أمره لقلة معداته ولعدم استعداده فأبدى عذراً بأنه ما قام إلا للاستطلاع ، وترك وراءه بعض القوات الصغيرة فى سيناء لإشغال القوات البريطانية وأعلن أنه يعد العدة لتهيئة حملة أخرى ، بيد أنه انصرف للانتقام من أحرار العرب ، فأمر باعتقالهم وأدخلهم السجن ثم عقد لهم « محكمة عسكرية » فى عالية وحوكموا محاكمة خيالية فأدانت الفريق الأول وأصدر ديوان الحرب قراراً بإعدامهم ، وفتح الناس عيونهم فى بيروت صباح يوم ٢١ أغسطس من عام ١٩١٥ على جثث أحد عشر حراً من أحرار العرب معلقة فى أعواد المشانق . واستمر جمال فى إرهابه وبطشه فألحق بهؤلاء الزعماء آخرين من خيرة رجال العرب ، فقد أصدر ديوان الحرب فى « عالية » من أعمال بيروت قراراً بإعدام البقية الباقية ، وفتح الناس عيونهم فى دمشق على سبع مشانق وفى بيروت على أربع عشرة مشنقة فى صبيحة يوم ٦ مايس من عام ١٩١٦ كان من بينهم عبد الكريم الخليل وعبد الحميد الزهراوى والشيخ أحمد طباره وجرجى الحداد وشكرى العسلى ومحمد المحمصانى وأخوه محمود ، وقد استقبل هؤلاء الأبطال هذه الأراجيح برباطة جأش ومما قاله أحدهم وهو المرحوم سعيد عقل : « غفر الله لمن ظلمنى ، وأسأل ربى أن يكون

دمى الذى يراق سبباً فى المستقبل لحياة بلادى وشرفاً لعائلتى وأولادى» .

وقال المرحوم توفيق البساط : «مرحباً بأرجوحة الشرف مرحباً بأرجوحة الأبطال مرحباً بالعمد التى تستند إليها الأمم فى استقلالها مرحباً بالموت فى سبيل الوطن الحر . ولم يكتف جمال بهذه المأساة بل نفذ أحكامه بالنفى والإبعاد فأبعد «٣٠٠» أسرة من (سوريا وفلسطين ولبنان) نساء ورجالا وأطفالا أرسلوا إلى الأناضول بعد ما صادر أملاكهم وأموالهم . ونثرهم فى ولايات الأناضول وقراه كما ينثر الحب فى العراء لقد استند جمال باشا فى أحكامه هذه إلى ما وقع بيده كما يزعم المؤرخون أو كما يزعم هو فى مذكراته من الوثائق فى القنصلية الفرنسية وفى هذه الوثائق ما يدين هذه الأسر وأولئك الأبطال . وكان كل ما جاء فى إدانته أن فريقاً من هؤلاء أعضاء فى حزب اللامركزية ، كما يزعم أنه ثبت لديه أن فريقاً من الموارنة وغيرهم من بقية الطوائف المسيحية قدموا طلباً إلى حكومة فرنسا بواسطة قنصلها يطلبون فيه احتلال فرنسا لسوريا ، واستقلال ولاية بيروت استقلالا تاماً تحت حماية فرنسا ووصايتها ، وإدماج ولاية بيروت فى لبنان الذى يكون تحت سيادة فرنسا الفعلية ، وسواء أصح هذا أم لم يصح فإن لفرنسا أطماع لم تفتأ تعمل على تحقيقها فى سوريا وأن اليد اليهودية لم تفتأ تحرض على تحقيق هذه الأطماع . وقد لعبت هذه الأيدى الخفية دوراً مهماً فى حملها هذا السفاح على التنكيل بأحرار العرب . لقد كان أعضاء حزب اللامركزية يريدون إدارة خاصة لكل إقليم من أقاليم الأمة العربية ، ولا يريدون انفصالا عن الدولة العثمانية أما المتطرفون من العرب فإنهم لا يرضون بالحرية بديلا ولا يخضعون لأى شرط يمس استقلال بلادهم .

أثرت حوادث إعدام الأحرار وترحيل الأسر إلى أواسط الأناضول تأثيراً عميقاً فى العالم العربى والإسلامى فجزع لها شريف مكة وهو من

أكبر أمراء العرب نفوذاً لقد توسط لدى الاتحاديين بالعفو عنهم فأبوا وأصروا على إعدامهم وزاده جزعاً ما أثارته حقيبة وهيب باشا والى الحجاز من القلق فى نفسه فقد ألفى فى هذه الحقيبة خططاً تدل على إزالته من الوجود . يضاف إلى ذلك كله وجود جمعيات عربية فى بلاد الشام منظمة تنظيماً محكماً ترقب الأحوال وتطورها . وقد ملأ نفوسها التشاؤم ، فإن الدلائل جميعها تدل على أن تركيا لا تستطيع الاحتفاظ بمركزها لأنها ليست فى مكانة تقدرها على محافظة هذه الحدود المترامية وقد دخلت الحرب على غير استعداد .

لقد أراد الأتراك من شريف مكة أن يعلن الجهاد المقدس فهو سليل بيت النبوة والمسلمون ينظرون إليه نظر الاجلال فتباطأ الشريف وأبدى الأعذار وتمهل فى الأمر ، يرقب الحالة حتى بلغ الأمر من سوء الظن بين الاتحاديين مبلغاً لا يمكن التفاهم بعده . والحقيقة التى لا غبار عليها أن أحرار العرب بدءوا يشعرون بوجوب ايجاد دولة عربية فى هذا الشرق الأوسط وأن الفرصة حانت لتحقيقها ، وأن المقومات كلها موجودة لتكوين دولة عربية ذات كيان مستقل تعيش بين دول الأرض . على ذلك كله تقدم الحسين إلى الأتراك فى تحقيق بعض من هذه الرغبة مع البقاء ضمن الدولة العثمانية فقد أبرق إلى أنور باشا :

« إن خروج الدولة العلية منصورة من الحرب الحاضرة يتوقف على اشتراك جميع العناصر العثمانية فيها ولا سيما العرب والجانب الأهم من القتال فى بلادهم ، ويلوح لى أن إرضاء الشعب العربى يتوقف على مداواة قلبه الذى جرحه اتهام عدد كبير من أبنائه بتهم سياسية مختلفة والقبض عليهم ومحاكمتهم أمام المحاكم العسكرية بالدواء الآتى : إعلان العفو العام عن المتهمين السياسيين ، إنالة سوريا ما تطلبه من نظام لامركزى ، جعل إمارة مكة وراثية فى أولادى وإبقائها على حالتها الحاضرة ، فإذا قبلت

هذه المطالب ، فانى أتعهد بحشد القبائل العربية بقيادة أبنائى فى ميدان العراق وميدان فلسطين ، وإذا لم تقبل فأرجوكم ألا تنتظروا منى شيئاً سوى الابتهال للحق جل وعلا أن يهب للدولة النصر والتوفيق .

فرد عليه أنور أنه لا يوافق على العفو عن المتهمين وسينال كل عقابه وطلب من الشريف إرسال المجاهدين إلى ميادين القتال . متجاهلا كل مطلب . وبذلك ازداد التوتر وأصبح إصلاح ذات البين بين الأمتين صعبا .

العرب والحلفاء

أدركت بريطانيا الخطر الذى يهددها من جراء ما قام به الألمان فى ضم الترك إليهم ، ووجدت فى هذا الحلف خطراً مباشراً يهدد الهند فلم تجد بداً من التقرب إلى العرب والتودد إليهم ، فهم الذين يكادون يسيطرون على هذه الطريق . لقد بسطت حمايتها على مصر ، وبسطت نفوذها على جنوب الجزيرة وجزر الخليج وعقدت معاهدات بينها وبين شيوخ القبائل هناك ولكنها ما زالت تنظر إلى قلب الجزيرة فإن للأتراك أربع فرق موزعة بين الحجاز وعسير واليمن . فكيف تضمن السلامة من هذه الناحية لقد استطاعت أن تستميل ابن سعود إلى جانبها بعد أن تردد فى الأمر ولم تخش من الأدريسى فى عسير ولكنها كانت تخشى الحامية التركية المؤلفة من فرقتين فى اليمن فكيف تستطيع شل حركتها ؟ لقد وجدت أن الاتصال بالشريف حسين خير ضامن لتحقيق مآربها وكانت قبلا قد اتصلت بالأمير عبد الله أحد أنجاله . فقد صادف أن مر بمصر فى سفره إلى الأستانة فى مفتتح عام ١٩١٤ وكان فيها كتشنر المعتمد البريطانى فزاره المعتمد ورد عبدالله الزيارة إليه ، وقد أعلم الأمير المعتمد أن والده يسعى لاستقلال الإدارة فى إمارته ، وأن التوتر بينه وبين الأتراك وصل حداً

قد ينذر بالثورة . وكان المستر ستورز السكرتير الشرقى فى دار الاعتماد البريطانى حاضراً . لفتت هذه المحادثة ملاحظة كتشنر فوجد فيها فائدة أهمها الحد من اندفاع الألمان والأتراك إلى فم الخليج العربى . ولكنه أجاب الأمير إجابة مثبطة إذ قال له إن سياسة بريطانية التقليدية هى سياسة صداقة مع تركيا ولذلك فهو لا يتوقع أن تتدخل بريطانيا فى حالة كهذه . ثم أتم الحديث بزيارة أخرى من المستر ستورز للأمير ، فأجاب ستورز بما يثبط العزم أيضاً وهكذا عاد عبد الله إلى الحجاز دون أن يعرف شيئاً عن نوايا بريطانيا . وفى خريف عام ١٩١٤ طلب من الأمير عبد الله أن يوضح موقف والده إذا أعلنت تركيا الجهاد المقدس ، فأخبر الجهة البريطانية أنه سوف يقف على الحياد ، عند ذلك أعلم بأن بريطانيا سوف تساعده على استقلال بلاده إذا اشترك معها فى الحرب اشتراكا فعلياً .

ومرت أشهر معدودات دون اتصال بين الجهة البريطانية والحجاز .

ثم حدث أن اتصل المستر ستورز مع الشريف فتداول معه الأمر بحضور بعض الزعماء من العرب الذين أفلتوا من يد جمال بالشام فاتفقوا على صيغة العرض الذى يقدمه الجانب العربى فكتب الشريف حسين فى ١٤ تموز عام ١٩١٥ الكتاب الأول إلى نائب جلالة ملك بريطانيا بمصر ما نصه :

(١)

بسم الله الرحمن الرحيم :

لصاحب السعادة والرفعة نائب جلالة الملك بمصر سلمه الله : أقدم لجنابكم العزيز أحسن تحياتى الودية واحتراماتى وأرجو أن تعملوا ما فى وسعكم لتنفيذ المذكرة المرسلة إليكم طيه ، المتضمنة الشروط المقترحة المتعلقة بالقضية العربية ، وأود بهذه المناسبة أن أصرح لحضرتكم

ولحكومتكم، أنه ليس هناك حاجة لأن تشغلوا أفكاركم بآراء الشعب هنا، لأنه بأجمعه ميال إلى حكومتكم بحكم المصالح المشتركة. ثم يجب ألا تتعبوا أنفسكم بإرسال الطيارات أو رجال الحرب، لإلقاء المناشير وإذاعة الشائعات، كما كنتم تفعلون من قبل، لأن القضية قد قررت الآن. وإنى لأرجو هنا أن تفسحوا المجال أمام الحكومة المصرية لترسل الهدايا المعروفة من الحنطة للأراضى المقدسة «مكة والمدينة» التى أوقف إرسالها منذ العام الماضى. وأود أن ألفت نظركم إلى أن إرسال هدايا هذا العام والعام الفائت سيكون له أثر فعال فى توطيد مصالحنا المشتركة وأعتقد أن هذا يكفى لإقناع رجل ذكى مثلكم، أطال الله بقاءكم.

حاشية: أرجو ألا تزعجوا أنفسكم بإرسال أى رسالة قبل أن تروا نتائج أعمالنا هنا. خلا الجواب على مذكرتنا وما تتضمنه، ونرجو أن يكون هذا الجواب بواسطة رسولنا كما نرجو أن تعطوه بطاقة منكم ليسهل عليه الوصول إليكم عندما نجد حاجة لذلك والرسول موثوق به.

المذكرة الأولى

مكة فى ٢ رمضان سنة ١٣٣٣ هـ (١٤ تموز سنة ١٩١٥).

لما كان العرب بأجمعهم — دون استثناء — قد قرروا فى الأعوام الأخيرة أن يعيشوا وأن يفوزوا بحريتهم المطلقة، وأن يتسلموا مقاليد الحكم نظرياً وعملياً بأيديهم.

ولما كان هؤلاء قد شعروا وتأكدوا أنه من مصلحة حكومة بريطانيا العظمى أن تساعدهم وتعاونهم للوصول إلى أمانيهم المشروعة وهى الأمانى المؤسسة على بقاء شرفهم وكرامتهم وحياتهم، ولما كان من مصلحة العرب أن يفضلوا مساعدة حكومة بريطانيا على أية حكومة أخرى بالنظر لمركزهم الجغرافى ومصالحهم الاقتصادية وموقفهم من حكومة بريطانيا.

إنه بالنظر لهذه الأسباب كلها يرى الشعب العربى أنه من المناسب أن

يسأل الحكومة البريطانية إذا كانت ترى من المناسب أن تصادق بواسطة مندوبها أو ممثلها على الاقتراحات الأساسية الآتية :

أولا : أن تعترف انكلترة باستقلال البلاد العربية من مرسين — أدنة حتى الخليج الفارسى شمالا ، من بلاد فارس حتى خليج البصرة شرقاً ، ومن المحيط الهندى للجزيرة جنوباً يستثنى من ذلك عدن التى تبقى كما هى — من البحر الأحمر والبحر المتوسط حتى سينا غرباً .

على أن توافق انكلترة أيضاً على إعلان خليفة عربى على المسلمين .

ثانياً : تعترف حكومة الشريف العربية بأفضلية انكلترة فى كل مشروع اقتصادى فى البلاد العربية إذا كانت شروط تلك المشاريع متساوية .

ثالثاً : تتعاون الحكومتان الإنكليزية والعربية فى مجابهة كل قوة تهاجم أحد الفريقين وذلك حفظاً لاستقلال البلاد العربية ، وتأميناً لأفضلية انكلترة الاقتصادية فيها على أن يكون هذا التعاون فى كل شىء فى القوة العسكرية والبحرية والجوية .

رابعاً : إذا تعدى أحد الفريقين على بلاد ما ، ونشب بينه وبينها قتال وعراك فعلى الفريق الآخر أن يلزم الحياد ، على أن هذا الفريق المعتدى إذا رغب فى اشتراك الفريق الآخر معه ففى وسع الفريقين أن يجتمعا معاً ، وأن يتفقا على الشروط .

خامساً : مدة الاتفاق فى المادتين الثالثة والرابعة من هذه المعاهدة خمس عشرة سنة وإذا شاء أحد الفريقين تجديدها عليه أن يطلع الفريق الآخر على رغبته قبل انتهاء مدة الاتفاق بعام .

هذا ولما كان الشعب العربى بأجمعه قد اتفق والحمد لله على بلوغ الغاية وتحقيق الفكرة مهما كلفه الأمر فهو يرجو الحكومة البريطانية أن تجيبه سلباً أو إيجاباً فى خلال ثلاثين يوماً من وصول هذا الاقتراح .

وإذا انقضت هذه المدة ولم يتلق جواباً فإنه يحفظ لنفسه حرية العمل كما يشاء .

وفوق هذا فإننا نحن عائلة الشريف نعتبر أنفسنا إذا لم يصل الجواب أحراراً فى القول والعمل من كل التصريحات والوعود السابقة التى قدمناها بواسطة على أفندى .

(٣)

من السير هنرى ماك ماهون إلى الشريف حسين

مصر فى ١٩ شوال ١٣٣٣ ﻫ (٣٠ أغسطس سنة ١٩١٥ م) .

إلى الحسيب النسيب سلالة الأشراف وتاج الفخار فرع الشجرة المحمدية والدوحة القرشية الأحمدية ، صاحب المقام الرفيع والمكانة السامية ، السيد ابن السيد والشريف ابن الشريف السيد الجليل المبجل ، دولة الشريف حسين باشا ، سيد الجميع أمير مكة المكرمة ، قبلة العالمين ومحط رحال المؤمنين الطائعين ، عمت بركته الناس أجمعين .

بعد رفع رسوم وافر التحيات العطرة والتسليمات القلبية الخالصة من كل شائبة أعرض ، أن لنا الشرف بتقديم واجب الشكر لإظهاركم عاطفة الإخلاص والإحساسات نحو انكلترة ، وقد يسرنا علاوة على ذلك أن تعلم سيادتكم ورجالكم برأى واحد وعقيدة واحدة وهى أن مصالح العرب هى مصالح انكلترة ومصالح انكلترة هى مصالح العرب ، وأود بهذه المناسبة أن أؤكد لكم ما قاله اللورد كتشنر فى الرسالة التى وصلتكم بواسطة على أفندى ، وهى الرسالة التى أوضح لكم فيها بصراحة رغبتنا فى استقلال البلاد العربية وسكانها وموافقتنا على أن يكون الخليفة عربياً عريق العروبة .

أما ما يتعلق بالحدود فقد يكون بحثنا فى مثل هذه التفاصيل — والوقت قصير والحرب قائمة — سابق لأوانه ، وخاصة أن تركيا

لا تزال تحتل قسماً كبيراً من الأراضى التى أشرتم إليها فى اقتراحكم احتلالا تاماً ، ثم يجب أن أضيف إلى ذلك ، أننى علمت بدهشة وألم أن بعض العرب فى هذه الأقسام لا يرغبون فى مساعدتنا ، بل يقدمون مساعدتهم الفعلية بالسلاح الألمان والأتراك ، أعنى « للهدامين الجدد ، والظالمين القدماء » . هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى فإننا على استعداد لأن نرسل لفخامتكم المنح المطلوبة للأراضى المقدسة حالما تعلمونا كيف وأين ترغبون تسلمها ، ونحن نهيئ الأسباب اللازمة ليتمكن رسولكم من الوصول إلينا بكل أمان وسلام .

وتفضلوا بقبول احترامنا . التوقيع : ا . ه ماك ماهون

(٣)

من الشريف حسين إلى السير هنرى ماك ماهون .

بسم الله الرحمن الرحيم

مكة فى ٢٩ شوال ١٣٣٣ ، (٩ إيلول سنة ١٩١٥) .

لصاحب السعادة والرفعة نائب جلالة الملك بمصر سلمه الله .

بمزيد السرور والغبطة تلقيت كتابكم المورخ فى ١٩ شوال وطالعته بكل احترام واعتبار ، رغم شعورى بغموضه وبرودته ، فيما يتعلق بنقطتنا الأساسية ، أعنى نقطة الحدود .

وأرى من الضرورى أن أؤكد لسعادتكم إخلاصنا نحو بريطانيا العظمى واعتقادنا بضرورة تفضيلها على الجميع فى كل الشئون وفى أى شكل ، وفى أية ظروف ويجب أن أؤكد لكم أيضاً أن مصالح اتباع ديانتنا كلها تتطلب الحدود التى ذكرتها لكم ، ويعذرنى فخامة المندوب إذا قلت بصراحة إن البرودة والتردد اللذين ضمنهما كتابه فيما يتعلق بالحدود وقوله إن البحث فى هذه الشئون إنما هو إضاعة للوقت ، وأن

تلك الأراضى لاتزال بيد الحكومة التى تحكمها ، ويعذرنى فخامته إذا قلت إن هذا كله يدل على عدم الرضا أو على النفور أو على شىء من هذا القبيل .

فإن هذه الحدود المطلوبة ليست لرجل نتمكن من إرضائه ومفاوضته بعد الحرب بل هى مطالب شعب يعتقد أن حياته فى هذه الحدود وهو متفق بأجمعه على هذا الاعتقاد ، وهذا ما جعل الشعب يعتقد أنه من الضرورى البحث فى هذه النقطة قبل كل شىء مع الدولة التى يثقون بها كل الثقة ويعلقون عليها كل الآمال وهى بريطانيا العظمى . وإذا أجمع هؤلاء على ذلك ، فإنما يجمعون على سبيل الصالح المشترك ، وهم يرون أنه من الضرورى جداً أن تنضم الأراضى المجزأة ليعرفوا على أى أساس يؤسسون حياتهم ، كيلا تعارضهم إنكلترة أو إحدى حليفاتها فى هذا الموضوع مما يؤدى إلى نتيجة معاكسة الأمر الذى حرمه الله وفوق هذا فإن العرب لم يطلبوا — فى تلك الحدود — مناطق يقطنها شعب أجنبى ، بل هى عبارة عن كلمات وألقاب يطلقونها عليها .

أما الخلافة فإن الله يرضى عنها ، ويسر الناس بها .

وأنا على ثقة يا صاحب الفخامة أنكم لا تشكون قط بأنى لست أنا شخصياً الذى يطالب تلك الحدود التى يقطنها عرب مثلنا ، بل هى مقترحات شعب بأسره ، يعتقد أنها ضرورة لتأمين حياته الاقتصادية .

أو ليس هذا صحيحاً يا فخامة الوزير ؟ وبالاختصار فإننا ثابتون فى إخلاصنا ، نصرح بكل تأكيد بتفضيلنا لكم على الجميع أكنتم راضين عنا أم غاضبين . أما ما يتعلق بقولكم بأن قسما من شعبنا لا يزال يبذل جهده فى سبيل تأمين مصالح الأتراك . فلا أظن أن هذا يبرر البرودة والتردد اللذين شعرت بهما فى كتابكم فيما يتعلق بموضوع الحدود ،

الموضوع الذى لا أعتقد أن رجلا مثلكم ثاقب الرأى ينكر أنه ضرورى لحياتنا الأدبية والمادية وأنا حتى الساعة لا أزال أنفذ ما تأمر به الديانة الإسلامية فى كل عمل أقوم به ، وأراه مفيداً وصالحاً لبقية المملكة ، وإنى سأستمر فى هذا الرأى إلى أن يأمر الله بغير ذلك . وأود هنا ياصاحب الفخامة أن أؤكد لكم بصراحة أن الشعب ومن جملته هؤلاء الذين تقولون إنهم يعملون لصالح تركيا وألمانيا ينتظر بفارغ الصبر نتائج هذه المفاوضات على موافقتكم أو رفضكم قضية الحدود وقضية المحافظة على ديانتهم وحمايتهم من كل أذى وخطر . وكل ما تجده الحكومة البريطانية موافقاً لسياستها فى هذا الموضوع فما عليها إلا أن تعلمنا به ، وأن تدلنا على الطريق التى يجب أن نسلكها . ولذلك نرى من واجبنا أن نؤكد لكم أننا سنطالب إليكم فى أول فرصة بعد انتهاء الحرب ما ندعه الآن لفرنسا فى بيروت وسواحلها ، ولست أرى حاجة هنا لأن ألفت نظركم إلى أن خطتنا هى آمن على مصالح انكلترة من خطة انكلترة على مصالحنا ، ونعتقد أن وجود هؤلاء الجيران فى المستقبل سيقلق أفكارنا كما يقلق أفكارها .

وفوق هذا فإن الشعب البيروتى لا يرضى قط بهذا الابتعاد والانزواء وقد يضطرنا لاتخاذ تدابير جديدة قد يكون من شأنها خلق متاعب جديدة تفوق فى صعوبتها المتاعب الحاضرة ، وعلى هذا لا يمكن السماح لفرنسا بالاستيلاء على قطعة صغيرة من تلك المنطقة ، وأنا أصرح بهذا رغم أنى أعتقد وأومن بالتعهدات التى قطعتموها فى كتابكم .

ويستطيع معالى الوزير وحكومته أن يثق كل الثقة بأننا لا نزال عند قولنا وعزيمتنا وتعهداتنا التى عرفها مستر ستورز منذ عامين . ونحن ننتظر اليوم الفرصة السانحة التى تناسب موقفنا وخاصة فيما يتعلق بالحركة

التى أضحت قريبة ، والتى يدفعها إلينا القدر بسرعة ووضوح لتكون حجة — نحن والذين يرون رأينا — فى العمل ضد تركيا دون أن نتعرض للوم والنقد .

وأعتقد أن قولكم : « بأن بريطانيا لا تمسكم ولا تدفعكم للاسراع فى حركتكم مخافة أن يؤدى هذا التسرع إلى تصديع نجاحكم» لا يحتاج إلى إيضاح إلا فيما يتعلق بالأسلحة والذخائر عند الحاجة . أعتقد أن فى هذا كفاية .

(٤)

من السير هنرى ماك ماهون إلى الشريف حسين .

القاهرة فى ٢٤ تشرين الأول سنة ١٩١٥ (١٥ ذى الحجة سنة ١٣٣٣)
إلى شريف مكة مع الألقاب .

تلقيت كتابكم المؤرخ فى ٢٩ شوال بكثير من الغبطة والسرور ، وكان للعبارات الودية المخلصة التى وردت فيه أكبر تأثير فى نفسى ، وإنه يؤسفنى أنكم لاحظتم فى كتابى الأخير ، وحديثى عن قضية الحدود شيئاً من البرودة والتردد ، مع أنى لم أكن أقصد ذلك بل كنت أود أن أقول بأن الوقت لم يحن بعد للبحث فيها بحثاً منتجاً ، هذا كل ما أردت قوله ، وقد أدركت من كتابكم الأخير أنكم تعلقون أهمية كبرى على قضية الحدود وأنكم تعتبرونها من المسائل الحيوية ، فأرسلت مضمون كتابكم إلى الحكومة البريطانية وأنه ليسرنى أن أرسل إليكم البيانات التالية ، التى أثق كل الثقة أنها تفوز برضائكم .

إن مرسين واسكندرونة وبعض الأقسام السورية الواقعة فى غربى دمشق وحمص وحماه وحلب لا يمكن أن يقال عنها إنها عربية محضة ، فيجب أن تستثنى من الحدود التى ذكرتموها ، ونحن على استعداد للموافقة على تلك الحدود على أساس هذه التعديلات على ألا تنقص شيئاً من

اتفاقاتنا مع زعماء العرب أما الأراضى التى تستطيع إنكلترة العمل فيها على الحرية ودون أن توقع ضرراً بحليفتها فرنسا ، فإن لى السلطة التامة باسم حكومة صاحب الجلالة أن أعطيكم التأمينات التالية جواباً على كتابكم :

١ — إن إنكلترة مستعدة على أساس تلك التعديلات أن تعترف باستقلال العرب وتقديم المساعدة لهم فى الحدود التى اقترحها شريف مكة .

٢ — تحمى بريطانيا الأراضى المقدسة من كل اعتداء خارجى وتعترف بوحدتها .

٣ — تقدم بريطانيا للعرب عند الحاجة كل مساعدة أو نصيحة تلزم وتعاونهم فى تشكيل أفضل شكل من أشكال الحكومة فى مختلف البلاد العربية .

هذا من ناحية ومن ناحية أخرى فإن العرب يوافقون على استشارة ومعونة وإدارة بريطانيا العظمى وحدها ويرضون بأن يكون جميع الموظفين الذين يحتاجون إليهم بتنظيم دوائر مملكتهم من البعثة الانكليزية .

أما ما يتعلق بولايتى البصرة وبغداد فإن العرب يعرفون أن مركز انكلترة ومصالحها فيها يتطلب شكلا إدارياً خاصاً ومراقبة خاصة للمحافظة على تلك الأنحاء من الاعتداءات الخارجية ، وتأمين راحة واطمئنان السكان وتوطيد مصالحنا المشتركة فيها .

وإنى لعلى ثقة بأن هذا التصريح يجعلكم أبعد ما تكونون عن الشك فى عطف بريطانيا على أمانى أصدقائها « التقليديين » العرب ، ويؤدى حتما إلى التحالف والعمل على طرد الأتراك من البلاد العربية وإنقاذ العرب من النير التركى الذى كان وما يزال يضغط على أعناقهم منذ أعوام .

لقد قصرت كتابى هذا على الشئون العظيمة الأهمية ، فإذا كان لديكم

شئون أخرى ترغبون فى المذاكرة بشأنها ولم أشر لها فى كتابى هذا فإن فى وسعنا البحث فيها فى فرصة مناسبة فى المستقبل .

وقد تلقيت بالسرور والرضا نبأ وصول المحمل الشريف والهدايا المرسلة بكل دقة ونظام بفضل التعليمات والإرشادات القيمة التى قدمتموها وذلك بالرغم من الأخطار والمصاعب التى خلفتها الحرب الحاضرة . وأرجو الله أن يعيد السلام والأمان والحرية سريعاً إلى جميع الشعوب . لقد أرسلت إليكم هذا الكتاب بواسطة رسولكم النشيط الأمين الشيخ محمد بن عارف عريفان وهو سيطلعكم على بعض الشئون التى لم أذكرها فى كتابى .

(٥)

من الشريف حسين إلى السير هنرى ماك ماهون

بسم الله الرحمن الرحيم .

(مكة فى ٢٤ ذى الحجة سنة ١٣٣٣ — ٥ تشرين الثانى سنه ١٩١٥)

لقد تلقيت بسرور كتابكم الكريم المؤرخ فى ١٥ ذى الحجة وها أنا أجيبكم عليه بما يلى :

١ — رغبة فى تسهيل الاتفاق وخدمة الإسلام واجتناب كل ما من شأنه تعكير صفو المسلمين واعتماداً على صفات بريطانيا العظمى ومواقفها الحميدة ، فإننا نتنازل عن إصرارنا فى ضم مرسين وأدنة إلى المملكة العربية.

أما قضية حلب وبيروت وسواحلها فهى عربية صرفاً ، وليس هناك فرق بين المسلم العربى والمسيحى العربى فكلاهما من نسل واحد . وسنسير نحن المسلمين على خطة سيدنا عمر بن الخطاب وسواه من الخلفاء الراشدين الذين فرضوا على المسلمين — بموجب الديانة الإسلامية — أن يعاملوا المسيحيين كما يعاملون أنفسهم ، وقد قال سيدنا عمر فى حديث له عن

المسيحيين » بأن لهؤلاء ما لنا من حقوق وواجبات » وعلى هذا فإن المسيحيين سيتمتعون بما نتمتع به من حقوق بما يتفق ومصلحة الشعب أجمع

٢ — لما كان العراق قسما من المملكة العربية وكان مركز حكوماتها فى عهد على بن أبى طالب والخلفاء الذين تبعوه ، ولما كان هذا القطر مهداً لحضارة العرب ومدنيتهم وفيه أنشئت أبنيتهم الأولى وفيه عظمت قوتهم فإن العرب القريبين والبعيدين ينظرون إلى هذا القطر نظرة اعتبار خاصة ولا يستطيعون أن ينسوا بسهولة تقاليدهم وذكرياتهم ، ولذلك أعتقد أنه ليس فى المستطاع إقناع الشعب العربى بالتنازل عن هذا القطر ، إنما رغبة منا فى تسهيل الاتفاق واعتماداً على عهودكم فى المادة الخامسة من كتابكم ، وحفظاً لمصالحنا المشتركة فى هذا القطر ، فقد نوافق أن نترك الآن لمدة قصيرة الأراضى التى تحتلها الجيوش الانكليزية ، تحت إدارة انكلترة لقاء مبلغ من المال يدفع كتعويض عن مدة احتلال تلك المنطقة واحترام اتفاقكم مع شيوخها .

٣ — إذا كنتم ترغبون فى الإسراع بالثورة فإننا نرى كثيراً من المخاوف . وأول ما نخشاه أن يقوم مسلمو الطرف الآخر ويلوموننا على حركتنا وثورتنا على حكومة إسلامية . ثم هناك أمراً آخر نخشاه ، وهو أننا إذا وقفنا فى وجه الأتراك ووراءهم جميع القوى الألمانية ، فإننا لا نستطيع أن نعرف إذا كان من الممكن أن تضعف إحدى الدول المحالفة وتطلب الصلح فهل تتركنا انكلترة وحدنا أمام الأتراك أم لا ! فإذا تم هذا وبقى العرب وحيدين أمام الأتراك فماذا نصنع ؟

٤ — إن الأتراك لا يكادون يروننا وحيدين حتى يعمدوا إلى الانتقام منا فيعبثوا بحقوقنا المادية والمعنوية ، ويعتدوا على كرامتنا وشرفنا بمساعدة حليفتهم المانيا ، هذه أمور يجب النظر إليها منذ الآن بعين الاعتبار لأن لها علاقة خاصة بقضيتنا .

٥ — عندما يعرف العرب أن حكومة بريطانيا العظمى هى حليفتهم لا تدعهم وحدهم عند انتهاء الحرب وعقد معاهدة الصلح ، وتمد يدها دواماً لمساعدتهم والدفاع عنهم عندئذ يخوضون غمار الحرب بنفس مطمئنة لا يشوبها شيء من الخوف والحذر .

٦ — إن كتابنا المؤرخ ٢٩ شوال سنة ١٣٣٣ يغنينا على ما أعتقد عن إعادة رأينا فيما يتعلق بالمادتين الثالثة والرابعة من كتابكم الأخير بشأن الإدارة والاستشارة الحكومية والموظفين على ألا يكون (كما صرحتم) — تدخل فى الشئون الداخلية .

٧ — إنا ننتظر وصول جوابكم النهائى الصريح على هذه الاقتراحات بأسرع ما يمكن فقد أبدينا كل تساهل فى الموضوع فى سبيل الوصول إلى اتفاق يرضى الفريقين .

ونحن نعرف أن نصيبنا من هذه الحرب إما نجاح يؤمن للعرب حياة تتفق وتأريخهم القديم ، أو انقراض فى سبيل الوصول إلى أمانيهم ومطالبهم ولو لم أكن أعرف أن العرب مستعدون للتضحية بأرواحهم فى سبيل الوصول إلى أمانيهم لكنت أفضل أن أصعد إلى رأس جبل وأنزوى فيه ولكن العرب بأسرهم يصرون علىّ بأن أقود حركتهم حتى النهاية وليحفظكم الله وينصركم .

(٦)

من السر مالك ماهون إلى الشريف حسين

القاهرة فى ١٣ كانون الأول سنة ١٩١٥ (٩ صفر سنة ١٣٣٤)

وبعد فقد وصلنى كتابكم الكريم بتأريخ ٢٤ ذى الحجة سنة ١٣٣٣ وسرنى ما رأيت فيه من قبولكم إخراج ولايتى مرسين وأدنة من حدود البلاد العربية ، وقد تلقيت أيضاً بمزيد السرور والرضا تأكيداتكم أن

العرب عازمون على السير بموجب تعاليم الخليفة عمر بن الخطاب « رضى الله عنه » وغيره من الخلفاء الأولين : التعاليم التى تضمن حقوق الأديان وامتيازاتها على السواء ، هذا وفى قولكم أن يحترموا ويعترفوا بجميع معاهداتنا مع رؤساء العرب الآخرين يعلم منه طبعاً أن هذا يشمل البلاد الداخلة فى حدود المملكة العربية لأن حكومة بريطانيا العظمى لا تستطيع أن تنقض اتفاقات قد أبرمت بينها وبين أولئك الرؤساء .

أما بشأن ولايتى حلب وبيروت فحكومة بريطانيا العظمى قد فهمت كل ما ذكرتم بشأنها ودونت ذلك عندها بعناية تامة ، ولكن لما كانت مصالح حليفتها فرنسا داخلة فيها فالمسألة تحتاج إلى نظر دقيق وستخابركم بهذا الشأن مرة أخرى فى الوقت المناسب . إن حكومة بريطانيا مستعدة لأن تعطى كل الضمانات والمساعدات التى فى وسعها إلى المملكة العربية ولكن مصالحها فى ولاية بغداد تتطلب إدارة ودية ثابتة ، وأننا نستصوب تماماً رغبتكم فى اتخاذ الحذر ، ولسنا نريد أن ندفعكم إلى عمل سريع ربما يعرقل نجاح أغراضكم ، ولكننا فى الوقت نفسه نرى من الضرورى جداً أن تبذلوا كل مجهوداتكم فى جمع كلمة الشعوب العربية إلى غايتنا المشتركة ، وأن تحثوهم على ألا يمدوا يد المساعدة لأعدائنا بأى وجه كان ، فإنه على نجاح هذه المجهودات وعلى التدابير الفعلية التى يمكن للعرب أن يتخذوها لإسعاف غرضنا عندما يجىء وقت العمل تتوقف قوة الاتفاق بيننا وثباته ، وفى هذه الأحوال فإن حكومة بريطانيا العظمى لا تنوى إبرام أى صلح كان إلا إذا كان من ضمن شروطه الأساسية حرية الشعوب العربية وخلاصها من سلطة الألمان والأتراك . هذا وعربونا على صدق نيتنا ولأجل مساعدتكم فى مجهوداتكم فى غايتنا المشتركة فإنى مرسل مع رسولكم الأمين مبلغ عشرين ألف جنيه وأقدم فى الختام عاطر التحيات القلبية .

(٧)

من الشريف حسين إلى السير هنرى مالك ماهون

بسم الله الرحمن الرحيم

مكة فى ٢٥ صفر سنة ١٣٣٤ (أول كانون الثانى ١٩١٦)

تلقينا كتابيكم المؤرخين فى ٩ صفر فسرنى ما جاء فيهما ، وذهب ما كان يقلقنى وأظن أن فخامتكم قد أدركتم بعد وصول الشريف محمد فاروق واجتماعه إليكم بأن أعمالنا حتى الآن لم تكن لغايات وميول شخصية ، بل إن كل شىء كان بنتيجة مطالب ورغائب شعبنا ، وإننا لسنا سوى ناقلين ومنفذين لرغائب الشعب وإلحاحه .

وهذه الحقائق هى دوماً فى فكرى أهتم لها كل الاهتمام وأرجو أن تجد فى نفسكم مكانها من الانتباه والاعتبار .

إن ما يتعلق بقضية العراق وقضية التعويض الذى اقترحناه لقاء احتلاله فإننى فى رغبة فى تقوية ثقة بريطانيا بنوايانا فى القول والعمل أدع أمر تقدير المبلغ إلى حكمتها وعدالتها .

أما ما يتعلق بالأقسام الشمالية ومرافئها فقد أبدينا لكم فى كتابنا السابق أقصى ما يمكن أن نوافق عليه من تعديلات ونحن لم نتساهل هذا التساهل إلا لتحقيق الرغائب التى يريدها الله العلى الأعلى أن تتحقق ، وهذا الشعور هو الذى حدانا لأن نتجنب كل ما من شأنه أن يسىء إلى تحالف انكلترة وفرنسا والاتفاق المعقود بينهما خلال هذه الحرب ومصائبها .

(٨)

من السير هنرى مالك ماهون إلى الشريف حسين .

القاهرة فى ٢٤ ربيع الأول سنة ١٣٣٤ (٣٠ كانون الثانى سنة ١٩١٦)

تلقينا بسرور كتابكم المؤرخ فى ٢٥ صفر بواسطة رسولكم الموثوق به واطلعنا منه على رسالتكم الشفوية وإننا لنقدر حق التقدير الدوافع التى تقودكم فى هذه القضية الهامة ، ونعرف جيداً أنكم تعماون فى صالح العرب وأنكم لا ترمون إلى شىء فى عملكم غير صالحهم وحريتهم .

وقد عنيت عناية خاصة بملاحظتكم بشأن ولاية بغداد ، وسنبحث هذا الموضوع باهتمام وعناية زائدين عندما تتم هزيمة الأعداء ونصل إلى التسويات السلمية .

أما ما يتعلق بالجهات الشمالية فقد كتبت ملاحظة عن رغبتكم فى تجنب كل ما من شأنه الإساءة إلى تحالف انكلترة وفرنسا وسررت جداً بإبداء مثل هذه الرغبة .

وأظنكم تعرفون جيدا أننا مقررون قراراً نهائياً بألا نسمح بأى تدخل (مهما قل شأنه) فى اتفاقنا المشترك فى إيصال هذه الحرب إلى الفوز ، ثم متى انتهت الحرب ، فإن صداقة فرنسا وانكلترة ستقوى وتشتد وهى اللتان بذلتا الدماء الإنكليزية والفرنسية جنباً إلى جنب فى سبيل الدفاع عن الحقوق والحريات . والآن وقد قررت البلاد العربية أن تشترك معنا فى الدفاع عن الحقوق والحريات وتعمل معنا فى سبيل هذه القضية الهامة فإننا لنرجو الله أن تكون نتيجة هذه الجهود المشتركة وهذا التعاون الوطيد صداقة دائمة تعود على الجميع بالسرور والغبطة . وقد سررنا جداً للحركة التى تقومون بها لإقناع الشعب بضرورة الانضمام إلى حركتنا والكف عن مساعدة أعدائنا ونترك لفطنتكم وتقديراتكم تقرير الوقت المناسب لاتخاذ تدابير أوسع من هذه .

إعلان الثورة ومكانة العرب
في انتصار الحلفاء في الحرب العالمية الأولى

لم يكن إعلان الثورة العربية مفاجأة للعالم ، فإن جميع المقدمات التى مرت بنا تؤدى إلى هذه النتيجة ، فقد استيقظ العرب باليقظة الكبرى التى عمت أرجاء العالم ، وفتحوا عيونهم بين يدى الخلافة التى كانت تحكم أقواماً وشعوباً متنوعة ، ورأوا ما تفعله هذه الأقوام ، ثم ما يقوم به العنصر الحاكم فى ثورة هائجة من النعرة القومية الطورانية والنية المبيتة فى تتريك بقية العناصر المنضمة إلى الدولة بالرغم من ضعف سلطان الخلافة وتضعضع مركزها فى أقسامها الغربية والشرقية ، وفى العرب رجال لهم فى جيش الدولة مكانة وفى إدارتها شأن وعنصرهم هو العنصر الغالب ، والثقافة السائدة هى الثقافة العربية الإسلامية والقرآن الذى تستظل بظلاله الخلافة الإسلامية ينطق بلسان عربى مبين . فلم يرضوا بهذه المكانة ؟ أولم يصبروا حتى تستتركهم جمعية الاتحاد والترقى ، لقد أظهروا مقدرة فائقة فى جميع الميادين الحربية والإدارية وساهم رجالهم فى قمع الظلم والاستبداد وإعادة الدستور ، فقد زحف القائد العربى محمود شوكت باشا بالجيش على العاصمة وأرغم الخليفة على التنازل وعلى إعادة الدستور . أفلا يمكن للعرب إذن أن يحددوا مركزهم فى هذه الدولة ؟ كل أولئك أهابت بالعرب ، وكانت الفرصة سانحة فى هذه الحرب العالمية فتقدموا للدولة يستوضحونها ويطلبون تحديد مركزهم فأغضب ذلك الاتحاديين وفعل جمال باشا فى أحرارهم ما فعل . ما كان للعرب بد من خوض المعركة ، ولكن كيف يكون ذلك وهناك معسكران متطاحنان : تركيا والألمان من جهة وانكلترة وفرنسا وبقية الحلفاء من جهة أخرى ، لم ير العرب بدآ من الانحياز إلى

جانب الحلفاء بعد أن ألقى الشريف حسين الحجة على الأتراك بمطالبة العفو عن الأحرار قبل أن يشنقهم جمال باشا ثم بمطالبة تحديد مكانة الأمة العربية ضمن الخلافة من حيث إنشاء إدارة لا مركزية فرفض الأتراك ذلك كله . وضع الشريف مع جمعيتى الفتاة والعهد العربيتين مشروعاً على أساسه بدأ الاتصال بالغرب ودخلت المفاوضة بطريق المراسلة بعد أن كانت المواجهة قد مهدت لها من قبل ، وتحددت صلات العرب بالحلفاء بالوثائق المتقدمة التى جرت على أساس رسائل بين الشريف وبين ماك ماهون . وكانت الساعة الثالثة والنصف من صباح يوم السبت ٩ شعبان ١٣٣٤ الموافق ١٠ حزيران لعام ١٩١٦ حداً فاصلا بين العرب والترك فى خلافة آل عثمان ، حيث انطلقت نيران العرب على ثكنات الجيش العثمانى مؤذنة بإعلان الاستقلال والثورة وعزز الشريف هذه الوثبة بمنشور على العالم الإسلامى والعربى جاء فيه : إن الاتحاديين خرجوا على العهد الأخوى بين الشعبين ، رغم المعونة الصادقة التى بذلها العرب فى ظل الخلافة ، وخرجوا على الشريعة فبدلوا الأحكام ، وشنقوا أحرار العرب جماعات وفرادى ، وشردوا أسرهم ونفوها من أرضها ، وصادروا الأموال ، ولقد نصحنا فلم ينفع النصح ، وقد وفقنا الله لأخذ الاستقلال فضربنا على أيدى الاتحاديين وانفصلت بلادنا عن المملكة العثمانية انفصالا تاماً وأعلنا استقلالا لا تشوبه شائبة مداخلة أجنبية ولا تحكم خارجى جاعلين الغاية نصرة دين الإسلام وإعلان شأن المسلمين مستندين فى كل أعمالنا على أساس أحكام الشرع الشريف ولن يكون لنا مرجع سواه فى جميع الأحكام وأصول القضاء .

لقد استطاع جيش الثورة أن يستولى على مدن الحجاز الكبرى فى أقل من ثلاثة أشهر عدا المدينة المنورة فإن الحامية التركية بقيت محاصرة فيه إلى ما بعد انتهاء الحرب . وصل إلى الحجاز ضباط العرب

الذين أفلتوا من الجيش العثمانى ونظموا جيوشها على أسس نظامية ووصلتهم بعض العدة من الحلفاء . وقد ارتاب الحلفاء فى أمر الثورة إما خوفاً منها أن تتغلب عليهم أو أنهم كانوا لا يريدون الاعتراف بها ولكنهم أذعنوا بعد أن أدركوا أهميتها . وأنها هى التى قيدت هجوم الأتراك على القناة وقد اعترف بذلك جمال باشا نفسه ، زد على ذلك فإنها هى التى حالت دون نجاح الحملة التركية الألمانية إلى جنوب الجزيرة ولو نجحت هذه الحملة لأقفلت البحر الأحمر ولأفسحت المجال لنشاط الألمان ، أما من الوجهة الستراتيجية فقد أصبحت هذه المنطقة الموالية للحلفاء بعد انضمام ابن سعود إليهم والتى تمتد من البحر الأحمر إلى الخليج الفارسى خير ضمان لسلامة ملاحتهم ، وكتب جمال باشا فى مذكراته يقول : لولا ثورة العرب ما جرأت كتيبة انكليزية فى عام كامل أن تطأ ضفة القناة الشرقية .

تقدمت الجيوش العربية تفتح فى أرض الحجاز حتى وصلت العقبة فى شهر تموز عام ١٩١٧ فاتخذتها نقطة ارتكاز ، وأخذت بعد ذلك تتقدم وتزيل حاميات الأتراك وتصطدم بقواتهم حتى وصلت إلى دمشق فدخلتها ظافرة فى اليوم الأول من شهر تشرين الأول لعام ١٩١٨ ودخلت معها الجيوش البريطانية ، ثم والت الكتائب العربية زحفها فدخلت حمص وحماة وحلب ولم يمض شهر حتى تم تحرير سوريا جميعها ، وقد قام ضباط الجيش العربى من العراقيين بدور مهم فى هذه الحركة ، وكان أول ما فعله الأمير فيصل أن شكل حكومة عربية فى دمشق ، وطفقت الأعلام العربية ترفرف على المدن السورية جميعها .

عهود الحلفاء، اتفاق سايكس — بيكو، وعد بلفور

بدأ الشريف حسين مراسلاته الرسمية قبل الثورة مع السر هنرى ماك ماهون فى يوم ١٤ تموز لعام ١٩١٥ وانتهت بآخر كتاب حرره ماك ماهون مؤرخ ٢٠ كانون الثانى عام ١٩١٦ وأعلن الثورة العربية فى ١٠ حزيران لعام ١٩١٦ فى مكة ودخلت جيوش العرب دمشق بقيادة الأمير فيصل فى اليوم الأول من شهر تشرين الأول لعام ١٩١٨ وأعلنت الهدنة فى اليوم الثلاثين من هذا الشهر نفسه لعام ١٩١٨ وظن العرب أنهم سيجنون ثمار عملهم وحلفهم بإعلان استقلال بلادهم الذى تعهد به الحلفاء ولكنهم فوجئوا بأمر لم يكن فى الحسبان. فاجأهم اتفاق سايكس بيكو الذى عقد فى مايس عام ١٩١٦ وهو اتفاق متمم للاتفاق الرئيسى مع روسيا والقاضى بتقسيم الدولة العثمانية بعد نجاح الحرب بين هذه الدول الثلاثة. وكانت حصة روسيا من هذه الغنيمة فيما يقع من بلاد تركيا خارجاً عن البلاد العربية.

وتقضى معاهدة سايكس — بيكو بتقسيم بلاد الشام (سوريا لبنان، فلسطين) والعراق تقسيما مزقت به هذه البلاد شر ممزق، فقد جعلت فلسطين منطقة خاصة تتكون فيها إدارة دولية يشترك بالمشورة فى تكوينها شريف مكة.

وقسمت البقية الباقية إلى مناطق تطلق يد كل دولة فى منطقة واحدة منها اطلاقاً تاماً وجعلت لكل من الدولتين نفوذاً خاصاً فى منطقة من المنطقتين الداخليتين المتجاورتين على أن تتكون منهما دولة عربية أو حلف من دول عربية، دون مراعاة لوضع طبيعى أو اجتماعى أو سياسى فى صالح هذه البلاد وقد روعى فى هذه الخطة المصالح الاستعمارية التى تؤبد نفوذ الاستعمار فى هذه البلاد وتحول دون وحدتها فى يوم من الأيام.

وفى ٢ شباط من عام ١٩١٧ كتب وزير خارجية بريطانيا إلى اللورد روتشلد تصريحاً عرف باسم (وعد بلفور) هـذا نصه : لى الشرف أن أخبركم باسم جلالته عن شعور الوزارة البريطانية فيما وضعته وأقرته بالنسبة إلى مساعى الصهيونية : إن حكومة جلالته تنظر بعين الرضا إلى إنشاء وطن قومى لليهود فى فلسطين وستبذل قصارى جهدها لتسهيل الوصول إلى هذا الهدف ، على أن يكون واضحاً أنه لن يحدث من جراء هذا ما يضر بالحقوق المدنية والدينية التى تتمتع بها الطوائف غير اليهودية فى فلسطين أو بالحقوق المدنية والسياسية التى حصل عليها اليهود فى بلد آخر » .

لم يدر الحسين باتفاق سايكس — بيكو حتى نشره البلاشفة بعد سقوط القيصرية الروسية فاغتنم الأتراك الفرصة ومدوا أيديهم إلى العرب بصلح منفرد متخذين من هذا الاتفاق وسيلة ، فالتفت الحسين إلى الانكليز يستوضحهم تجاه الرد بهذه المذكرة :

من المعتمد البريطانى فى جدة إلى الشريف حسين

جدة فى ١٧ شباط ١٩١٨

جلالة صاحب السيادة العظمى ملك الحجاز وشريف مكة وأميرها المعظم . بعد بيان ما يجب بيانه من الاحترام والتوقير قد أمرنى جناب فخامة نائب جلالة الملك أن أبلغ جلالتكم البرقية التى وصلت إلى فخامته من نظارة الخارجية البريطانية بلندن ، وقد عنونتها حكومة جلالة ملك بريطانيا العظمى باسم جلالتكم وهذا نصها بالحرف الواحد :

إن الرغبة والصراحة التامة التى اتخذتموها جلالتكم فى إرسال التحريرات التى أرسلها القائد التركى فى سوريا إلى سمو الأمير فيصل

وجعفر باشا إلى جناب نائب جلالة الملك كان لها أعظم التأثير الحسن لدى حكومة جلالة ملك بريطانيا العظمى ، وإن الإجراءات التى اتخذتموها جلالتكم فى هذا الصدد لم تكن إلا رمزاً يعبر عن تلك الصداقة والصراحة التى كانت دائماً شاهد العلاقة بين كل من الحكومة الحجازية وحكومة جلالة ملك بريطانيا العظمى ومما لا يحتاج إلى دليل أن السياسة التى تنسج عليها تركيا هى إيجاد الارتياب والشك بين دول الحلفاء والعرب الذين هم تحت قيادة وعظيم ارشادات جلالتكم ، قد بذلوا الهمة الشماء ليظفروا بإعادة حريتهم القومية . إن السياسة التركية لا تفتأ تغرس ذلك الارتياب بأن توسوس للعرب أن دول الحلفاء يرغبون فى الأراضى العربية وتلقى بأذهان الحلفاء أنه يمكن إرجاع العرب عن مقصدهم ، ولكن أقوال الدساسين لن تقوى على إيجاد اختلاف بين الذين اتجهت عقولهم إلى فكر واحد وغرض واحد . إن حكومة جلالة ملك بريطانيا العظمى وحلفاءها ما زالت واقفة موقف الثابت لكل نهضة تؤدى إلى تحرير الأمم المظلومة ، وهى مصممة أن تقف بجانب الأمم العربية فى جهادها لأن تبنى عالماً عربياً يسود فيه القانون والشرع بدل الظلم العثمانى ، ويتغلب فيه الاتحاد على التنافس المصطنع الذى أحدثه الموظفون الترك . إن حكومة جلالة ملك بريطانيا تكرر وعدها السالف بخصوص تحرير الأمم العربية ، وإن حكومة جلالة ملك بريطانيا قد سلكت مسلك التحرير وتقصد أن تستمر عليه بكل استقامة وتصميم بأن تحفظ العرب الذين تحرروا من السقوط فى وهدة الدمار ، وتساعد الذين لا يزالون تحت نير الظالمين لينالوا حريتهم . وفى الختام أتمنى قبول خالص التحيات وعظيم الاحتشامات والتمنيات .

وفزع العرب من وعد بلفور فاستوضح الحسين الحكومة البريطانية

فأرسلت إليه رسولا أكد له شفوياً أن هذا الوعد لا يمس حقوق العرب السياسية والاقتصادية . والحقيقة التى انتهت إليها هاتان القضيتان ما يأتى :

فيما يخص فلسطين : لقد كان الهجوم الألمانى التركى على قناة السويس مدعاة تفكير البريطانيين حيث انتهوا إلى أن شواطىء البحر الأحمر غير كافية لحفظ القناة وأن فلسطين نقطة ستراتيجية مهمة للقناة فلا بد من اتخاذ وسيلة لجعلها تحت الحماية البريطانية . فكانت هذه الوسيلة ادعاء الصهيونية لها . وقد جاء بمذكرات سفير بريطانيا السابق فى فرنسا اللورد برتيس : إن الخطط المؤدية إلى تكوين دولة يهودية فى فلسطين قد تم الاتفاق عليها مع اليهود من جهة ومع لويد جورج ولورد جراى من جهة أخرى فى كانون الثانى عام ١٩١٥ ولكن هذا الاتفاق لم ينشر . وقد كان ادعاء الصهيونيين للوطن القومى وسيلة أخرى لإبعاد فرنسا التى تدعى أن لها حقاً فى فلسطين . وبذل الصهيونيون جهوداً جبارة اتخذوا لها شتى الوسائل لتحقيق هذا الوعد فاقتنعت به فرنسا فى ٩ شباط عام ١٩١٨ واقتنعت إيطاليا فى ٨ مايس عام ١٩١٨ واقتنعت أمريكا فى ٣١ أغسطس ١٩١٨ ومهما فعل العرب وغيرهم واحتجوا وثاروا ودافعوا ودخلوا الحرب ونشر من الكتب والاقتراحات فى الكتاب الأبيض وغيره فإن الخطة موضوعة منذ ١٩١٥ إلى أن خرج الانجليز من الانتداب فسلمت فلسطين إلى اليهود وشرد العرب فى العراء وأغمطت حقوقهم كلها وقد عضدت بريطانيا وصديقتها أمريكا اليهود فى تكوين دولتهم ونسيتا ما جاء فى تصريحات واسن وعهود بريطانيا ، وإعلان حقوق الإنسان .

على أثر هذين التصريحين تألفت لجنة مكونة من سبعة أعضاء من

أحرار العرب فتقدموا بمذكرة إلى الحكومة البريطانية يستوضحونها ويطلبون تحديد ما جرى بين الشريف حسين ومك ماهون فجاءهم الرد بما يأتى :

نص العهد البريطانى للسوريين السبعة :

١ — إن حكومة جلالة الملك ترغب فى أن تكون عامة الشعوب التى تتكلم اللغة العربية منقذة من السلطة التركية ، وأن تعيش فيما بعد وعليها الحكومة التى ترغب فيها .

٢ — إن بعض البلاد العربية إما كانت تتمتع باستقلالها التام منذ مدة أو حصلت عليه الآن وهو استقلال اعترفت به انكلترة اعترافاً تاماً وهذا يكون شأنها أيضاً مع البلاد التى تحصل على استقلالها من الآن حتى نهاية الحرب .

٣ — إن سائر البلاد العربية هى الآن خاضعة للترك أو تحتلها جيوش الحلفاء فحكومة جلالة الملك تأمل ، ولها الثقة أن شعوب هذه البلاد تحصل أيضاً على حريتها واستقلالها وأن يتخذ بشأنها عند انتهاء الحرب قرار يتفق مع رغابها .

٤ — إن حكومة جلالته تعتقد أن العوائق والصعوبات المقدرة التى تقف فى سبيل أحياء هذه الشعوب سيتغلب عليها تغلباً ناجحاً وهى تعد بكل مساعدة لمن يسعى فى إزالتها ومستعدة لأن تنظر فى أى خطة لعمل مشترك يلتئم مع الحركات العسكرية الحاضرة ، ويتفق مع المبادئ السياسية لبريطانيا وحلفائها .

وفى ٧ نوفمبر عام ١٩١٨ صدر تصريح مشترك يبين الهدف الذى من أجله حاربت فرنسا وبريطانيا فى الشرق وهذا نصه :

إن السبب الذى من أجله حاربت فرنسا وانكلترة فى الشرق تلك

الحرب التى أهاجتها مطامع الألمان إنما هو لتحرر الشعوب التى رزحت أجيالا طوالا تحت مظالم الترك تحريراً تاماً نهائيا وإقامة حكومات وإدارات وطنية تستمد سلطتها من اختيار الأهالى الوطنيين لها اختياراً حراً ، ولقد أجمعت فرنسا وانكلترة على أن تؤيد ذلك بأن تشجعا وتعينا على إقامة هذه الحكومات والإدارات الوطنية فى سوريا والعراق : المنطقتين اللتين أتم الحلفاء تحريرهما ، وفى الأرض التى ما زالوا يجاهدون فى تحريرها ، وأن تساعدا هذه الهيئات وتعترف بها عندما تؤسس فعلا . وليس من غرض لفرنسا وانكلترة أن تنزلا أهالى هذه المناطق إلى الحكم الذى تريدانه ، ولكن همهما الوحيد أن يتحقق بمعونتهما ومساعدتهما المفيدة عمل هذه الحكومات والإدارات التى يختارها الأهلون من ذات أنفسهم وأن تضمنا عدلا منزهاً يساوى بين الجميع ويسهل عليهم ترقية الأمور الاقتصادية فى البلاد بإحياء مواهب الأهالى الوطنين وتشجيعهم على نشر العلم ووضع حد للخلاف القديم الذى قضت به السياسة التركية تلك الأغراض التى ترمى إليها الحكومتان المتحالفتان فى هذه الأقطار المحررة .

اصطدام العرب بالحلفاء

(مؤتمر باريس)

بالرغم من هذه الوعود المنفردة والمشتركة فإن الحلفاء أخذوا يسيرون على الأسس التى جاء بها اتفاق سايكس — بيكو ، والصهيونية تكيد من وراء ذلك وتحث الحلفاء على تحقيقها بغية تحقيق وعد بلفور أما العرب فقد اطمأنوا إلى هذه الوعود وانصرف الأمير فيصل يرتب أموره فى دمشق وفى البلاد السورية . وكانت الجيوش البريطانية تحتل

البلاد العربية وحدها مع الجيوش العربية ، وبينما كان المسئولون ينتظرون ما يأتى به مؤتمر الصلح فوجئ العرب فى دمشق بنزول الجيوش الفرنسية فى السواحل السورية فلما احتجت حكومة دمشق العربية على ذلك أجابها البريطانيون أن هذا أمر مؤقت اقتضته الحركات العسكرية ولا يعنى اتفاق سايكس — بيكو .

وذهب الأمير فيصل إلى باريس ليحضر مؤتمر الصلح بتكليف من والده الملك حسين باعتباره أحد الحلفاء . ولكنه خاب ظنه إذ وجد تعبئة منظمة من فرنسا وانكلترة والصهيونيين لإحباط مساعيه وعدم الاعتراف به ولكن ما لبث الأمر قليلا حتى اعترف به ممثلا لحكومة الحجاز ، فبسط الأمير مطالب العرب . وكان يسود المؤتمر مثالية الرئيس ولسن فى حق تقرير الشعوب مصيرها وفى عباراته التى يكررها دائماً : إن تسوية أى قضية من القضايا سواء أكانت دولية أم سياسية أم اقتصادية يجب ألا تستند إلى المنافع المادية التى تؤدى إلى استغلال الغير .

غير أن هذا المؤتمر ما لبث أن وضع حق تقرير مصير الشعوب العربية التى انفصلت عن تركيا فى المادة (١٩) من مقرراته والتى كان مايخص البلاد العربية منها قد تبلور فيما بعد فى هذه الفقرة من المادة ٢٢ من ميثاق عصبة الأمم وهى : « وهناك شعوب معينة كانت تابعة للدولة التركية قد وصلت من التطور درجة تضعها فى مصاف الأمم التى يمكن اعتبارها مستقلة مبدئياً ، على شرط أن تقبل مشورة ومساعدة دولة منتدبة فى تدوير شئونها وتستمر حتى تصل إلى مكانة تستطيع بها الاستغناء عن هذه المشورة والمساعدة وأن تراعى رغبة هذه الشعوب فى اختيار الدولة المنتدبة » .

لقد كان الصراع عنيفا فى مؤتمر باريس بين فرنسا وانكلترة صاحبتى اتفاق سايكس — بيكو من جهة وبين منافستهما إيطاليا وصاحب الحق

الشرعى ملك الحجاز من جهة أخرى ، وكانت كل من فرنسا وانكلترة تحاولان التفاهم على تعيين الحدود وتوضيحها لتحقيق رغبة كل واحدة منها ورأت انكلترة أن هذا الاتفاق فى وضعه الحالى مضر فى مصالحها فكان ما كان من ارجاع أحواض النفط فى لواء الموصل إليها ، ومن ثم السكوت عن تدويل فلسطين حيث انتهى الأمر فيما بعد بوضعها تحت بشرط مراعاة تنفيذ وعد بلفور .

ومن نتائج هذا المؤتمر تأليف لجنة تحقيق أو استفتاء لمعرفة رغبات أهل البلاد العربية . وقد رجعت هذه اللجنة بتقرير مفصل خلاصته : عدم التوصية بالانتداب الفرنسى على سوريا ، والمحافظة على وحدة سوريا وفى ضمنها فلسطين مع إعطاء لبنان حكما ذاتيا فى نطاق الوحدة السورية وأن يبقى العراق قطراً واحداً ، وأن يقوم حكم ملكى دستورى فى كل من الانتداب البريطانى العراق وسوريا .

ولكن معالم هذه اللجنة طمست ولا شك فى أن ذلك من فعائل اليهود وتدبيرهم . رأى الأمير فيصل هذا الاصطراع وأنه لا مناص من التفاهم مع فرنسا . فتم اتفاق بينه وبين كليمنصو اشتركت فى المشورة فيه بريطانيا . فلما عرضه على المسئولين فى سوريا رفضوه .

إعلان الاستقلال ومبايعة الملك فيصل
وما ترتب على ذلك

أدرك العرب نوايا الغرب وتأكد لهم أن اتفاق سايكس — بيكو سوف تدعمه الصهيونية فى أنحاء العالم وسوف تعبئ له الصحافة والمحافل السياسية حتى تحققه فاجتمع المؤتمر السورى العام فى ٧ مارس عام ١٩٢٠ وأعلن استقلال سوريا جميعها بما فيها فلسطين ولبنان وأن يكون شكل الحكم فيها ملكيا دستوريا واحتفظ القرار للبنان بحكم ذاتى ضمن

الدولة السورية . ثم المناداة بالأمير فيصل ملكا على سوريا . واجتمع زعماء العراق وأعلنوا استقلال العراق والمناداة بالأمير عبد الله ملكا عليه وفى اليوم الثامن من هذا الشهر توج فيصل بتاج الملك السورى .
قرر العرب هذه المقررات الخطيرة وجيوش بريطانيا تحتل العراق وفلسطين وجيوش فرنسا تحتل السواحل السورية وتتقدم فى كل لحظة إلى الداخل . فأغضب هذا القرار الحلفاء فاجتمع مجلسهم الأعلى فى سان ريمو من أعمال إيطاليا فى ٢٥ نيسان ١٩٢٠ وأعلن :

١ — وضع سوريا ولبنان تحت الانتداب الفرنسى بدولتين منفصلتين .

٢ — وضع العراق تحت الانتداب البريطانى .

٣ — وضع فلسطين تحت الانتداب البريطانى مع تنفيذ وعد بلفور .

فكانت هذه المقررات مفاجأة مفجعة أملاه عملاق الظلم وجبروت الاستعمار على أمة وديعة تطلب حقها وتستنجز وعداً طالما أعطى لها .

الحرب بين فرنسا والعرب

وخروج فيصل من الشام

أخذت فرنسا تزحف على داخل سوريا وتبرر زحفها على أساس أنها دولة منتدبة أو أنها دولة فرضت نفسها فرضاً دون رغبة أهل البلاد . وكانت جيوشها مسلحة تسليحاً كاملا وبينما كانت جيوشها ترتد متقهقرة أمام الكماليين المسلحين كانت جيوشها تتقدم إلى الأمام بسلاح يفوق سلاح الجيوش العربية . وكان العرب يستندون إلى العهود وفرنسا تستند إلى القوة .

وبينما كان الملك فيصل يتأهب للرجوع إلى باريس ليحضر مؤتمر الصلح وليبسط شئون البلاد أبلغه الجنرال غورو أنه لا يوافق على سفره

ما لم تحل المسألة السورية . وفى يوم ١٤ تموز ١٩٢٠ أنذره إنذاراً محدداً فيه المطاليب الآتية :

١ — وضع الخط الحديدى بين رياق وحلب تحت الإدارة الفرنسية ومراقبتها .

٢ — استغلال فرنسا لمحطات الخط الحديدى فى حمص، حماة وحلب .

٣ — تداول العملة السورية التى أصدرتها فرنسا .

٤ — قبول الانتداب الفرنسى على سوريا .

٥ — معاقبة عصابات الثوار .

٦ — تنفيذ هذه المطالب خلال أربعة أيام وإلا نفذت بالقوة

عرض الملك هذا الإنذار المفاجىء على مجلس وزرائه فدرسه ووجد أن البلاد غير قادرة على الدفاع إذا استعمل الفرنسيون القوة . وأن هذه المطالب ما هى إلا وسيلة للقضاء على استقلالها ، ومع ذلك قبل الإنذار رسمياً غير أن الفرنسيين تقدموا بحجة أن الجواب جاءهم متأخراً وكيف يمكن أن يتأخر وقد أبرق من دمشق إلى بيروت ولكن فرنسا شأنها فى كل أعمالها أن تركب متن الظلم والخيانة وتاريخها مع الجزائر وتونس معروف .

تقدمت جيوشها فلم ير العرب بدآ من صدها بعد أن فهموا نواياها لكن سلاحها القوى المتفوق حصد الأحرار واستشهد وزير الحربية فى موقعة ميسلون وتم احتلال دمشق . وطلب غورو من فيصل أن يغادر البلاد فى أسرع ما يمكن ، فاضطر الملك العربى أن يغادر البلاد إلى أوربا حيث حليفته فى السلاح بريطانيا ليبسط لها أفعال الحليفة الثانية فرنسا وفى معاهدة الصلح التى تمت فى سيفر فى ١٠ أغسطس ١٩٢٠ أيدت المواد ٩٤ — ٩٨ منها ما جاء فى المادة ٢٢ من ميثاق عصبة الأمم تم وضع سوريا تحت الانتداب واعتبارها دولة مستقلة مبدئياً .

وبعد انهيار الحكومة الوطنية قسمت فرنسا سوريا دويلات وبدأت أعمال التخريب الاجتماعى والسياسى والاقتصادى فى هذا البلد الأمين .

الانتداب على العراق

مبايعة الملك فيصل وتتويجه ملكا على العراق

وثبت إنكلترة على العراق عند إعلان تركيا الحرب عام ١٩١٤ وبعد مساجلة فى المواقع بينها وبين جيوش الدولة العثمانية استقرت جيوش بريطانيا فى البصرة . واتخذتها قاعدة لحركاتها فى هذا القطر العربى وظلت الحرب سجالا بين جيوش الانجليز وجيوش الترك خسر فيها الانجليز والترك عدداً عظيما من الضحايا والمعدات . إلى أن انتهى الأمر باحتلال الموصل على أثر إعلان الهدنة .

وهكذا احتل الانجليز العراق وحكموه حكما مباشراً ، والعراق جزء من البلاد العربية المتيقظة المتطلعة إلى الاستقلال لعب أبناؤه دورهم المهم فى الثورة العربية الكبرى إذ كانوا يؤلفون العدد الأكبر من ضباط العرب فى الجيش العثمانى .

زد على ذلك فإن المنتمين إلى جمعية الإصلاح وغيرها من الجمعيات قد أدوا نصيبهم فى هذه الحركة .

وبينما كان العراق يتطلع إلى إعلان استقلال الدولة العربية إذ يسمع بالانتداب يفرض عليه فرضاً دون أخذ رأيه . وإذا به يقيد بالسلاسل وبعد أن كان العراق سمع من منشور الجنرال مود يوم ١٩ آذار سنة ١٩١٧ ألفاظ الحرية والتحرير إذ به يرى الانجليز يسدرون فى غلوائهم ويعلنون الانتداب فانتفض العراق تلك الانتفاضة الهائلة . وقبل أن نذكر طرفاً منها ومن نتائجها نثبت هنا منشور الجنرال مود لقيمته التاريخية قال :

يا أهالى ولاية بغداد :

إنى باسم مليكى المعظم واسم شعوبه التى يحكم عليها أوجه إليكم الخطاب الآتى :

إن الغرض من معاركنا الحربية هو دحر العدو وإخراجه من هذه الأصقاع ، فإتماماً لهذه المهمة وجهت إلى السلطة المطلقة على جميع الأطراف التى تقاتل فيها جنودنا .

إن جيوشنا لم تدخل مدنكم وأراضيكم بصفتهم قاهرين أو أعداء بل بصفتهم محررين فقد أخضع مواطنوكم منذ أيام هولاكو لمظالم الغرباء نخربت قصوركم وذوت حدائقكم وفنى أشخاصكم وأسلافكم من جور الاسترقاق ، لقد سيق أبناؤكم إلى حروب لم ينشدوها وجروكم القوم الظالمة من ثروتكم وبددوها فى أصقاع شاسعة . تكلم الترك من أيام مدحت باشا على الاصلاح ، أفليس دثور العراق واقفاره برهاناً على بطلان هذه المواعيد .

وأنها ليست أمنية جلالة مليكى المعظم وأمنية شعوبه فقط ، بل هى أمنية الأمم العظمى المتحالفة معها حكومة جلالته أن تعودوا كما فى السابق . وقد كانت أراضيكم مخصبة وكان العالم يتغذى بألبان آداب أجدادكم وعلومهم وصناعتهم وقد كانت بغداد إحدى غرائب الدنيا ، لقد أنيط قومكم بممتلكات جلالة مليكى المعظم بعروة المصالح الوثقى ، فقد تبادل تجار بغداد وتجار بريطانيا من مئتى سنة المنفعة والصداقة .

أما الألمان والأتراك الذين نهبوكم أنتم وذويكم فقد اتخذوا بغداد مدة عشرين سنة مركزاً يهجمون منه على نفوذ البريطانيين وحلفائهم فى إيران والبلاد العربية ولذلك لم تستطع الحكومة البريطانية السكوت عما يحدث فى وطنكم حاضراً أو مستقبلا ولا تتسامح قياماً بواجب مصلحة الشعوب البريطانية ومصلحة حلفائها فى أن يرتكب الترك ما ارتكبوه مرة ثانية فى بغداد .

ويجب عليكم ياأهل بغداد يامن جئنا نحميكم من الظلم والغزو ونضمن حرية تجارتكم ، ويامن ستنالون مايستوجب أدق اهتمام الحكومة البريطانية أن تعلموا أن هذه الحكومة لن نفرض عليكم أنظمة أجنبية عنكم فأمنيتها الوحيدة أن تحقق ما تطمح إليه نفوس فلاسفتكم وكتابكم مرة أخرى ، ولسوف يسعد أهالى بغداد ويتمتعون بالغنى المادى والأدبى بفضل نظامات توافق قوانينهم المقدسة وأطماعهم القومية ، لقد طرد العرب فى الحجاز الترك والألمان الذين بغوا عليهم ونادوا بعظمة الشريف حسين ملكا عليهم ، وعظمته يحكم مستقلا حراً وهو متحالف مع الأمم التى تحارب دولتى تركيا وألمانيا وهذا شأن أشراف العرب وأمراء نجد والكويت وعسير . لقد ذهب كثيرون من أشراف العرب ضحية فى سبيل الحرية على أيدى أولئك الحكام الغرباء الذين ظلموهم وانكلترة وحلفاؤها مصممون على ألا تذهب دماء هؤلاء الأبطال هدرا ، وأمنية انكلترة وحلفاؤها أن تسمو الأمة العربية مرة أخرى . وتستعيد عظمتها ومجدها ، وأن تعمل لإدراك هذه الأمنية متحدة متفقة .

ياأهل بغداد تذكروا أنكم تألمتم ٢٦ جيلا أذاكم الظلمة والغرباء الذين سعوا دائماً إلى الإيقاع بين البيت ورب البيت كى يستفيدوا من شقاقكم فهذه السياسة مكروهة عند بريطانيا وحلفائها لأنها إغراء بالعداوة ولا يستقيم معها حال ولا يستقر معها سلام وأنا مأمور بأن أدعوكم بواسطة أشرافكم وشيوخكم الطاعنين فى السن وممثليكم إلى الاشتراك فى إدارة مصالحكم الملكية لمعاضدة ممثلى بريطانيا السياسيين المرافقين للجيش كما تنضمون إلى ذوى رحمكم شمالا وشرقاً وجنوباً وغرباً فى تحقيق أطماعكم القومية .

صدر من مركز رئاسة الجيش البريطانى ببغداد فى ٢٤ جمادى الأولى سنة ١٣٣٥ الموافق ١٩ مارس سنه ١٩١٧ .

ظل الإنجليز رغم وعودهم يديرون الحكم فى العراق بأيديهم والبلاد تنتظر حكما وطنياً مستقلا حراً فى أعماله وإدارة شئون بلاده حتى أعلن الانتداب على العراق فى مؤتمر سان ريمو وتم تأييده فى مؤتمر سيفر فهاج العراق من أقصاه إلى أقصاه وأذاعت جمعية العهد (التى ألفها الضباط العرب فى الجيش العثمانى قبل الحرب والتى كان جل أعضائها من الضباط العراقيين) بياناً نددت فيه بهذه المقررات ودعت العراق إلى مقابلة هذا العمل بالقوة وكانت قد أنشئت جمعية سرية عرفت باسم جمعية حرس الاستقلال فى تشرين الثانى من عام ١٩١٩ غايتها استقلال العراق استقلالا تاماً دون الحاجة إلى مساعدة بريطانيا ثم تم الاتفاق بين جمعيتى العهد والحرس وتشكلت منهما لجنة مشتركة لتوحيد الجهود . وكان العراق يتأجج ويتأهب فالتهبت الثورة فى كل مكان من العراق ووقعت الحوادث الدموية التى أبانت عن قوة الثورة وخسر الإنجليز فيها خسائر فادحة . فرجعوا إلى الصواب وبدءوا يفكرون فى تأليف حكومة وطنية تدير البلاد باستشارة البريطانيين ومهدت بريطانيا لذلك لإقامة حكم ملكى دستورى . وكانت نتيجة مؤتمر القاهرة الذى دعا إليه تشرشل فى مارس ١٩٢١ دعوة الأمير فيصل إلى العراق وأجرى استفتاء شعبى نال به الأمير ما يكاد أن يكون اجماعاً فقد كانت النتيجة بجانبه بنسبة (٩٧٪) وفى ٢٣ أغسطس من عام ١٩٢١ توج فيصل ملكا على العراق فبدأ العراق حياة جديدة فى اصطراع بين الأمانى الوطنية ومطالب الإنجليز . وفى رغبة الملك والشعب فى تحديد الصلة بين العراق وبريطانيا وضعت نصوص معاهدة تم عقدها فى ١٠ تشرين الأول من عام ١٩٢٢ على أن يتم تنفيذها بعد مصادقة المجلس التأسيسى عليها ، وقد حددت هذه المعاهدة صلة العراق ببريطانيا فى قبول استشارة الانكليز فى الأمور المالية والخارجية وألحقت بها اتفاقات قضائية وعسكرية ومالية والغرض منها تأمين مكانة

الإنجليز فى البلاد . وعورضت هذه المعاهدة معارضة شديدة لما فيها من المخالفة لسيادة البلاد . ولكن المجلس التأسيسى صادق عليها طمعاً فى وضع حد للانتداب وتمشياً مع سياسة خذ واعط . ثم انصرف المجلس التأسيسى لوضع دستور البلاد على أسس ديمقراطية سليمة وضحت فيه حقوق الشعب والملك وجرت فيه تعديلات أخرى أهمها أنه أصبح للملك حق إقالة الوزارة بعد أن كانت تبقى فى الحكم ما دامت متمتعة بثقة الأكثرية .

بعد استقرار البلاد الدستورى بدأت صلات العراق تتحدد فى كل فرصة بينه وبين بريطانيا حتى كانت معاهدة ١٩٣٠ التى ارتكزت على أساس أن بريطانيا ترشح العراق للدخول فى عصبة الأمم فى عام ١٩٣٢ دولة مستقلة ذات سيادة . وتقوم بمحالفة بين البلدين تستمر خمسة وعشرين عاماً ، تسوى فيها مصالح الطرفين بطريق التشاور وتبادل الرأى ، وأن تتخلى بريطانيا عن جميع المسئوليات الملقاة على عاتق الدولة المنتدبة وتنتقل المسئوليات إلى ملك العراق . وفرضت المعاهدة مساعدات متبادلة من الطرفين قوبلت بمعارضة شديدة فى البلاد ومع كل هذه المعارضة صودق عليها .

أصبح العراق يمارس حكم الوطنى المستقل بعد أن دخل عصبة الأمم عام ١٩٣٢ وزال عنه الانتداب وهو فى سبيل التخلص من هذه المعاهدة بعد انتهاء مدتها ، إذ أصبح مفعولها لا وجود له بعد أن أصبح العراق عضواً فى هيئة الأمم المتحدة . ومشى العراق شوطاً واسعاً فى ميدان الثقافة والعمران وقد وضع الخطط لإنجاز مشروعات ضخمة اقتصادية واجتماعية وبدأ فى تنفيذها فعلا .

شرق الأردن

كان اتفاق سايكس — بيكو مزق البلاد العربية شر ممزق وكانت فلسطين شلواً من هذه الأشلاء التى كان يجب أن تكون دولية ، أى توضع

تحت إدارة دولية ، ولكن اليهود سعوا سعياً حثيثاً لإبطال هذا النص وتم وضعها تحت الانتداب الإنجليزى ليتموا الصفقة ، وكانت أراضى شرق الأردن بعيدة عن هذا التدويل ، وبعيدة فى نظر الإنجليز أن تكون تحت انتداب الفرنسيين ، فلما حلّ بها الأمير عبد الله كى يثأر لفيصل من فرنسا نبطت فكرة وضعها فى مؤتمر القاهرة الذى دعا إليه تشرشل فى شهر مارس من عام ١٩٢١ وتم تكوين الإمارة على أن يكون عبد الله أميراً عليها وأن تعينه بريطانيا بنفقات هذه الإمارة الصغيرة ، ومشت تتقدم حتى أعلنت الملكية وبويع عبد الله ملكا عليها . لم يشمل وعد بلفور هذه المنطقة العربية فظلت بعيدة عن أخطبوطه فلما نفذ الإنجليز والصهيونيون خطتهم فى إقامة إسرائيل أضيف إليها القسم العربى الذى قضى به التقسيم فازدادت هذه المملكة الصغيرة اتساعاً ولا تزال تصطرع مع هذه الدولة النابطة على حدودها وحدود البلاد العربية الأخرى ولا يزال الاصطراع قائماً والعرب الذين تركوا ديارهم لا يزالون مشردين بالعراء يفتك بهم أعداء الإنسانية الجوع والمرض والجهل وضمير أوربا وأمريكا جامد لا يتحرك .

بعض الحركات الاستقلالية والثورات

صارعت فلسطين صراعاً عنيفاً أمام ذهب اليهود وكيدهم وسياسة المستعمر وقوى الغرب التى عبأتها إسرائيل ، وكانت هذه الثورات تهدأ بمائدة مستديرة تعقد بين الطرفين ، ولجان تؤلف لتحقيق هذه القضايا ، وخطط ومشروعات توضع ، ولكنها كانت كلها مخدراً حتى إذا حل وقت انتهاء الانتداب كان اليهود على استعداد تام لاستلام أقسامهم التى وضعت فى الخطط المرسومة ، ووقفت الجيوش العربية تنظر إلى هذا البلد تستقطع دياره داراً بعد دار ، والأسر العربية تتراكض من الذعر

والخوف والفزع الذى ألقاه اليهود فى قلوبهم حتى خرجوا من ديارهم إلى العراء وهكذا نبتت مأساة لا تزال فصولها يرفع عنها الستار فصلا بعد فصل .

سوريا ولبنان

لم تهدأ سوريا منذ أن نزلت جيوش فرنسا فى سواحلها وزحفت على مدنها تتغلغل فى البلاد حتى وقعت واقعة ميسلون وقضى على حكومة الملك فيصل . ظلت هـذه الواقعة الغادرة تتردد فى سمع العالم العربى وفى قلوب أبناء البلاد حتى ثارت سوريا لنفسها فى ثورتها الكبرى عامى ١٩٢٥ — ١٩٢٦ . ووقفت البلاد السورية يعضدها العالم العربى وقفة مشرفة فى وجه الظلم ، فان الفرنسيين أخذوا فى تنفيذ خططهم لقتل الروح الوطنية وإفقار البلاد وبث التفرقة بين أبناء البلد الواحد وإيجاد الشحناء وتخويف البلاد من جيرانها وتنازلها عن لواء الاسكندرونة الذى يعتبر جزءاً من البلاد لتركيا وكم مرة خربت مدينة دمشق بالمدافع والطائرات وهجمت البيوت على العجزة والنساء والأطفال وما كانوا يظهرونه من المسايرة للوطنيين كان ستاراً ينفذون وراءه خططهم وظلوا على هذه الحال فى صراع مستمر وتفقير وتجويع وإعانة على إبقاء الجهل ومحاربة التعليم حتى وقعت الحرب العالمية الثانية التى انهارت بها هذه الدولة المستعمرة .

وبالرغم من انهيارها أخذت قواتها تحاول القضاء على كل فكرة تدعو إلى تحرير البلاد وشنت غارة شعواء على دمشق تسندها الطيارات والدبابات وقنابل المدافع الثقيلة تتساقط على الدور والشوارع . وتدخلت الحكومة البريطانية فى الأمر وأيدتها أمريكا ، وقامت البلاد العربية وقعدت لهذه المأساة وكان دور الجامعة العربية دوراً مهماً فكان

من نتيجة ذلك كله إيقاف نيران الفرنسيين وإجبارهم على الجلاء عن البلاد وقد تم الجلاء عن سوريا فى يوم ١٥ نيسان واحتفل به واعتبر عيداً قومياً فى يوم ١٧ نيسان من عام ١٩٤٦ كما تم الجلاء عن لبنان فى العام نفسه فى ٣١ من شهر كانون الأول واعتبر هذا اليوم أيضاً عيداً قومياً .

مصر

لمصر الحظ الأكبر فى اليقظة الفكرية والسياسية فى مفتتح القرن التاسع عشر ، لقد حفظ الأزهر تراث العرب والإسلام فكان مصدر غذاء لهذه اليقظة أعان مصر على أن تتبوأ مكانة مرموقة فى العالم العربى ، فإن البعوث التى أرسلت إلى أوربا أيام محمد على باشا كانت كلها من هذا الجامع فلما أتمت دراستها عادت تحمل ثقافة الغرب إلى جانب الثقافة الإسلامية فبدأت نهضة عربية أدبية وعلمية كان لها أكبر الأثر فى حركات الشرق العربى والإسلامى . زد على ذلك فان مصر صارت ملجأ الأحرار من العرب يبثون آراءهم فى محافلها وصحفها ومنها ينشرون للعالم ما يريدون ، ولكن مصر هذه منيت كما منيت كل دولة عربية فى هذا الشرق العربى باعتداء عنيف فقد نزلت جيوش بريطانيا فى الاسكندرية عام ١٨٨٢ فكان بدء صراع بين قوة تحاول إخماد كل حركة فكرية وصناعية وهى قوة المستعمر وبين قوة تريد أن تنهض وتتحرر وهى قوة أهل البلاد وقد انبعث فى هذا الوادى أحرار قارعوا الظلم وأيقظوا الأمة منهم أحمد عرابى فى الجيش ، وجمال الدين ومحمد عبده فى السياسة والاجتماع ومصطفى كامل وسعد زغلول ومصطفى النحاس فى السياسة وكل هؤلاء كانوا حرباً على هذا الاحتلال الذى لم يجد له العالم الحر معنى فى قاموس حقوق الإنسان .

احتلت بريطانيا مصر من عام ١٨٨٢ وظلت تتصرف كيفما تشاء إلى أن أعلنت الحرب العالمية الأولى فأعلنت بريطانيا حمايتها على مصر فى ١٨ كانون الأول عام ١٩١٤ وقطعت بهذا الإعلان صلة مصر بالدولة العثمانية وخلعت الخديوى وأقامت آخر مقامه أعطته لقب « السلطان » كان الحكم الفعلى فى مصر للمندوب السامى وكانت هذه الحالة لا ترضى أحرار المصريين . لقد لعب الحزب الوطنى الذى ألفه مصطفى كامل دوراً مهماً فى إيقاظ النفوس وإسماع صوت مصر للعالم ثائراً على هذا الاعتداء وقد لان الإنجليز فى بعض الأحيان وأعطوا شيئاً من الحقوق لمصر ولكنها منح القوى الجبار غليظ القلب إلى الأعزل صاحب الحق ، فلما وضعت الحرب أوزارها وهدأت أعصاب الأمم المتوترة فتحت مصر عينيها على وضع غير طبيعى ، فإن مبادئ ولسن قد ملأت سمع العالم وأن أسباب الحرية والدولة كاملة متوفرة فى مصر فلماذا لا تستقل ولماذا يبقى هذا الوضع ؟

برز سعد زغلول للوجود فألف وفداً باسم الشعب المصرى وذهب إلى المندوب السامى يبلغه مطالب مصر وأمانيها فكانت نقطة بدء لصراع عنيف . انتهت باعتقال سعد وعدد كبير من إخوانه الأحرار وأرسلتهم إلى مالطة فى ٨ مارت من عام ١٩١٩ فثارت البلاد من أقصاها ، واضطرت انجلترة إلى تصريح ٢٨ شباط عام ١٩٢٢ وفيه إلغاء الحماية واعتبار مصر دولة مستقلة ذات سيادة واتخذ سلطان مصر لنفسه لقب الملك وأعلن دستور المملكة فى ١٩ نيسان ١٩٢٣ ورغم هذا الوضع الواضح فإن بريطانيا جاثمة فى صدر القناة تتدخل فى شئون مصر تدخلا لم يرض الأحرار ، وظل الصراع مستمراً فى طلب الجلاء عن مصر والسودان وهو طلب لا شك فى عدالته ، كانت تنشأ مفاوضات بين

مصر وبريطانيا ، وكانت هذه المفاوضات شبه مادة مخدرة تفثأ ثورات الوطنيين ولكن إلى حين .

فكم مرة وعدت بريطانيا فأخلفت ، وكم فاوضت فراوغت ، ومصر صابرة مثابرة إلى أن عقدت بينهما معاهدة ١٩٣٦ حددت فيها العلاقات بين مصر وبريطانيا على أن تستمر عشرين عاماً ، وفيها ألغيت الامتيازات الأجنبية التي كلفت مصر جهداً وخلقا ، فقد استغلها الأجانب استغلالا فظيعاً خارجا على حدود الإنسانية ، وفى هذه المعاهدة الاعتراف بسيادة مصر ، وإنهاء الاحتلال العسكرى ، وهذه المعاهدة على مكانتها لم تجد فيها بريطانيا إلا حبراً على ورق عندما تريد أن تملى إرادتها فيما يهم مصالح الإمبراطورية ، ورغم من إلغاء مصر لها فإن بريطانيا لا تزال متمسكة بها ، وقد زالت الملكية من مصر وأعلن النظام الجمهورى ، ولا تزال المفاوضات مستمرة متقطعة ، للخلاص من هذا الاحتلال الجاثم على صدر القناة ، إن مصر دولة مكتملة بكل معانى الاكتمال لدولة فى القرن العشرين ، تقدمت شوطاً عظيما فى الحضارة والثقافة وهى البلد العربى الوحيد الذى يملك ثلاث جامعات وفى سبيل إنشاء جامعة رابعة ، عدا المعاهدالعلمية العالية ، ودوائر البحوث ومختبرات التجارب ، ولها وضعها الاقتصادى المنتظم ومكانة دولية مرموقة وعدد من السكان يجعلها فى عداد الدول الكبيرة .

شبه الجزيرة العربية

وفى شبه الجزيرة العربية استقر الملك لابن سعود فى ضم الحجاز وعسير إلى سلطنته فأعلن النظام الملكى وتسمت مملكته باسم المملكة العربية السعودية ، ونبعت آبار البترول فى ديار نجد فاستطاع أن يدخل

أساليب الحضارة بصورة واسعة ، وينشر الثقافة بصورة أوسع ، ويعنى في إيجاد جيش مدرب ، ويحضر البدو ويجعل للملكة نظاماً مستقراً على أسس المركزية فهو يعين الولاة وهو الذى يوجههم فى أعمالهم ويسير فى حكمه على أسس الشريعة الإسلامية والقرآن الكريم ، فالأمن منتشر فى البلاد والجرائم قلما يسمع عنها ، وفى هذا السير الحثيث فى المعارف وإدخال وسائل المدنية والحضارة أصبحت المملكة العربية السعودية تتطلع إلى مستقبل يكون لها فيه شأن .

والمملكة اليمنية المتوكلية قد خرجت عن عزلتها وأصبحت تبعث البعوث للدراسة فى الشرق والغرب وتعنى بنشر الثقافة وإدخال أساليب الحضارة ، ولكنها لا تزال فى صراع دائم بينها وبين المستعمر ، على أن هذا الصراع يلقى فى كل يوم دروساً على اليمن للاسراع فى استكمال العدة والعدد وتهيئة أجيال قادرة على رد العدوان واسترجاع ما اقتطع منها إلى حضيرة البلاد .

جامعة الدول العربية

هى أمنية كانت تتردد على فم كل من يشعر بحق هذه البلاد فى الوجود ، ويقرأ أمجاد آبائه الأولين ويلمح فيها مواطن العزة والقوة والتكوين ، ثم يرى كيف أصبحت الأمم تطمع فى طمس معالم هذه الأمجاد والاستيلاء على موارد الرزق ومصادرها فى بلاده ، ذلك للانفراد الذى بعثته ظروف الماضى وتركته يتقوى من حيث يضعف ، فالفردية القوية فى نفسها أضعاف المجموعة . كان شعور أبناء هذه البلاد يزداد يوماً بعد يوم ويقوى فى إيجاد رابطة فيها معنى القوة وفيها معنى العزة التى تحافظ على كرامة الحرية ، الصحف تنشر ، والخطيب يخطب ، والمؤلف يؤلف ، وإنك لا تمر فى بحث يتناول قضايا الشرق العربى إلا تعرض

للوحدة والاتحاد ، لما فى ذلك من خلاص هذه البلاد من أطماع الطامعين وأخطبوط المستعمرين .

إن التفكير فى تكوين جامعة الدول العربية وحده فيه إجابة هذه الرغبة فكيف بها إذا التأمت وبدأت أعمالها ، لقد أثبتت الحروب الحديثة أن أية أمة من الأمم لا تستطيع وحدها أن تقوم بحرب لاسترداد حق ، أو دفاع عن حق ودفع لباطل ، وقد يسرى هذا الرأى على مشروعات السلم .

إن تاريخ الحروب الحديثة شاهد عدل على تكوين مجموعات متباينة الأجناس موحدة المصالح تترابط فيما بينها ، وتتفاهم على هدف معين بصوت مصالحها مجتمعة ، فكيف بدول الجامعة ؟

إن لهذه البلاد تاريخاً تلتق فيها أمجادها ، ولها ثقافة تكاد تكون موحدة ، ولها روابط جغرافية ومصالح اقتصادية ، ولغة واحدة ووشائج اجتماعية تميزها عن بقية الأمم مما يسهل عليها الألفة والاجتماع ، زد على ذلك رابطة الدم والعقيدة ، فجامعة الدول العربية تكاد تكون فى مجموعها لها مقومات الدولة الواحدة ، ولم لا ؟ ألم تكن هذه الدول فى يوم من الأيام مجتمعة يظللها علم واحد وجيش واحد ومالية واحدة ؟ أفليس من السهل عليها أن توحد جهودها لخير الإنسانية ولصالح بلادها ؟ إن فى هذه الجامعة من عناصر قوى الاجتماع والسياسة ما لم يتوفر فى أية مجموعة إقليمية أخرى ، ولو استطيع التوسع لحذفت هذه الصفة « صفة المجموعة الإقليمية » ولأطلقت عليها ماهو أكثر دلالة على وحدة لا تنفصم عراها .

لقد تحقق إذن شطر عظيم من هذه الرغبة التى كان يفيض بها شعور كل مخلص لهذه البلاد ، ووجدت الأمم الأجنبية فى تكوينها خيراً عظيما للإنسانية والسلم العالمى ، إننى واثق جد الثقة أنه كلما تقدمت هذه الجامعة من ذروة القوة قوى الأمل باستمرار السلم فى هذا الشرق وانصرفت

عنه مطامع الدول الجشعة المتطاحنة على الأسواق والمواد الأولية والنقاط الستراتيجية . فالدول العربية مجتمعة تستطيع أن تحافظ على التوازن الدولى ، وتستطيع أن تملى سياسة مثلى على العالم .

وموجز القول : إن القصد من تكوين الجامعة قصد شريف ، ويهدف هذا القصد : فى حفظ السلام فى الشرق الأدنى ، ورعاية مصالح هذه الدول المؤلفة منها الجامعة ، ثم حفظ التوازن الدولى .

إن تكوين الجامعة دليل على صحة يقظة العرب ونضوج هذه اليقظة ، وكلما اتسع أفق فى هذه الناحية اشتد الترابط وتقاربت الآراء وتوحدت الجهود .

بدأت فكرة الجامعة مضببة فى أذهان الناس وأمنية يتمنونها ، ثم ما لبثت أن اتضحت خطوطها وبانت معالمها .

فقد دعت الحكومة المصرية فى منتصف أغسطس عام ١٩٤٣ كلا من سوريا ولبنان والمملكة العربية السعودية والعراق واليمن وشرق الأردن إلى إيفاد مندوبين عنها لتبادل الآراء فى موضوع الوحدة العربية فكانت هذه أول خطوة فى وضع أسس الجامعة ومازال البحث مستمراً حتى تم وضع الميثاق واجتمع المؤتمر العربى العام بقصر الزعفران بالقاهرة يوم الخميس ٨ ربيع الثانى فى عام ١٣٦٤ الموافق ٢٢مارس سنة ١٩٤٥ فى الساعة الرابعة بعد الظهر برياسة محمود فهمى باشا النقراشى رئيس وزراء المملكة المصرية ووقع مندوبو الوفود العربية ما عدا ممثلو المملكة العربية السعودية والمملكة اليمنية ميثاق جامعة الدول العربية وبذلك تم ميلاد قوة لهذا الشرق يحسب لها حسابها . ثم ما لبث الأمر حتى وقعت جميع الدول العربية وصار من المقرر أن يكون ٢٢ مارس من كل عام عيد ميلاد الجامعة .

وقد نص الميثاق على أنه لكل دولة عربية مستقلة حق الانضمام للجامعة وحق الانسحاب ، وهذا الحق الأخير مقيد بشرط أن تخبر الدولة المنسحبة مجلس الجامعة قبل ذلك بسنة .

أما أهداف الجامعة فقد أوجزتها المادة الثانية من الميثاق وهى :

الغرض من الجامعة توثيق الصلات بين الدول المشتركة فيها وتنسيق خططها السياسية تحقيقاً للتعاون بينها وصيانة لاستقلالها وسيادتها والنظر بصفة عامة فى شئون البلاد العربية ومصالحها .

ومن أغراضها تعاون الدول المشتركة فيها تعاوناً وثيقاً بحسب نظم كل منها وأحوالها فى الشئون الآتية :

(ا) الشئون الاقتصادية والمالية ويدخل فى ذلك التبادل التجارى والجمارك والعملة وأمور الزراعة والصناعة .

(ب) شئون المواصلات ، ويدخل فى ذلك السكك الحديدية والطرق والطيران والبرق والبريد .

(ح) شئون الثقافة .

(ى) شئون الجنسية والجوازات والتأشيرات وتنفيذ الأحكام وتسليم المجرمين .

(ه) الشئون الاجتماعية .

(و) الشئون الصحية .

ولا ريب فى أن الجامعة العربية قطعت شوطاً فى البحوث الثقافية وتقارب المناهج وتوحيد الثقافة ، كما فعلت فى حقل الشئون الاجتماعية بما تقيمه من الحلقات الدراسية فى هذه الناحية . ومست شوطاً واسعاً فى القضايا السياسية ولكن العرب يأملون منها أكثر وسوف يأتى

اليوم الذى يمكن لهـذه المؤسسة أن تحدد مكانة الشرق الأوسط فى الصراع الدولى .

إن العالم العربى الذى يمتد فى سلسلة طرفها الغربى يشرف على سواحل المحيط الأطلنطى ثم تمتد مارة بالشواطىء الجنوبية للبحر الأبيض المتوسط فتشرف على البحر الأحمر والمحيط الهندى فى الشرق فتضم بين جنباتها شمال أفريقيا ومصر وبلاد الشام (سوريا ، فلسطين ، لبنان) والعراق وقلب الجزيرة ، تكون قوة هائلة تستطيع أن تتحكم فى التوازن الدولى .

إن لها من أمجادها ومآثرها ما يمكن أن يكون معيناً لا ينضب تستمد منه قوة تضمها إلى ما تكتسبه فى يقظتها هذه فتكون من مجموع ذلك كله مادة ممتازة تقدمها للإنسانية والحضارة .

ثبت المصادر العربية

وفيها ما نشره المستشرقون وعلقوا عليه

الطبرى : طبع أوربا من سنة ١٨٧٩ إلى ١٩٠١
نولدكه : تاريخ الفرس والعرب فى أيام الساسانيين مأخوذاً عن تاريخ الطبرى ليدن ١٨٧٩
اليعقوبى : طبع أوربا ١٨٨٣
ابن الأثير : « الكامل » طبع القاهرة ١٣٠٢
ابن خلدون : « العبر » طبع بولاق ١٢٨٤
ابن خلدون : « المقدمة » طبع القاهرة ، وطبعة باريس ١٨٥٨
ابن القفطى : « تاريخ الحكماء » طبع أوربا ١٩٠٣
المقريزى : « الخطط » طبع القاهرة ١٢٧٠
ابن دريد : كتاب الاشتقاق طبع أوربا ١٨٥٤
البيرونى : « تاريخ الشعوب الشرقية » طبع أوربا ١٨٧٨
البلاذرى : « فتوح البلدان » طبع أوربا ١٨٦٦
البلاذرى : « أنساب الأشراف » ١٩٣٦ ، ١٩٣٨
ابن الطقطق : « الفخرى » القاهرة ١٣٤٥
أبو الفداء : القاهرة ١٩٢٥
المسعودى : طبع باريس ١٨٦١ — ١٨٧٧
ابن النديم : « الفهرست » طبع لايبك ١٨٧١ — ١٨٧٢
ابن هشام : « السيرة » طبع أوربا ١٨٥٨ — ١٨٦٠
ابن سعد : « طبقات الصحابة » طبع أوربا ١٩٠٤
ابن فضلان : « رحلة » نشرها الأستاذ زكى الوليدى ١٩٣٩

محمد كرد علي : « الإسلام والحضارة العربية » القاهرة ١٩٣٦

ابن مسكويه : « تجارب الأمم »

الرذراوري : « ذيل تجارب الأمم »

انجيلو جويدي : نشر كتاب « القاسم بن إبراهيم » المسمى : الرد على اللعين الزنديق عبد الله بن المقفع عليه لعنة الله »

برغشتراسر : الإسلام والمانوية — المجلة الإسلامية — تصدر باللغة الألمانية ١٩٢٩

أبو الفرج الأصفهاني : « كتاب الأغاني » طبع بولاق ١٢٨٥ هـ

ياقوت : إرشاد الأريب « إلى معرفة الأديب » طبع ليدن ١٩٠٧ إلى ١٩٢٦

المبرد : « الكامل » طبع أوربا ١٨٦٤ إلى ١٨٩٢

ابن عبد ربه : « العقد الفريد » طبع القاهرة ١٣٢١

محمود شكري الآلوسي : بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب » بغداد ١٣١٤

محمد كرد علي : « رسائل البلغاء » القاهره ١٩١٣

أبو العلاء المعري : « رسالة الغفران » القاهرة ١٩٠٣

المتنبي : « ديوان » طبع أوربا ١٨٦٠

أبو تمام : « الحماسة » طبع بولاق ١٢٩٦هـ وطبع القاهرة ١٣٤٦

فردريش ريكرت : (ترجمة الحماسة إلى اللغة الألمانية) ١٨٤٦

باول شوارتز : (ديوان عمر بن أبي ربيعة) ١٩٠٢ — ١٩٠٩

هرشفيلد : « ديوان حسان بن ثابت » ١٩١٠

جورج يعقوبي : « دراسات في شعر الشنفرى » باللغة الألمانية ١٩١٤ ، ١٩١٥

ف . ا . أرنولد : « المعلقات السبعة » ١٨٥٠

نولدكه : « المعلقات الخمسة مترجمة ومشروحة » ١٨٩٩ - ١٩٠١

شارل جيمس لايل : شرح الشعر العربي القديم وشرح المعلقات السبعة كلكتا ١٨٩٤
فردريش ريكرت : « امرؤ القيس الشاعر والملك » ١٩٢٤
سالمون غاندز : « معلقة امرىء القيس » اطوحه ١٩١٣
أبو العتاهية : « ديوان » بيروت ١٨٨٦
أبو نواس : « ديوان » القاهرة ١٢٧٧
ابن منظور : « أخبار أبي نواس » القاهرة ١٩٢٧
عبدالرحمن الكواكبي : أم القرى المطبعة المصرية ١٩٣١
جمال الدين الأفغاني : خاطرات المطبعة العلمية بيروت ١٩٣١
عبدالرحمن الكواكبي : طبائع الاستبداد
ابن تيمية : رسائل ابن تيمية الكبرى
ابن تيمية : السياسية الشرعية فى إصلاح الراعى والرعية
جورجي زيدان : مشاهير الشرق
جمال الدين الأفغاني والشيخ محمد عبده } العروة الوثقى المكتبة الأهلية بيروت ١٩٣٣
الشيخ محمد عبده : تفسير القرآن الكريم جزء عم ١٣٤١ القاهرة
أمين سعيد : الثورة العربية الكبرى ثلاث مجلدات .
عجاج نويهض : حاضر العالم الإسلامى مع تعليقات الأمير شكيب أرسلان .
أسعد داغر : الثورة العربية الكبرى .
رشيد رضا : مجلة المنار .
أمين الريحانى : ملوك العرب .
محى الدين الخطيب : المؤتمر العربى الأول .
: ميثاق الدول العربية .

المصادر الغربية

Enzyklopaedie des Islam, Leiden 1913 ff.

C. Brockelmann. Geschichte der arabischen Literatur I 1898 Supplement dazu 1937.

W. Ahlwardt, Uber Poesie und Poetik der Araber. Gotha 1856.

Chalef El-ahmar und Josef von Hammer, Greifswald 1820.

J. Wellhausen, Das arabische Reich und sein Sturz, Berlin 1602.

A. von Cremer, Culturgeschichte des Orients unter den Chalifen, Wien 1875-1877.

Culturgeschichtliche Streifzuge auf dem Gebiete des Islams, Leipzig 1873.

Geschichte der herrschenden Ideen des Islams, Leipsig 1868.

A. Mez, Die Renaissance des Islams, Heidelberg 1922.

A. Muller, Der Islam im Morgen-und Abendland, Berlin 1885-1887.

I. Goldziher, Muhammedanische Studien, Halle a. S. 1889-1890.

Abhandlungen zur arabischen Philologie I und II, Leiden 1896 und 1899.

O. Rescher, Abriss der arabischen Literaturgeschichte I, Stuttgart 1925.

G. Van Vloten, Recherches sur la Domination arabe, le Chiitisme et les Croyances messianiques sous le Khalifat des Omayyades. Amsterdam 1894. (Arabische Ubersetzung, Kairo 1934.)

G. Vajda, Les zindiqs en pays d'Islam au début de la période abbaside. Rivista degli Studi Orientali XVII, 174-229.

Stuhlmann. Der kamrf um arabien Berlin 1916.
E. Topf : die Staatenbildungen in der arabischen teilen der turkei Hamburg 1929.
E. Jung : la Révolte arab. Paris 1925.
E. Nolde Reise nach innerarabien 1895.
G. Bell : the letters of gertrude Bell 1924.
M. Hartmann : Reisebriefe aus syrien Berlin 1913.
H. Rohde ; der kampf um oreint und islam Stuttgart 1924.

الثبت

الخطأ والصواب

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
٥	٧	تيم	تيم
١٠	٤	مضاتها	مظانها
١٢	١٦	القائدأن	القائدان
١٣	٢٠	سلطة	سطة
١٤	١٧	كؤود لبحوره	لكؤوده وبحوره
٢٠	١٤	فاسط	قاسط
٢٨	١٢	وارت	وارث
٢٩	١٠	وامادناه	وامادتاه
٢٩	١٤	سعد	عمرو بن سعد
٣١	١٠	العلم	العام
٣٣	١٢	إن المؤمنون إخوة	المؤمنون إخوة
٣٩	١٧	مزوجة	زوجة
٤٢	١	كتاب	كتب
٤٣	١٤	الأشراق	الأشراف
٥٦	١٧	وبدأ تعاليمه	وبدأ المقنع تعاليمه
٥٨	٢١	اشتد	استند
٥٨	٢١	افادة	أفاده
٥٨	٢١	فهى	فهيأ
٥٩	١٧	ألهو	ألهوا
٧١	١٧	الأقشين	الأفشين
٨٠	١٦	ذريخ	ذريع
١٢٢	١	تقلب	تلقب
١٢٠	١٧	عينية	عيينة
١٥٨	١١	رسالتهم	رسالتهما
١٦٠	١٢	مقصود	معقود
١٦٠	١٨	تخير	تخبر
١٦٣	٦	الجبارة	الجبابرة
١٧٥	١٠	تفاورت	تعاورت
١٧٦	٨	فتا	فتاء
١٧٦	٨	حرة	شرة
٢٠٦	٧	الفوا	الفوا

